

مجلة كلية الآداب



المجلد الواحد والثلاثون

١٩٨٣ / ٨٢

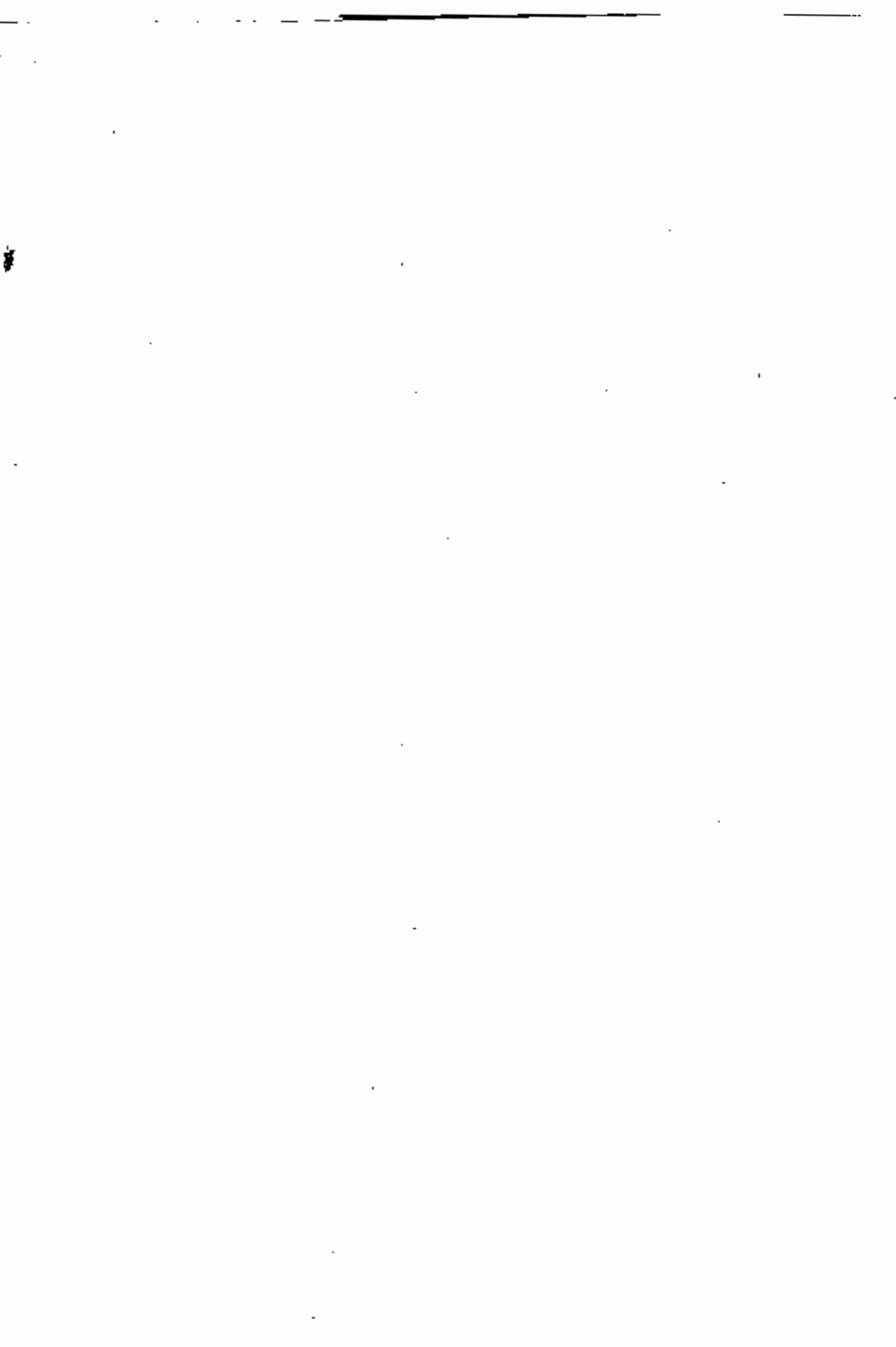
تطلب هذه المجلة من مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية
بالشاطبي ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية إلى كلية الآداب.



فهرس

- ١ - نشأة وتطور العلاقات الدبلوماسية بين مصر وليبيا أثناء العصر الفرعوني
دكتورة نبيلة محمد عبد الحليم ١
- ٢ - نشأة وتطور العلاقات السياسية المصرية النوية خلال العصر
التاريخي :
دكتورة نبيلة محمد عبد الحليم ٢٣
- ٣ - الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينيس
دكتور محمود سعيد عمران ٥٥
- ٤ - الشرائع العراقية القديمة
دكتورة نبيلة محمد عبد الحليم ٩٧
- ٥ - أبو عبيد البكري
دكتور محمد أحمد أبو الفضل ١٣١
- ٦ - قاضي القضاة في مصر
دكتور جابر سلامة المصري ١٦٥

**CENTRAGE NARRATIF ET CONDENSATIONS
REFLEXIVES DANS LES RECITS DE VOYAGE
D'ANDRE GIDE
Par NADIA ABDALLAH**



نشأ وتطور العلاقات السياسية

بين مصر وليبيا أثناء العصر المرموني

دكتورة نبيلة محمد عبد الحليم
كلية التربية - جامعة الاسكندرية

اكتسبت الصلات المصرية الليبية أهمية خاصة في السياسة الخارجية المصرية منذ أقدم العصور . ولقد اعتمدت تلك العلاقات على مقومات جغرافية وطبيعية وبشرية ، هيأت لمنطقة غربى الدلتا بحكم موقعها على الحدود الفاصلة بين مصر وليبيا بأن تصبح مكاناً لاستقبال المؤثرات الحضارية القادمة من شمال غربى أفريقيا منذ العصر الحجري القديم ، وخاصة وأن انما ذلك العصر قد تمتع بحرية على التحرك نحو هذه عليها الآن . فقد كانت الصحراء خضراء غنية بالنبات وفيرة الماء ، غاصة بالحيوانات . وكانت فى الواقع بمثابة حلقة وصل ولم تكن منطقة فصل . وهكذا استقبلت هذه المنطقة حضارات من شمال أفريقيا وفى مقلتها الحضارة القفصية ثم العاطرية . ولكن الصحراء فقدت هذه الميزة بعد تقلص العصر المطير خلال أيام العصر الحجري الحديث وأصبحت منطقة صعبة وعزلة مما جعل سكانها يهجرونها إلى أطراف الدلتا الغربية فى حين حاول سكان الدلتا صد هجراتهم وهجرتهم طوال العصور التاريخية . بل ان هناك من الشواهد ما يدل على أن بوادر الاتصالات المصرية الليبية سواء فى مظهرها السياسى أو الحضارى إنما يعود فى الحقيقة إلى ما قبل بداية العصر التاريخى ، أى إلى مرحلة

العصرين الحجري القديم الأعلى والحجري الحديث، وما قبل الامرات (١) وذلك عندما اضطرت العناصر الليبية إلى التحرك في محاولة للاستقرار في وادي النيل الأدنى على حافة الصحراء في مجتمعات الفيوم أو مرمدة بنى سلامة مدفوعة باغراء تلك الأقاليم الغربية التي تتجمع فيها الحياة الزراعية المستقرة وهرباً من شظف العيش حيث كانوا يتعرضون للجوع بالنسبة لتفحل بلادهم. ولكن سرعان ما كان الفراغة منذ بداية العصر التاريخي يبدرون إلى احباط تلك المحاولات ، ومن أشهرها ما حدث في عهد أول ملوك الأسرة الأولى حيث يمكن ملاحظة ظهور اسم التحنو Tjehenu (٢) على لوحة تخص



الملك نعرمر (٣) Narm r . ويمكن ملاحظة تواجد سبعة مستطيلات على وجه هذه اللوحة تمثل المدن المتهورة ، وبداخل كل مستطيل اسم المدينة، وأعلاها صور لطيور وحيوانات لم يبق منها سوى أربعة أحياء «أسد ، صقر عقرب ، صقرين» . ويعتقد أن تلك المدن تقع في أرض التحنو ، وأن استسلامها ترتب عليه الحصول على الكثير من الغنائم والتي ورد ذكرها على الوجه الآخر للوحة ، حيث تباو صفوف من الماشية وبعض الأشجار «يفترض أنها أشجار زيتون» (٤) وإلى جانب الأشجار توجد علامة هروغليفية تعني أرض التحنو والتي يعتقد أنها كانت تقع بجوار الحدود الشمالية الغربية للدلتا . (٥) ويلفت النظر في هذه اللوحة بالاضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه ،

أنظر

- (1) Holscher, W., *Libyer Und Agypter*, Glückstadt — Hamburg — New York, 1955, PP. 12 — 16.
- (2) Gardiner, A., *Egyptian Grammar Being An Introduction to the study of Hieroglyphs*, Third Edition, London 1939, P. 601.
- (3) Newberry, P.E., "The Fetty Kingdom of the Harpoon and Egypt's Earliest Mediterranean Period," (in) *Annals of Archaeology and Anthropology* 1, Liverpool, 1908; PP. 17—22.
- (4) Newberry, P.E., "Ta Tehenu — Olive Land", (in) *Ancient Egypt and the East*, 1915, PP. 97 — 100.
- (5) Gardiner, A.H., *Ancient Egyptian Onomastica*, Vol. 1, Oxford University press, 1947, pp. 116 — 119.

أن الأعداء المهزمن تميزهم ذيول متصلة بتقبهم القصيرة ، وريش في شعورهم وخصلة شعر في مقدمة رؤوسهم (١) . ويستدل من دراسة هذه اللوحة على قيام الملك نعرمر بغزو تلك المنطقة. ويعزز هذا الدليل تلك الاسطوانة العاجية التي عثر عليها في هيراقونبوليس Hierakonpolis (نخن) والتي تحمل اسم نعرمر وبلاد التخنو ، كما يظهر فيها بعض أسرى المعركة (٢) ؛ كذلك يذكر برستد (٣) أن رأس دبوس الملك نعرمر يسجل مائة وعشرين ألف أسير بجانب مليون وأربعمائة وعشرين ألفاً من الأغنام وأربعمائة ألف من الماشية التي حصل عليها كغنيمة حرب في حملته على الأقواس التسعة ، والتي تعني الشعوب على الحدود المصرية .

ومن المحتمل كذلك أن يكون الملك جر Djoser هو الآخر قد قام بحمله ضد العناصر الليبية التي حاولت التحرك نحو الدلتا ، حيث يظهر الملك على وجه لوحة من المرمر عثر عليها في مقبرته بسقارة وهو يصرع أسيراً ليبياً (٤) ، وقد استمر ملوك عصر الأسرات المبكر في حملاتهم ضد القبائل الليبية .

وفي عهد خع منخم Khasekhem عثر على بعض الأواني في هيراقونبوليس تشير نقوشها إلى الآلهة نختب إله الكاب على شكل نسر تقبض على دائرة بداخلها علامتين هيروغليفيتين كلمة «بش» Besh بمعنى العصاة (٥)

(1) Gardiner, A.H., *Egypt of the Pharaohs*

ترجمه للعربية نجيب ميخائيل إبراهيم وراجعه عبد المنعم أبو بكر يمتران «مصر القراعنة» الاسكندرية ١٩٧٣ ، ص ٤٢٧ - ٤٢٨ .

(2) Quibell, J.E., *Hierakonpolis, Part I*, (E.R.A. 4th Memoir) London, 1900, Pl. XV, P.7. and Newberry, P.E., "Menes : The Founder of the Egyptian Monarchy", (in) Brunton, W., and Others, *Great Ones of Ancient Egypt*, London, 1929, PP. 49—50, Fig. 6.

(3) Breasted J.H., *A History of Egypt from the Earliest times to the persian Conquest*, (Book 1, Introduction), London, 1906, P. 47.

(4) Emery, W.B., *Archaic Egypt* (Penguin Books) Harmondsworth, Middlesex 1961, P. 60, Fig. 23.

(5) Emery, W.B., *Ibid.*, P. 99, Fig. 63. and Quibell, J.E., *Op. Cit.*, Pls. XXXVI-XXXVIII.

وهذه الكلمة قد تشير إلى أحد الشعوب الليبية القاطنة بجوار الكاب (١) El-Kab أو أنها تشير إلى قبيلة ليبية شمالية اتخذت مقرها بجوار الفيوم (٢) . ولما كان النقش يشير إلى «عام محاربة الشماليين» ، فإن التفسير الأخير يعتبر أقرب إلى الصحة ، ولو أنه لا توجد دليل قاطع على ذلك . ومهما كان الأمر فإن محاربة خمع بنعم لأعدائه الشماليين يؤكد نص منقوش على حجر بالرمو (٣) فقرة ٨١ «عام محاربة الأعداء الشماليين» . ولقد ازدادت الاشتباكات المصرية الليبية في عهد الدولة القديمة مما دعا ملوكها إلى الاهتمام بتدعيم حدود البلاد الغربية . وتظهر النقوش والمناظر الملونة على جدران معابد الدولة القديمة ، الليبيين ملائمتهم المصرية (٤) حيث البشرة السوداء المائلة للحمرة ، واللحية القصيرة التي تتدلى من ذقونهم ، والذبول المتصلة ببنقيهم القصيرة ، وخصلة من الشعر فوق مقدم رؤوسهم . وتشير حوليات سنفرو على حجر بالرمو ، وكذلك القطعة الموجودة بمتحف القاهرة (رقم ٤) إلى حملة سنفرو ضد الليبيين وعلى استيلائه على الكثير من الغنائم والأسرى (٥) ويشير نقش من المعبد الجزى للملك ساحورع Sabure من الأسرة الخامسة إلى الصفات الجسامية وأردية التحنو . وفي تسجيله بانتصاره على الليبيين ، تظهر الالهة سشات Seshat الالهة الكتابة وهي تحصى الغنائم من الماشية والخراف والماعز التي استولى عليها ساحورع ، في حملته ضد العناصر الليبية في الصحراء الغربية. كما يظهر في أعلى النقش اسم زوجة رئيس الأعداء

1) Edwards, I.E.S., "The Early Dynastic Period in Egypt", (in) C.A.H., Vol. 1, Part 2A, Cambridge, 1971, P. 24.

(2) Edwards, I.E.S., Ibid., P. 33.

(3) Breasted, J.H., A.R.E., 1, PP. 53-54.

(4) Edwards, I.E.S., Op. Cit., P. 47.

(5) Smith, W.S., "The Old Kingdom in Egypt and the Beginning of the First Intermediate Period", (in) C.A.H., Vol. 1, Part 2A, Cambridge 1971, P. 167.

وأولاده . ويبدو الملك ممسكاً بناصية أسير لبي راكم ، (١) وفراعه الأخرى ممسكة بمقمعه .

وقد أشارت بعض النصوص من أيام بيبي الأول Pepi I إلى شعب لبي جديد وهو التمحور Tjemehu (٢) وهو شعب محارب استخدمه بيبي



الأول ضمن جيوشه التي أرسلها في حملاته الآسيوية (٣) حيث كانت العادة قد جرت على تجنيد بعض فرق الجنود من الأراضي الواقعة إلى الجنوب وإلى الغرب من مصر (٤) على صد اغتداءاته . ففي عهد نب حبت رع ستوحوتب الثاني ، Nebhepetre Mentuhotpe II نراه يشن حملات تأديبية ضد القبائل الليبية في الصحراء الغربية ، بغرض تدعيم حدود البلاد وتأمين المحاجر والمناجم وطرق التجارة . وتشير نقوش دندرة Dendera إلى ضربة الليبيين (٥) ضمن أعداء بلاده التقليديين الذين كان يطلق عليهم شعوب القوس النعنة ، أو الأهواص النعنة . (٦) وتشير قصة (*) سنهوى إلى الحملة التأديبية التي قادها سنوسرت الأول ضد التمحور الليبيين

(1) Smith, W.S., Ibid., P. 182.

(2) Gardiner, A., Egyptian Grammar Being An Introduction to the study of Hieroglyphs, 3rd Edition, London, 1969, P. 601.

(3) Wilson, J.A., Egyptian Historical Texts, "Asiatic Campaigns Under Pepi I" (in) A.N.E.T., P. 228.

(4) Wilson, J.A., Ibid., P. 228.

(5) Winlock, H.E., The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes, New York, 1947, P. 28, n. 17.

(6) Hayes, W.C., "The Middle Kingdom in Egypt, Internal History From the Rise of the Heracleopolitans to the Death of Ammenemes III," (in) C.A.H., Vol. 1, Part 2A, Cambridge, 1971, P.480. and Winlock, H.E., Op. Cit., P. 24, n. 10.

* قصة سنهوى احتربها خمس برديات وملا يقل عن سبعة عشر ثلاث (أوستراكا) وأهم

تلك البرديات محفوظة بمتحف برلين تحت أرقام ٣٠٢٢ ، ١٠٤٩٩ .

بحوار وادى النطرون (١) Wadi - en - Natrun ، وقد ورد ذكرها في بردية سنوهى ، ... وكان جلالته قد أوفد جيشاً إلى أرض التحنو - الليبيين بقيادة أكبر ابنائه الإله الطيب سنوسرت Sen-Usert وكان في طريق عودته ومعه الأسرى من التحنو الليبيين وكل (أنواع) الماشية التي لا حصر لها (٢) . . .

وعلى الرغم من أن الواحات الواقعة في الصحراء الليبية كانت تعتبر تابعة إدارياً لمصر منذ عصر الدولة القديمة ، (٣) إلا أن أنصار الهكسوس ربما يكونوا قد قاموا باحتلالها أثناء عصر الانتقال الثاني . لذلك ارتأى كامس أن يقوم بإرسال حملة عسكرية إلى الواحة الشمالية أثناء حروبه مع ملك الهكسوس أبوفيس Apophis بغرض تأمين تلك الجبهة ضد العناصر الليبية أثناء انشغاله بحدوه الأصلي . حيث أن القبائل الليبية كانت قد انتهزت فرصة احتلال الهكسوس لمصر ، فقامت بتنظيم صفوفها ، وبدأت تتجه بأنظارها جنوب غربى الدلتا . ولكن أمنحوتب الأول استشعر هذا الخطر الليبى ، فلم يجد منافساً من غزو بلادهم حيث تشير نقوش أحس بن نخب Ahmose-Pen-Nekheh إلى حملة أمنحوتب الأول على الليبيين ، لرد اعتداءاتهم على الدلتا (٤) حيث يقول أحس ، أنه أسر ثلاثة أعداء وقطع أيديهم في شمال أيامو Iamu في أرض كحك Kekhek . وكحك هذه تختلف عن اسم قبيلة ليبية

-
- (1) Hayes, W.C., Op. Cit., PP. 498 — 499.
 - (2) Wilson, J.A., Egyptian Myths and Tales, "The Story of Sinuhe", (in) Pritchard, J.B., The Ancient Near East, An Anthology of Texts and Pictures, Volume 1, Princeton, New Jersey, 1973, P. 6.
 - (3) Fischer, H.G., "A God and a General of the Oasis on a Stela of the late Middle Kingdom", (in) J.N.E.S., 16, Chicago, 1957, PP. 226 — 227.
 - (4) Breasted, J.H., A History of Egypt, (Book V, The Empire : First Period), London, 1906, P. 254.

تسمى قحتى (١) Qeheq ، سوف نتعرض لها فى عصور لاحقة . ومنذ عصر أمنحوتب الأول ، تم تعيين مسئول يتولى الاشراف على شئون الواحات وكان يطلق عليه عمدة الواحات . (٢)

ثم بدأت العلاقات المصرية الليبية فى التطور من الاطار الحربى الذى صبت الاشارة اليه ، إلى الاطار السلمى فى معظم فترات الاسرة الثامنة عشرة . وقد يعود ذلك إلى انكماش الليبيين داخل حدودهم ، وتوقف محاولاتهم لغزو الدلتا بسبب تخوفهم من التوسع المصرى فى عهد الملوك الأوائل للأسرة الثامنة عشرة . وعلى الرغم من تلك العلاقات السلمية فى تلك الآونة ، إلا أن ذلك لم يمنع بعض الملوك من أمثال أمنحوتب الثالث (٣) من اظهار شدة بأس المصريين لتلك القبائل الليبية بين الحين والآخر . وعلى الرغم من ذلك فقد تجددت أطماع القبائل الليبية مرة أخرى فى غربى الدلتا ، وأصبحت تهدد الحدود الغربية فى عصر الأسرة التاسعة عشرة حيث تشير مناظر الكرنك من عهد سبتى الأول (٤) Seti I إلى خلة الثالثة والتى كانت موجهة ضد الليبيين . (٥) وعلى الرغم من أن النقوش لا تشير إلى تحديد مكان تلك الحملة ، إلا أن مناظر المعركة تؤكد انتصار المصريين .

ومع ازدياد خطر التمحور ، اضطر رمسيس الثانى Ramesses II إلى

-
- (1) James, T. G.H., "Egypt :From the Expulsion of the Hyksos to Amenophis I"(in) C.A.H., Vol. 11, Part 1, Cambridge, 1973, P. 310.
 - (2) James, T. G.H., Ibid., P. 310.
 - (3) Wilson, J.A., Egyptian Hymns and Prayers, "From Amen-hotep III's Building Inscription", (in) A.N.E.T., P. 376.
 - (4) Faulkner, R.O., "Egypt : From the Inception of the Nineteenth Dynasty to the Death of Ramesses III", (in) C.A.H., Vol. 11, Part 2A, Cambridge, 1975, p. 220.
 - (5) Faulkner, R.O., Ibid., P. 221.

مواجهة هذا الخطر الذي تمثل في تحالف قبائل التمشو (١) والتشو (٢) مع جيرانهم من المشوش (٣) Meshwesh واليبو Libu : فقد تحركت تلك القبائل في محاولة للغزو والاستقرار في غربي الدلتا مما اضطر رمسيس الثاني إلى بناء سلسلة من التحصينات على طول الساحل الشمالي من راكوتيس Rhacotis وحتى العلمين (٤) El-Alamein . ولقد خلف رمسيس الثاني ما يشير إلى انتصاراته ضد هؤلاء الغزاه حيث يمثل منظر في معبد أبي سنبل وهو يضرب ليبيا (٥) .

وفي السنة الرابعة والأربعين من حكمه ، تشير النصوص إلى استخدامه الأسرى الليبيين من التشو في بناء معبد السبع Es-Sebue في النوبة السفلى (٦) .

ولقد اتخذت الهجمات الليبية شكلا خطيراً في عهد مرنبتاح Merneptah حيث تجسم الخطر الليبي على مصر في السنة الخامسة من حكم مرنبتاح (٧) حين تحالفت قبائل الليبر والمشوش وقحت (٨) مع بعض شعوب البحر (٩)

- (1) Gardiner, A. H., *Ancient Egyptian Onomastica*, Vol. 1, Oxford University press, 1947, PP. 114 FF.
- (2) Gardiner, A.H., *Ibid.*, PP. 116 FF.
- (3) Wainwright, G.A., "The Meshwesh", (in) J.E.A., 48, London, 1962, PP. 89 FF.
- (4) Rowe. A., "A History of Ancient Cyrenaica", (in) (Ann. Serv. Suppl. Cahier 12) Cairo, 1958, P. 4.

(٥) أن جاردنر ، المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

- (6) Faulkner, R.O., *Op. Cit.*, P. 230.
- (7) Breasted, J.H., *A.R.E.* III, 595-598.
- (8) Gardiner, A.H., *Op. Cit.*, P. 123.
- (9) Gardiner, A.H., *Ibid.*, P. 196, and wainwright, G.A., "Some Sea-Peoples and others in the Hittite Archives", (in) J.E.A., 25 London, 1939, pp. 148 FF.

من الشردين Sherden والشكلش (١) Sheklesh ولوكا (٢) Lukka والتورشاشا (٣) Tursha والاكواشا Akawasha تحت زعامة رئيس قبيلة التحنو المسمى ماراي Mauroy ، وتقدمت تلك الشعوب نحو الدلتا (٤) ، حيث جرت المعركة الحاسمة بينهما وبين جيش مرنبتاح في مكان غير محدد يدعى بي ير Pi-Yer . وقد خلد مرنبتاح انتصاره على تلك الشعوب في نقش طويل بالكرنك ، (٥) ولوحه اتريب (٦) Athribis ولوحة اسرائيل (*) . وبصف نص الكرنك هذه الهجمة الليلية ... أنهم قضوا اليوم ينجويون في الأرض ويحاربون ليملاؤا بطونهم كل يوم ، أنهم جاءوا إلى أرض مصر سعياً وراء الطعام الذي يلدون به أفواههم (٧) وقد استغرقت المعركة ست ساعات من القتال ، هزم العدو الليبي على أثرها . وبلغ عدد القتلى من الليبيين أكثر من مئة آلاف ، (٨) والأسرى أكثر من تسعة آلاف (٩) :

وتشير لوحة اسرائيل إلى ارتياح المصريين لمزيمة هؤلاء الغزاة
 ... حل فرخ عظيم بمصر

- (1) Cardiner, A.H., Op. Cit., PP. 196 FF.
- (2) Gardiner, A.H. I bid., PP. 127 F.
- (3) Gardiner, A.H., I bid., PP. 196 FF.
- (4) Breasted, J.H., A.R.E., 111, 569 FF.

أنظر

- (5) Muller, W.M., Egyptological Researches, Vol. 1, Washington, 1906.
- (6) Faulkner, R.O., Op. Cit., P. 233.

* اللوحة موجودة حالياً بالمتحف المصري تحت رقم ٣٤٠٢٥ واكتشفها بترى Petrie في حطام معبد مرنبتاح الجنزى في طيبة ونشرها بترى .

Petrie, W.M.F., Six Temples at Thebes, London, 1897, Pls. x111 - - - xiV.

- (7) Breasted, J.H., A.R.E., III, 569 FF.

(٨) ألن جاردنر ، المرجع السابق ، ص ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

- (9) Wilson, J.A., The Culture of Ancient Egypt , U.S.A., 1975, P. 257.

وشاع التهزل في قرى مصر ...
 أنهم يتحدثون عن الانتصارات
 التي تمت لمربتاح حوتب حرما عت Hotep-hir Maat في أرض تحنو
 ما أحب ذلك الحاكم المنتصر ! (١) ...
 كما أشارت اللوحة إلى هروب ما رأى « ... في جنح الليل وحيداً ،
 ولم تكن في رأسه ريشة ، حافى القدمين ... ولم يكن معه ماء
 من مياه القرب ليحفظ عليه حياته (٢) ...
 وكان مصير ما رأى أن أسقطته قبيلته وعذبت أخيه بدلاً منه (٣) .
 ويؤكد انتصار المصريين فقرة في نهاية نص لوحة اسرائيل (٥) ... الأمراء
 منبطحون بصرخون طالبين الرحمة !
 ولا يرفع واحد رأسه من أهالي الأقوام السبعة .
 لقد أثقلت أرض تحنو (٤) ...
 ثم عاود الليبيون عبثاً كسر المقاومة المصرية في عهد رمسيس الثالث
 ولكنهم فشلوا تماماً من الناحية الحربية . ففي العام الخامس من حكمه ، هاجم
 مصر جيشاً كبيراً من تحالف الليبو مع المشوش ، ومع قبيلة سبد (٥) Seped
 ومن المحتمل أن تكون تلك القبائل قد استقرت بسبب تدخل رمسيس
 الثالث في أمر تعيين رئيس لقبيلة السمحو ، حيث فرض عليهم حاكماً جديداً
 صغير السن . (٦)

- (1) Wilson, J. A., Egyptian Hymns and Prayers, "Hymn of victory of Mer-ne-Ptah, "(The Israel Stela) (in) A.N.E.T., PP. 377—378.
- (2) Wilson, J.A., Ibid., P. 377.
- (3) Faulkner, R.O., Op. Cit., P. 233.
- (4) Wilson, J.A., Op. Cit., P. 378.
- (5) Faulkner, R.O., Op. Cit., P. 242.
- (6) Faulkner, R.O., Ibid., P. 242.

ولكن يبدو أن هدف تلك الغزوة كان بدافع الرغبة في الاستقرار في أراضي الدلتا الغنية . ومهما كان الأمر ، فإن هزيمة الليبيين في تلك المعركة كانت مؤكدة . (١) وفي العام الحادى عشر من حكم الملك رمسيس الثالث ، تجدد الخطر الليبي مرة أخرى تحت قيادة الليو والمشوش بعد تحالفهم مع خمسة شعوب أخرى . ونشير بردية هاريس (٢) Hattis Papyrus إلى أن هذا الحلف قد صادف بعض النجاح في بداية الأمر ، مما ترتب عليه تسرب بعض العناصر الليبية إلى المنطقة الواقعة غرب الفرع الكانوبى ، وانتشارهم في المنطقة من منف وحتى البحر الأبيض ... كان الليو والمشوش مستقرين في مصر وكانوا قد استولوا على كل الرقعة غرب حيكويتاح (منف) حتى قىروبن (يظن أنها قرب أبى قير) ووصلوا إلى النهر الكبير (الفرع الكانوبى للنيل) من كل جوانبه ... (٣) .

ونشير نقوش معبد رمسيس الثالث الجزئى في مدينة هابو (٤) Medinet Habu إلى انتصاره على الليبيين ، وأن عدد القتلى كان يزيد عن ألفين غير الأسرى والغنائم (٥) . أما بالنسبة للأسرى ، فقد كان مشر Mesher زعيم المشوش من بينهم . وعندما التمس والده كبير Keper إطلاق سراحه ، ذبح هو وحرسه (٦) . وأما الغنائم فتنبهى الإشارة إلى الهبات التى حصل

(1) Faulkner, R.O., Ibid., P. 242.

أنظر

Chicago University, Oriental Institute Medinet Habu, Vol. 1, Chicago, 1932, Pls. 18 — 20.

(2) Breasted, J.H., A.R.E., IV, 405.

(٣) ألن جاردنر ، المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(4) Faulkner, R.O., Op. Cit., P. 241.

انظر

(5) Edgerton, W.F., and Wilson, J.A. "Historical Records of Ramses III", (in) S.A.O.C., 12, Chicago, 1936, P. 67

(6) Faulkner R.O., Op. Cit., P. 243.

عليها الكهنة من تلك الغنائم . فبعد أن هزم رمسيس الثالث قبائل المشوش
استولى على أكثر من أربعين ألفاً من رؤوس الماشية ، ومنح أمون ٢٨٣٣٧
حيواناً من بين التي استولى عليهم سيف جلالته القوى (من) المشوش
المهزومين ، وجعل منها قطعاً قدمها مرة أخرى (إلى) أبيه أمون رع ملك
الآلهة ... (١) .

وتشير بردية هاريس الكبرى إلى أن الإله أمون كان يملك أكثر من
٤٠٠,٠٠٠ من الماشية ، وأن ٩٧١ من المشوش كانوا يسهرون على العناية
بقطيع واحد من شرق الدلتا (٢) . وأن أكثر الآلهة الذين اقتصوا بتلك
المنح هم أمون Amon اله طيبة ، ورع Re اله هليوبوليس ، ويتاح Ptal
اله منف . أما باقي الآلهة فكانوا أقل نصيباً (٣) .

وكما حققت انتصارات مرتبحة انقاذ مصر من الخطر الليبي ، فقد
نجحت جهود رمسيس الثالث في إيقاف هذه التسللات الليبية في ذلك الوقت .
وتنبئ الإشارة في هذا الصدد إلى أن حروب رمسيس الثالث مع الليبيين
كانت حاسمة في إيقاف عمليات التمدد المسلح ، مما دفعهم إلى التسرب السلمى
في مناطق الفيوم والدلتا ، والعمل كجنود مرتزقة في الجيش المصرى . ومما
تجدر الإشارة إليه ، أن أحد المتهمين في مؤامرة (الحريم) في أواخر عصر
الملك رمسيس الثالث يدعى «أينى» Yenini وصف بأنه كان ليبياً (٤) .

وتشير النصوص المصرية منذ أواسط الأسرة العشرين إلى نشاط قبائل

(1) Edgerton, W.F., and Wilson, J.A., Op. Cit., P. 67.

(2) Wilson, J.A., The Culture of Ancient Egypt, U.S.A., 1975, P. 270.

(3) Wilson, J.A., Ibid., P. 270.

(4) Wilson, J.A., Ibid., P. 258.

الليبو والمشوش . (١) حيث تشير تلك النصوص إلى ظهور تلك العناصر الليبية في منطقة طيبة . ويرجع أقدم ذكر لهم في يومية مهشة لعمال الجبانة مؤرخة بالعام العاشر لأحد الملوك «فقد اسمه» (٢) . ففي تاريخ معين يذكر هذا التقرير «نزل سكان الصحراء في مدينة سمن * Smen . وفي تواريخ أربعة «تتالية» ، توجد إشارة إلى امتناع فريق العمال عن العمل في الجبانة بسبب الخوف من سكان الصحراء وأن خوفهم تزايد عندما نزل سكان الصحراء غربي طيبة بعد يومين . ثم نجد إشارة إلى أن سكان الصحراء هم من المشوش وفي جزء آخر من نفس البردية ، (٣) نجد إشارة إلى الليبيين مؤرخة بالعام الحادى عشر . وفي يومية أخرى (٤) مؤرخة بالعام الخامس عشر « ورد ذكر الليبو والمشوش . ويبدو أنهم عبروا النهر عند Ne في طيبة .

كما أن تلك الأحداث قد جرت في عهد رمسيس التاسع . (٥) أما في عهد رمسيس العاشر ، فتشير يومية مؤرخة بالعام الثالث من حكمه إلى امتناع عمال الجبانة عن العمل طوال الشهر الثالث لفصل الشتاء بسبب خوفهم من سكان الصحراء وأن ذلك قد حدث في الأيام ٦ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٤ من هذا الشهر . (٦)

(1) Peet, T.E., "The Supposed Revolution of the High-Priest Amen-hotpe" (in) J.E.A., 12, London, 1926, P. 258.

(٢) بردية تورين ، كاتالوج ٢٢٤ - ٢٠٧١ (١٤٠) لم تنشر بعد

* تقع على بعد حوالي ٢٥ كيلو متر إلى الجنوب من طيبة .

(٣) بردية تورين ، جزء غير مرقم لم ينشر بعد .

(٤) بردية تورين ، كاتالوج ٢٢٤ - ٢٠٧١ + ١٩٦٠ لم تنشر بعد .

(5) Cerny, J., Egypt : From the Death of Ramesses III To The End of The Twenty-First Dynasty", (in) C.A.H., Vol. 11, Part 2B, Cambridge 1975, P. 618.

(6) Cerny, J., Ibid., P. 618.

وعلى ذلك يمكن القول بأن خطر تلك العناصر الليبية سواء من المشوش أو الليبي ، بدأ يتكرر خلال عهدي رمسيس التاسع ورمسيس العاشر . وكانت تلك العناصر الليبية قد مهدت لنفسها الطريق للاستقرار والامتيطان في مصر العليا وشمال مصر ، وغربي الدلتا ، وفي هرقليوبوليس Heracleopolis (اهناسية) .

وهكذا حصلت تلك العناصر بطريق السلم على ما لم تله بطريق الحرب . ولما لم يستطع المصريون مجابهة هذا الغزو السلمى ، اضطروا إلى استخدام هؤلاء الغزاة كجنود مرتزقة في الجيش المصرى . وبسبب قدراتهم الحربية انتهز بعض الليبيين الفرصة وتمكنوا من التسلل إلى المراكز القيادية في الجيش المصرى في الأيام الأخيرة للدولة الحديثة . وتوجد اشارات إلى أن علاقة المصريين بتلك العناصر الليبية منذ نهاية الأسرة العشرين قد أصبحت سلمية . ففي محاكمة من عهد رمسيس الحادى عشر ، يشهد أحد صناع الجعة من غربي طيبة بتسلمه لبعض الفضة من المشوش بطريق التجارة (١) . وفي أمر من قائد الجيش إلى متعهدي الحيز ، يطالبهم باعادة تزويد المشوش بالحيز (٢) . وفي بداية العصر المتأخر ، كانت الحالة في مصر الفرعونية قد وصلت إلى درجة من الفوضى السياسية التي سمحت لكثير من العناصر الأجنبية من الامتيطان في البلاد ، والتطلع إلى الاستحواذ على السيادة السياسية . وكانت العناصر الليبية قد استفادت من العملية التاريخية التي مرت بها محاولاتهم المتكررة للتسلل في مجتمعات الدلتا والفيوم ، سواءاً اتخذت تلك المحاولات صفة التسلل المسلح كما حدث في معظم عهود الدولة القديمة ، والوسطى ، والحديثة ، أو صفة التسرب السلمى عندما فشلت محاولاتهم الحربية . ثم أخذت تلك العناصر الليبية تنخرط في سلك الجندية بأعداد كافية

(1) Cerny', J., Ibid., P 619.

أنظر :

(2) Cerny', J., Late Ramesside Letters (Bibliotheca Aegyptiaca, 1a). Brussels, 1939, P. 35.

نظراً لضآلة مرتباتهم وكثافتهم الحربية ، حتى أصبحت غالبية الجيش تتكون من الليبيين منذ أواخر عصر الأسرة العشرين .

وفي حالة تصريحهم من الخدمة العسكرية ، كانوا يملون إلى الاستيطان وقد ساعدهم على ذلك أن ملوك تلك المرحلة أقطعوا الكثير من الأراضي عليهم . وقيل انتهاء الأسرة الحادية والعشرين ، بدأوا يتجمعون في غربي الدلتا وفي هرقليوبوليس على شكل جاليات تنتظم كل مجموعة منها في عدد من الحاميات ، وكان يرأس كل حامية رئيس لبي . كما كان يتوسط كل حامية مدينة هامة (١) .

ومع ازدياد نفوذ هؤلاء الليبيين ، أصبحوا يشكلون الخطر الحقيقي الذي كان يهدد سلامة البلاد في تلك المرحلة . وقد استشعر كبار الكهنة آنذاك هذا الخطر ، فأطلقوا على أنفسهم الصفات الحربية بجانب ألقابهم الكهنوتية مثل لقب القائد الأعلى لمصر العليا والسفلى أو لكل البلاد (٢) .

ومن بين القبائل الليبية التي استقرت في هرقليوبوليس فنيخى الإشارة إلى إحدى الأسر التي استقرت منذ ستة أجيال والتي تزعمها رئيس من رؤساء المشوش يسمى بويوواوا Buyuwawa وقد خلع الكثير من أبناء تلك الأسرة في معبد الاله حرشيف Harsaphes اله مدينة هرقليوبوليس . كما

(1) Cerny, J., "Egypt : From the Death of Ramesses III To the End of the twenty-First Dynasty", (in) C.A.H., Vol. II, Part 2B, Cambridge, 1975, P. 618.

Nesbentched

(٢) شل نى بانج دد

Hayes, W.C., "Writing Palette of the High priest of Amun Smendes"
(in) J.E.A., 34, London, 1948, Pl. X111.

وكذلك بوسنس الثانى Psusennes II ولقبه ، «القائد الأول الذى يرأس الجيوش» .

Murray, M.A., The Osireion at Abydos, London, 1904.

أصبح لكثير من زعمائها مركز مرموق. وكانوا يحملون لقب رؤساء المشوش العظام ، أو رؤساء الـ «ما» وهي تسمية تعود في أصلها إلى منطقة شط الجريد جنوب قرطاج (١) . وربما كان هؤلاء الرؤساء أصلاً من بين زعماء الحنناليين المرتزقة في الجيش القرعوني (٢) .

وفي حوالى ٩٥٠ ق. م . ظهرت من بين تلك الشخصيات الليبية شخصية قوية ، استطاعت أن تمتد نفوذها حتى أيلوس جنوباً (٣) وهي شخصية شوشنك الأول Shoshenk I وقد بلغ من ازدياد نفوذه أن دعاه آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين بسوسنس الثانى Psusennes II للمشاركة في أعياد جلالاته وتلقى الحمد معه (٤) . ثم استطاع أن يمد نفوذه بعد ذلك حتى الدلتا ، واتخذ من تل بسطة مركزاً له . ثم تمكن في النهاية من الوصول إلى عرش مصر بعد موت بسوسنس الثانى ، وأسس بذلك الأسرة الثانية والعشرين (٥) . وقد ورد ذكر شوشنك الأول في نص منقوش على لوح من الجرانيت الأحمر عثر عليه مارييت Mariette في أيلوس (٦) بأنه «الرئيس العظيم للمشوش ، أمير الأمراء» . وعندما مات أبوه «نمرات»

• تقلد مراسلات ابن بربرواوا مهمة الاشراف على معبد الاله حرشيف ، وورث عنه ابناؤه لقب الكهنوت وأمتد نفوذهم الدينى ليشمل مصر الوسطى بأكملها .
نجيب ميخائيل ابراهيم ، مصر والشرق الألف القديم ، مصر من تيام الدولة الحديثة إلى دخول الاسكندر ، الجزء الثانى ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٣١٣ .
(١) رشيد الناصورى ، المغرب الكبير ، العصور القديمة ، أسسها التاريخية الحضارية والسياسية ، الجزء الأول ، الاسكندرية ١٩٦٦ ، ص ٢٢٤ .

(2) Wilson, J.A., OP. Cit., P. 292.

(3) Wilson J. A., Ibid., P. 292.

(4) Blackman, A.M., "The Stela of Shoshenk, Great Chief of the Meshwesh", (in) J.E.A., Vol. 27, London, 1941, P. 84.

(5) Breasted, J.H., A.R.E., 1V, 792.

(6) Blackman, A.M., OP. Cit., PP. 83 — 95.

Namrat ، طلب شوشنق من آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين أن يأذن له بوضع تمثال لأبيه نمرات في معبد أوزيريس Osiris بأيدوس ، حتى يتسنى إقامة عبادة جزئية لتمجيده ، كما طلب منه أن يخلف أباه في مركزه فوافق الملك والاله العظيم (أمون) (١) .

ولكى يجعل مركز العائلة شرعياً في حكم البلاد ، زوج شوشنق الأول ولى عهد أوسركون الأول Uaserkon 1 من «ماع كارع» (٢) ابنة بوسنس الثاني (٣) ، حتى يعطى لابنه حقاً شرعياً لتولى عرش مصر بعد وفاته .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أنه على الرغم من اعتبار الاسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين أمرتين لبيتين ، إلا أننا لا نستطيع الجزم بكونهما من الأمر الأجنبية بمعنى الكلمة حيث أن تلك العناصر الليبية كانت قد تأثرت بالحضارة المصرية المتفوقة في ذلك الوقت بالنسبة لم إلى الدرجة التي نستطيع معها القول بأنها قد تمصرت إلى حد بعيد . أضف إلى ذلك حقيقة أخرى وهي أن هؤلاء الليبيين لم يكن لهم وطن آخر يدينون له بالولاء . وعلى ذلك لا يجوز القول بأن مصر قد فقدت استقلالها في ذلك الوقت على يد الليبيين المتحصرين . ومهما كان الأمر ، فإن تلك المرحلة الليبية في التاريخ المصرى القديم لم يكتب لها الدوام إذ تمكنت العناصر النوبية الحامية الأصل من الاستيلاء على السلطة من المصريين والليبيين وتأسيس الأسرة الخامسة والعشرين .

(1) Blackman, A.M., Ibid., P. 92.

(2) Breasted, J.H., A.R.E., 1V, 738 FF.

(3) Breasted, J.H., A History of Egypt, (Book VII, The Decadence), London, 1906, P. 528.

المراجع

List of Abbreviations

(١) مدلولات الاختصارات

- A.N.E.T.** = Pritchard, J.B., Ancient Near Eastern Texts, Relating to the Old Testament, Third Edition with supplement, Princeton, 1969.
- Ann. Serv.** = Annales du Service des Antiquités de l'Égypte
- A.R.E.** = Breasted, J.H., Ancient Records of Egypt, 4 Vols. Chicago, 1906.
- C.A.H.,** = The Cambridge Ancient History, Third Edition, Volume 1 Part 2 A. Early History of the Middle East, Cambridge, 1971.
- The Cambridge Ancient History, Third Edition, Volume 11 Part 1, History of the Middle East and the Aegean Region C. 1800 — 1380 B.C. Cambridge, 1973.
- The Cambridge Ancient History, Third Edition, Volume 11 Parts 2 A. and 2 B. History of the Middle East and the Aegean Region C. 1380 — 1000 B.C. Cambridge, 1975.
- J.E.A** = Journal of Egyptian Archaeology, London,
- J.N.E.S.** = Journal of Near Eastern Studies, Chicago,
- S.A.O.C.** = The Oriental Institute. Studies in Ancient Oriental Civilization, Oriental Institute of the University of Chicago, Chicago, 1936.

(ب) مراجع عربية :

رشيد الناصوري : المغرب الكبير ، العصور القديمة ، أسسها التاريخية
الحضارية والسياسية ، الجزء الأول ، الاسكندرية ١٩٦٦ ،

نجيب ميخائيل ابراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم ، مصر من قيام الدولة
الحديثة إلى دخول الاسكندر ، الجزء الثاني ، الطبعة
الثالثة ، القاهرة ١٩٦٢ .

(ج) مراجع مترجمة إلى اللغة العربية :

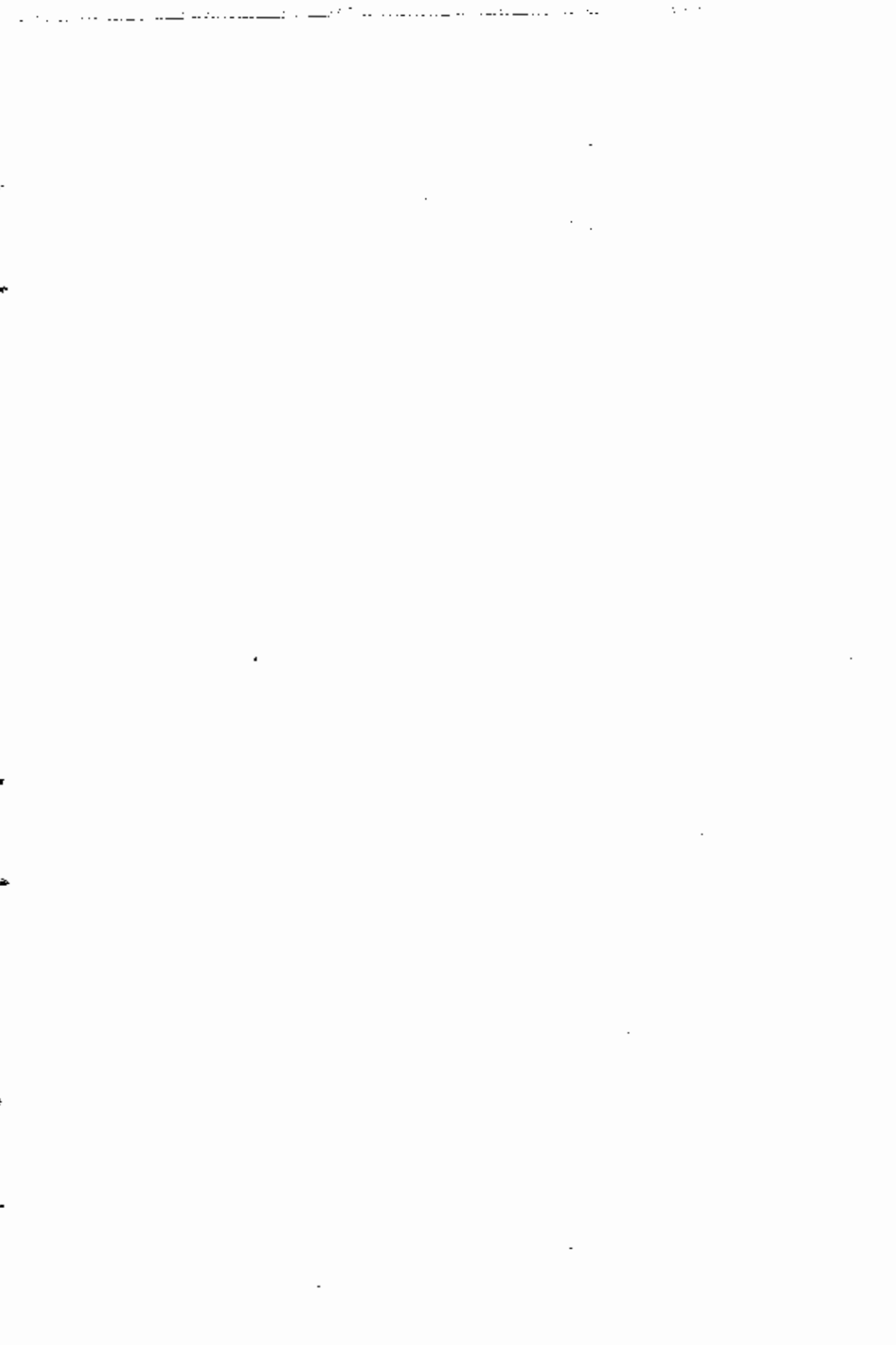
ألن جاردنر : مصر الفراعنة ، ترجمة نجيب ميخائيل ابراهيم ، ومراجعة
عبد المنعم أبو بكر ، الاسكندرية ١٩٧٣ .

(د) مراجع أجنبية :

- 4) Blackman, A.M., "The Stela of Shoshenk, Great Chief of the Meshwesh", (in) J.E.A., Vol.27, London, 1941.
- 5) Breasted, J.H., A History of Egypt From the Earliest times to the Persian Conquest, London, 1906.
- 6) Cerny, J., "Egypt : From the Death of Ramesses 111 to the End of the Twenty-First Dynasty", (in) C.A.H., Volume 11, Part 2 B, Cambridge, 1975.
- 7) ———, Late Ramesside Letters (=Bibliotheca Aegyptiaca, 1 X) Brussels, 1939.
- 8) Chicago University, Oriental Institute, Medinet Habu, Vol. 1, Chicago, 1932.
- 9) Edgerton, W.F., and Wilson, J.A., "Historical Records of Ramses 111", (in) S.A.O.C., 12, Chicago, 1936.
- 10) Edwards, I.E.S., "The Early Dynastic Period in Egypt", (in) C.A.H., Vol. 1, Part 2 A, Cambridge, 1971.

- 11) Emery, W.B., *Archaic Egypt* (Penguin Books) Harmondsworth, Middlesex, 1961.
- 12) Faulkner, R.O., "Egypt : From the Inception of the Nineteenth Dynasty to the Death of Ramesses III," (in) C.A.H., Vol. 11, Part 2 A, Cambridge, 1975.
- 13) Fischer, H.G., "A God and a General of the Oasis on a Stela of the Late Middle Kingdom", (in) J.N.E.S., 16, Chicago, 1957.
- 14) Cardiner, A.H., *Ancient Egyptian Onomastica*, Vol. 1, Oxford University Press, 1947.
- 15) ————, *Egyptian Grammar Being An Introduction to the Study of Hieroglyphs*, Third Edition, Revised, London, 1969.
- 16) Hayes, W.C., "The Middle Kingdom in Egypt, Internal History From the Rise of the Heracleopolitans to the Death of Ammenemes III", (in) C.A.H., Vol. 1, Part 2 A, Cambridge, 1971.
- 17) ————, "Writing Palette of the High Priest of Amun Smendes", (in) J.E.A., 34, London, 1948.
- 18) Holscher, W., *Libyer und Agypter* Gluckstadt-Hamburg-New York. 1955.
- 19) James, T.G.H., "Egypt : From the Expulsion of the Hyksos to Amenophis I", (in) C.A.H., Vol. 11, Part 1, Cambridge, 1973.
- 20) Muller, W.M., *Egyptological Researches*, Vol. 1, Washington, 1906.
- 21) Murray, M.A., *The Osireion at Abydos*, London, 1904.
- 22) Newberry, P.E., "Menes : The Founder of the Egyptian Monarchy", (in) Brunton, W., and Others, *Great Ones of Ancient Egypt*, London, 1929.
- 23) ————, "Ta Tehenu-Olive Land", (in) *Ancient Egypt and the East*, 1915.
- 24) ————, "The Petty-Kingdom of the Harpoon and Egypt's Earliest Mediterranean Period", (in) *Annals of Archaeology and Anthropology*, 1, Liverpool, 1908.

- 25) Petrie, W.M.F., *Six Temples at Thebes*, London, 1897.
- 26) Peet, T.E., "The supposed Revolution of the High-Priest Amen-hotpe", (in) *J.E.A.*, 12, London, 1926.
- 27) Quibell, J.E., *Hierakonpolis, Part 1*, (E.R.A. 4th Memoir) London, 1900.
- 28) Rowe, A., "A History of Ancient Cyrenaica", (in) (*Ann. Serv. Suppl. Cahier 12*) Cairo, 1958.
- 29) Smith, W.S., "The Old Kingdom in Egypt and the Beginning of the First Intermediate Period", (in) *C.A.H.*, Vol. 1, Part 2 A, Cambridge, 1971.
- 30) Wainwright, G.A., "Some Sea-Peoples and Others in the Hittite Archives", (in) *J.E.A.*, 25, London, 1939.
- 31) ————, "The Meshwesh", (in) *J.E.A.*, 48, London, 1962.
- 32) Wilson, J.A., "Asiatic Campaigns Under Pepi I", (in) *A.N.E.T.*
- 33) ————, "From Amen-hotep III's Building Inscription", (in) *A.N.E.T.*
- 34) ————, "The Israel Stela", (in) *A.N.E.T.*
- 35) ————, *The culture of Ancient Egypt*, U.S.A., 1975.
- 36) ————, "The Story of Sinuhe", (in) Pritchard, J.B., *The Ancient Near East, An Anthology of Texts and Pictures*, Volume 1, Princeton, New Jersey, 1973.
- 37) Winlock, H.E., *The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes*, New York, 1947.



نشأة وتطور العلاقات السياسية المصرية النوبية خلال العصر التاريخي

دكتورة نبيلة محمد عبد الحليم

كلية التربية - جامعة الاسكندرية

يعتمد الباحث في التاريخ القديم على المصادر النصية والأثرية ، فيحاول البحث عن النصوص والآثار المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بموضوع بحثه . ومن الموضوعات التي تستوجب الدراسة التاريخية ، موضوع العلاقات السياسية بين مصر الفرعونية من ناحية ، والنوبة من ناحية أخرى . فقد احتلت النوبة مكاناً بارزاً في السياسة الخارجية لمصر الفرعونية في معظم عهودها . وتعود أهمية النوبة إلى نظرة المصريين القدماء إلى بلاد النوبة السفلى باعتبارها بمثابة منطقة بعد استراتيجي لهم على أساس أن الجندل الثاني كان في نظرهم يمثل الحدود الجنوبية الطبيعية لمصر الفرعونية . ومن ناحية أخرى ، فقد جمعت بين المصريين والنوبيين مظاهر حضارية مشتركة ، فكلاماً ينتمي إلى نفس السلالة الخامية (١) كما أنهما اتبعا نفس الأسلوب الحضارى منذ عصر فجر التاريخ ، ولو أن النوبيين لم يستطيعوا مجازاة المصريين في مضمار الحضارة . أضف إلى ذلك أن اقتصاد مصر الوطني ومركزها التجاري في ذلك الوقت كان يعتمد اعتماداً متزايداً على الحصول على المواد الخام من النوبة وما جاورها من أراضى في الجنوب . لذلك حرص المصريون كل الحرص على إبقاء تلك الأقاليم تحت سيطرتهم . (انظر خريطة النوبة)

(1) Smith, G.E. and Jones, F.W., The Archaeological Survey of Nubia (Report for 1907—1908) Vol. II, Report on the Human Remains. Cairo, 1910, pp, 15—36.

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن المصريين القدماء أطلقوا كلمة تاسى (١)

 Tz-Stt

على بلاد النوبة ومعناها أرض النوبيين : وكانت تطلق أيضاً على الأقليم الأول من أقاليم الوجه القبلى . وربما تكون كلمة نوبة قد اشتقت من الكلمة المصرية «نوب» بمعنى الذهب . ولقد فرق المصريون القدماء بين النوبة السفلى (الجزء الذى يقع بين الجندل الأول والثانى) واوات (٢) Wawat

 Wzwt

وبين النوبة العليا (الجزء الذى يقع جنوب الجندل الثانى) أرض كاس المعروفة فيما بعد باسم كاش (٣) وهى كوش :

 Kz

أما بالنسبة للنوبيين ، فقد أطلق المصريون القدماء عليهم لفظة مدجاي (٤) Medjay

 Mdjw

، وأيضاً نحسيو Nchsyu (٥) والى كانوا يطلقونها على القبائل الحامية والزنجية :

(1) Gardiner, A., Egyptian Grammar, Being An Introduction to the study of Hieroglyphs, London, 1969, p. 593.

(2) Gardiner, A., Ibid., p. 559.

(3) Gardiner, A., Ibid., p. 597.

(4) Gardiner, A., Ibid., p. 571.

(5) Gardiner, A., Ibid., p. 575.



ولعل أول وثيقة ذكرت كلمة النوبة (١) هي كتاب Geographica لمؤلفه سترابو Strabo في الكتاب السابع عشر . وينطبق هذا التعبير الجغرافي على المنطقة الممتدة بين أبو حمد ومروي .

وعلى الرغم من أن العلاقات المصرية النوبية قد استمرت في معظم العصور الفرعونية إلا أنه يمكن القول بأن نظرة المصريين القدماء إلى تلك البلاد قد تباينت في طبيعتها من عصر إلى آخر . وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال هل عاشت مصر في سلام دائم مع جيرانها في الجنوب ؟ وهل كان المصريون ينظرون إلى النوبة كامتداد طبيعي مكمل لمصر ؟ أم أنهم كانوا يطمعون في استغلال إقليم النوبة الغني بالمواد الخام والأيدى العاملة . ومن ناحية أخرى هل كان أهل النوبة أنفسهم ينشدون صداقة مصر سعياً وراء الرزق أم أنهم كانوا يثورون في وجه حكامها بين الحين والآخر إلى أن تحينوا تلك اللحظات التي ضعفت فيها مصر سياسياً فانتقلوا عليها بل واستطاعوا أن يحتلوا مصر في نهاية الأمر . وحتى يتمكن الباحث من الإجابة على تلك التساؤلات فإنه يلزم ملاحظة تطور العلاقات المصرية النوبية مع إلقاء بعض الضوء التاريخي على طبيعة تلك العلاقات إبان العصر التاريخي .

فيالنسبة للعلاقات المصرية النوبية في عصر الامرات المبكر ، يمكن تاباحث أن يلاحظ انشغال ملوك تلك الفترة بوجه عام في تثبيت دعائم الوحدة وعدم ميلهم إلى الفتوحات الخارجية . إلا أن التقرؤش والنصوص التي تعود إلى تلك المرحلة تشير إلى بعض الحملات العسكرية التي كانت ترسل من مصر إلى بلاد النوبة ، إلا أنها لم تكن موجهة ضد السكان الأصليين بل غالباً

(١) عبد المنعم أبو بكر وأخرون ، بلاد النوبة ، ص ٤١ .

ما اقتصر على رد غارات البدو لتأمين طرق القوافل التجارية . وفي الامكان ملاحظة ورود ذكر النوبة على رقعة خشبية عثر عليها في أييدوس من عهد حورعما Hor Aha وهي تشير الى غزو الأراضي النوبية (١) كما يشير نص منقوش على لوحة صخرية في وادي حلفا Wadi Halfa يحمل اسم جر (٢) الى غزوه لبلاد النوبة .

ويشير حجر بالرمو الى ملك مجهول الاسم من الأسرة الأولى ويحتمل أن يكون الملك دن Den « قام بضرب المقاطعات « الأيونتيو » (٣) Iuntiu

Iwn(ty)

ويشير نقش في الكوم الأحمر (٤) من عهد نحم khasekhem الى ضربه للنوبيين . كما تشير التنقيبات الأثرية في بوهن (*) Buhen الى العثور على أفران لصهر النحاس في نهاية عصر الامرات الميكر . (٥)

ثم تطورت علاقات مصر بالنوبة أثناء عصر الدولة القديمة حينما بدأت أنظار ملوك تلك المرحلة تتجه نحو الجنوب رغبة في الحصول على الكثير من المواد الخام وبدأت البعثات التجارية تتردد على تلك المناطق . ولكن هذا النشاط التجاري لم يقلل من حرص المصريين على حماية حدود بلادهم

(1) Edwards, I.E.S., "The Early Dynastic Period in Egypt", (in) C.A.H., Vol. 1, Part 2A, Cambridge, 1971, pp. 23 & 50.

(2) Edward., I.E.S., Ibid., P. 50 and Arkell, A.J., "Varia Sudanica", (in) J.E.A., Vol. 36, London, 1950, pp. 27—30.

(3) Edwards, I.E.S., Op. Cit., p. 50.

(4) Quibell, J.E., and Green F.W., Hierakonpolis, Part 2 (E.R.A. 5th Memoir) London, 1902, PL. LVIII.

(*) تقع على الحد الشمال للجدل الثاني .

(5) Tigger, B.J., Nubia Under the Pharaohs, Great Britain 1976, 'p. 46.

الجنوبية طوال عصر الدولة القديمة ، وخاصة وأن بعض القبائل الزنجرية بدأت تظهر على المسرح السياسى منذ عام ٣٥٠٠ ق.م . ، ووصلت بعضها إلى مصر فى عصر الأسرة الثالثة . وفى هذا الاتجاه نجحت جهود زوسر Djoser فى السيطرة على القبائل النوبية جنوب الجندل الأول (١) .

ومن عهد حورنى Huni ، عثر على قطعة مخروطية ، (**) من الجرانيت الأحمر فى الفنتين Elephantine بعثة بورخاردت Borchardt أنها جزء من قلعة دفاعية أقيمت فى تلك الجزيرة على الحدود القديمة بين مصر والنوبة بغرض تقوية الدفاع عنها . ويشير النص المنقوش عليها إلى إقامة تلك القلعة وإلى اسم الملك حورنى داخل الخرطوش الملكى (٢) .

أما الإخضاع الحقيقى للنوبة السفلى ، فقد تم فى عهد سنفرى Sneferu حيث تشير حولياته على حجر بالرمو إلى حملاته ضد النوبة (٣) وقد أحضر سنفرى معه من النوبة سبعة آلاف أسير ومائتى ألف رأس من الماشية (٤) ؛ وربما كانت هذه الحملة موجهة ضد القبائل القاطنة إلى الجنوب من برهن لتأمين طرق التجارة حتى دنقلة (٥) .

أما خوفو فقد أستغل مجازر الديوريت الواقعة فى الصحراء شمال غربى

(1) Breasted, J.H., A History of the Ancient Egyptians, the Historical Series for Bible Students, Vol. V, p. 104.

(**) موجودة بالمتحف المصرى تحت رقم ٤١٥٥٦ وقد تقدم بدراساتها لـيب حبشى

(2) Smith, W.S., "The Old Kingdom in Egypt and the Beginning of the First Intermediate Period", (in) C.A.H., Vol. 1, Part 2A, Cambridge, 1971, p. 159.

(3) Smith, W.S., Ibid., p. 167.

(4) Breasted, J.H., Op. Cit., p. 106, And Breasted, J.H., A.R.I., 146.

(5) Tigger, B.J., Op. Cit., P. 47.

أبي منبل . (١) وقد عثر على أسماء كل من رع جدف Rediedef ،
وساحورع Sabure واسيسي Isesi منقوشة على تلك المحاجر (٢) .
كما يشير أوناس Unas إلى زيارته للحدود الجنوبية التي ربما استقبل فيها
رؤساء القبائل النوبية (٣) .

مما سبق يمكن القول بأن المصريين القدماء احتلوا النوبة السفلى في تلك المرحلة ،
ووجدوا سهولة في استغلال الثروات المعدنية في تلك المناطق بدليل اكتشاف
إفران لصهر النحاس في بوهن تعود إلى عصر الاسرتين الرابعة والخامسة (٤) .

وأخذت غناية المصريين ببلاد النوبة تزداد في عصر الأسرة السادسة ،
ويستدل من نص خلفه (أوني) Uni عن مهمة أرسله فيها يبي الأول
Pepi I إلى بلاد النوبة لتجنيد مقاتلين من النوبة للجيش المصري «...
أعلن جلالته الحرب وجهز جلالته جيشاً من عشرة الآلاف من كل الوجه
القبلي ... ومن النوبيين إيرثت Irthet ومدجاي Yam ومن واوات
ومن كاأو kaau (٥) ...» .

ويشير نقش عند الجنديل الأول إلى زيارة مرتفع Merenre لإقليم الجنديل
الأول ليتقبل ولاء رؤساء قبائل مدجاي وإيرثت وواوات «... وصول جلالته
الملك إلى الأراضي الواقعة بعد الإقليم الصحري (الجنديل الأول)
لمشاهدة هذا الإقليم ولتقبل الخضوع والمدح من رؤساء قبائل المدجاي

(1) Smith, W.S., Op. Cit., p. 167.

(2) Smith, W.S., Ibid., p. 167.

(3) Smith, W.S., Ibid., p. 188.

(4) Emery, W.B., Egypt in Nubia, London, 1965.

ترجمه العربية تحفه حدنوسة وراجحه عبد المنعم أبو بكر بعنوان « مصر وبلاد النوبة » القاهرة
١٩٧٠ ، ص ١٢١ .

(5) Wilson, J.A., "Asiatic Campaigns Under Pepi I" (in) A.N.E.T.,
princeton, 1969, p. 228.

والايرث والوارث (١)

وقد استمر اوفى تجربته في الشؤون النوبية في خدمة الفرعون مرنرع ،
حيث عينه حاكماً على الجنوب » ... سيدي الذي له الحياه الأبدية ، عيني
وحاكماً على الجنوب (٢) .

ولكني يتغلب على الصعوبة في التنقل بين مصر والنوبة ، قام (أوفى)
برحلتين إلى الجندل الأول . وفي رحلته الأولى ، قضى عاماً كاملاً في شق
خمس قنوات عند الجندل الأول لتيسير الملاحة ، كما أتم بناء سبع سفن (٣)
أتى بها عملة بكلل الجرائيت . ولقد ازدادت الصلات السلمية بين مصر والنوبة
عندما أخذ حكام الفنتين يرتادون مناطق النوبة . وقد قام حرخوف Harkhuf
بقيادة القوافل التجارية في الجنوب ، وتشير نقوش مقبرته تجاه اسوان إلى
زيارته للنوبة ثلاث مرات في عهد الملك مرنرع . وقد استغرقت رحلته
الأولى سبعة شهور ، وكان مساعداً لوالده إري Iri (٤) .

أما عن رحلته الثالثة ، فيشير النص » ... أرسلني جلالته الآن مرة ثالثة
إلى بلاد يام ، فخرجت من المقاطعة الشنية إلى طريق الواحات ووجدت حاكم
يام قد ذهب إلى أرض التحو ليضرب التحو في ركن السماء الغربي فذهبت
وراءه إلى أرض التحو وأرضينه حتى مدح جميع الآلهة من أجل الملك (٥) ... » .

(1) Breasted, J.H., A History of Egypt from the Earliest Times to the
Persian Conquest, Book II "The old kingdom", London, 1906, p.137.

(2) Breasted, J.H., A.R., 1, 320 .

(3) Gardiner, A.H., Egypt of the Pharaohs .

ترجمه العربية نجيب ميخائيل ابراهيم ، وراجعه عبد المنعم أبو بكر بنزوان «مصر الفراعنة»
القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١١٦ .

(4) Breasted, J.H., A History of Egypt, Book II, "The Old Kingdom",
p. 138. and Breasted, J.H., A.R., 1, 333

(5) Wilson, J.A., The Culture of Ancient Egypt, U.S.A., 1975, p. 90
and Breasted, J.H., A.R., 1, 335f.

ويستدل من ذلك النص على اجتياز حرخرف لطريق «درب الواحات» للوصول إلى منطقة قبيلة (يام) ولكنه وجد رئيسها يحارب قبائل النخو (اليبيين).

هذا وقد عثر في كرما Kerma جنوبي الشلال الثالث (١) على قطع من الأواني الحجرية وقد نقش عليها أسماء بيبي الأول ومرنرع وبيبي الثاني مما يشير إلى توغل البعثات المصرية التجارية حتى كرما. ويعتقد ريزنر Reisner أن المصريين أقاموا مراكز تجارية خلال عصر الأسرة السادسة في كرما. (٢) كما استمرت الرحلات المصرية إلى مناطق النوبة النائية تقيم صلات الود وحسن الجوار وتعود بخيرات تلك البلاد. ولكن تلك العلاقات السياسية السلمية بين مصر والنوبة لم تستمر طوال عصر الأسرة السادسة إذ أن حالة مصر السياسية وما انتابها من مظاهر الضعف في أواخر عصر هذه الأسرة بدأ ينعكس على طبيعة علاقاتها بالنوبة. فبدأت الأوضاع الداخلية في مصر في التفكك والضعف حتى بدأت القبائل النوبية تتحول في مشاعرهما نحو البعثات التجارية المصرية. فبدلاً من الترحيب الذي كان يقابل به «اوني» و«حرخرف» (٣) في رحلاتهم، فأننا نلاحظ مدى الحرج الذي قابلته رحلة حرخرف الثالثة وذلك بسبب العداء الذي لاقته تلك الرحلة من القبائل النوبية مما تطلب إرسال حقايب Hekayeb على رأس حملة تأديبية إلى تلك البلاد. ومن مظاهر سوء العلاقات المصرية النوبية كذلك، أن حاكم أسوان في عصر بيبي الثاني المسمى مخو (٤) Mekhu ربما يكون قد مات أو قتل

(1) Smith, W.S., Op. Cit., p. 194.

(2) Reisner, G.A., Excavations at Kerma (Harvard African Studies), Vol. V., pp. 29—33. and Vol. VI, pp. 506 — 510, Cambridge Mass., 1923.

(3) Breasted, J.H., A.R., 1, 333 — 336

(4) Tigger, B.J., Op. Cit., p. 59.

في النوبة السفلى . كما تشير نقوش مقبرة خليفته سابئي Sabni في أسوان إلى ذهابه إلى النوبة لاحضار جثة والده الذي قتل اثناء رحلة لقافته في النوبة (١) . وتشير نقوش بيبي نخت أحد حكام الفنتين * المدونة على لوح في قبره عن حملته التي كلفه بها الملك بيبي الثاني لتأديب بلاد النوبة « ... أرسلني جلالة مولاي لأسارع إلى بلاد واوات وايرثت ، وقد تصرف بما أرضى مولاي ، وذبحت عدداً كبيراً منهم من أبناء الرؤساء وضباط الجيش الشجعان ، وأحضرت إلى العاصمة من هناك عدداً كبيراً من الأسرى وكنت على رأس مجموعة من الجنود الأقوياء الشجعان (٢) «... » .

وعندما وصلت الحالة السيامية في مصر القديمة على النحو الذي سبقت الإشارة إليه ، انتقلت مصر إلى عصر الفترة الأولى قرب نهاية الألف الثالث قبل الميلاد . وفي هذا العصر ، سادت اللامركزية كنتيجة لتفكك نظام الملكية المصرية . كما وصل التدهور السياسي إلى الحد الذي تقلصت معه ممتلكات مصر في الجنوب بل نكاد نجزم أن مصر قد فقدت سيطرتها على حدودها . ومع انهيار الحكومة المركزية في مصر ، يمكن ملاحظة توقف التبادل التجاري المصري النوبي ولاسيما مع بلادتيام . كما يلاحظ اختفاء الباع الافريقية التقليدية في ذلك الوقت من السوق المصرية ولاسيما في العاصمة منف . وعلى الرغم من هذا الكساد التجاري بين مصر والنوبة السفلى ، إلا أن ذلك لم يمنع القبائل النوبية ولاسيما قبائل المدجاي من العمل في صفوف الجيوش المصرية أثناء الحرب الأهلية التي جرت في مصر في تلك الآونة . وبالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه ، فقد هيات تلك الفترة لبعض الهجرات أن تستقر في بلاد النوبة . وكان مصدرهم من المناطق الشمالية الغربية حيث كانت تقطن قبائل التمحور . وفي هذه الفترة أيضاً تمكنت بعض القبائل الزنجرية من التسرب

(1) Smith, W.S., Op. Cit., p. 195.

* مقبرته تجاه أسوان والنقش مدون على واجهة باب وعلى سبعة أعمدة على كل من جانبي المقبرة

(٢) ألن جاردنر ، المرجع السابق ، ص ١١٨ .

إلى منطقة الشلال الثالث وبدأت تهدد أنوبة السفلى ، ولم تسلم من خطرها حدود مصر الجنوبية نفسها . ولقد تمكنت تلك القبائل من اتخاذ عاصمة لها جنوبى الشلال الثالث فى كرما ، وقد سميت تلك القبائل باسم الكوش . ولقد تنبه ملوك الأسرة الحادية عشرة لخطرهم وأعدوا العدة لمكافحتهم . ويشير نقش من عهد الملك نب حبت رع Nebhepetre عشر عليه بجوار البلاص El-Ballas إلى انتصارات هذا الفرعون والصحارى المجاورة (١) . فى السطرين الخامس والسادس من النص «... أن الفرعون ملك واوات (أنوبة السفلى) والواحة المجاورة (كركر = Kurkur) أنه «هزم الأعداء فيها» وأنه ضم تلك المناطق إلى مصر العليا . ويبدو أن رجال القبائل فى شرق أنوبة قد اضطروا لتقديم فروض الطاعة والولاء له (باحناء جباههم على الأرض) . ويضيف النص « أن الحاكم المنتصر سافر فى النهر حتى وصل إلى الفتبتين وهناك تلقى ترحيب المواطنين » ويختتم النص قائلا «... لقد فعلت ذلك عندما كنت ملكاً (بعد أن جعلت طيبة تستعيد نفوذها على الأرضين) » وفى السطر الأخير من النص يشير مرة أخرى إلى واوات والواحة ، ويدعى مرة أخرى أنه تمكن من ضمها إلى مصر العليا «...» (٢) .

ويسجل نقش صخرى فى ابيسكو Abisko أن أحد رجال «نب حبت رع» وكان نوبيا ويدعى تهماو Tehemau ذكر أن الملك المصرى سافر جنوباً

انظر

- (1) Lutz, H.F., *Egyptian Tomb Steles and Offering Stones of the Museum of Anthropology and Ethnology of the University of California* (University of California Publications Egyptian Archaeology, Vol. IV) Leipzig, 1927, No. 66, pl. 34.

• تقع جنوب غرب واوات .

- (2) Hayes, W.C., "The Middle Kingdom in Egypt, Internal History From the Rise of the Heracleopolitans to the Death of Ammenemes III", (in) C.A.H., Vol. 1, Part 2A, Cambridge 1971, pp. 486—487.

حتى وصل إلى مكان يسمى بن • Ben ويستمر النص قائلاً : أن نحاو وابنه قد رافقا الفرعون في رحلته بحراً ليقتل بدو جاتي (١) Djati وسكان الصحارى المجاورة. ويشير ولسون إلى أن رجال البدو حاولوا عرقلة العمل في المهاجر مما تطلب إرسال حملة عسكرية للمحافظة على حقوق استغلال تلك المهاجر (٢) .

وبالرغم من رحلات ملوك تلك المرحلة إلى النوبة ، فإن سيطرة مصر على بلاد النوبة لم يتعدى الجندل الثاني . وربما استطاع نب حبت رع باستيلائه على «واحة كركره» أن يفتح طريق القوافل إلى السودان . ومن المحتمل أن تكون مناجم الذهب في النوبة قد استغلت تحت إشراف المصريين في تلك الآونة .

وقد استمر متوحوشب الخامس في إرسال الحملات على النوبة كما فعل أسلافه السابقين . ولقد ازداد اصرار المصريين على التوسع الإقليمي والاستغلال الاقتصادي لاقليم النوبة في عصر الاسرة الثانية عشرة ، كما استطاع ملوكها أن يخضعوا المنطقة ما بين الشلال الأول والثاني أخضاعاً تاماً لنفوذ المصري .

وفي الامكان الإشارة إلى أن امنمحات الأول • قد وصل إلى الفنتين

• يحتمل أن تكون برهن

(1) Hayes, W.C., Ibid., p. 487.

(2) Wilson, J., Op. Cit., p. 128.

• يحتمل أن يكون أمنمحات الأول من أصل نوبي كما يشير إل ذلك بردية نمر دوهو «... سيأت ملك من الجنوب اسمه امينى Amenî وهو ابن سيده نوبية الأصل...» والبردية محفوظة تحت رقم ١١١٦ ب بمتحف لينجراد وقد قام بدراستها جولينشف . انظر

Golenischeff, W., Les Papyrus Hiéroglyphiques nos. 1115, 1116A, et 1116B de l'Ermitage Impérial à St. Pétersbourg (St. Pétersbourg, 1913)

وقام بترجمتها جاردنر وإرمان :

Gardiner, A.H., "New literary Works From Ancient Egypt", Pétersbourg 1116B, Recto (in) J.E.A., 1, London 1914, pp. 100-106. and Erman, A., L.A.E., London 1927, pp. 110-115. and Wilson, J.A., "The Prophecy of Neferti", (in) A.N.E.T., P. 445.

على رأس أسطول من عشرين سفينة برفقة خنوم حوب Khnumhotpe وذلك لإقرار الأمن والسلام في تلك المناطق المضطربة وإظهار البأس الفرعون أمام أهالي النوبة السفلى (١) . وفي العام التاسع والعشرين من حكمه ، أشرك ولي عهده وابنه سنوسرت الأول في قيادة الحملة النوبية التي وصلت كورسكو . . Korosko . وهناك نص من عامه التاسع والعشرين يمجّل وصوله... لقهر واوات (٢) وقد أتم أمنمحات الأول تشييد حصن سمّة بجوار الجندل الثاني كما أقام المركز التجارى في كرما .

وفي عهد خلفه سنوسرت الأول ، نراه يسير على سياسة أبيه في التوسع تجاه حدود مصر الجنوبية . فيحتل النوبة السفلى ، ويعسكر جنوده في القلاع والحصون من قلعة كوبان Quban حتى بوهن (٣) .

ولم يكتف ملوك الأسرة الثانية عشرة باخضاع النوبة السفلى فقط بل استولوا على عاصمة كوش في كرما حيث يشير نقش على لوحة من الحجر الرملى أقامها متوحتوب (٤) قائد جيش سنوسرت الأول في بوهن . واللوحة تمثل منظر الملك واقفاً أمام منتو Mentu إله الحرب في طيبة الذى يقدم الأسرى من الأراضي السودانية وعلى رأسها كوش . كما يشير نقش

(1) Hayes, W.C., Op. Cit., p. 497.

• • • متصف المسافة بين الجندلين الأول والثاني .

(2) Tigger, B.J., Op. Cit., p. 64 and Breasted, J.H., A.R. 1, §§ 472f.

(3) Vercoutter, J., "Upper Egyptian Settlers in Middle Kingdom Nubia", (in) Kush, 5, 1957, pp. 61—69.

انظر

Emery, W.B., "A Masterpiece of Egyptian Military Architecture of 3900 Years ago : the Great Castle of Buhen in the Sudan", (in) Illustrated London News, Vol. 235, no. 6267 (12 September, 1959) pp. 232—233 and 249—251.

(4) Breasted, J.H., A.R., 1, 510—514.

في مقبرة امينى. أحد أمراء بنى حسن (١) إلى أنه أبحر جنوباً «وراء كوش» ووصل إلى «نهابات الأرض». وأن سنوسرت الأول كان بشخصه على رأس الجيش . وعلى الرغم من اتجاه ملوك الأسرة الثانية عشرة لتوطيد سلطاتهم في النوبة ، إلا أنه يمكن الإشارة إلى تراخي قبضة مصر على النوبة في عهد كل من أمنمحات الثاني وسنوسرت الثاني حيث لا يوجد ما يشير إلى قيام نشاط حربي في عهدهما . ولو أن ذلك لم يمنع سنوسرت الثاني من استغلال مناجم الذهب في بلاد النوبة ، حيث كان يتم غسل الذهب على يد الرؤساء النوبيين وتحت اشراف مصري (٢) كما كان يقوم مشول من قبل أمنمحات الثاني بالتفتيش على قلعة واوات . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن سنوسرت الثاني قام بتوسيع قلعة عينية (٣) Aniba كما عثر على اسمه في قلعة كويان وربما أيضاً في كوما Kuma عند الجندل الثاني (٤) . ويشير نقش لموظف يدعى سيحتحور في لوحة جزئية بأبيدوس من عهد الملك أمنمحات الثاني «... لقد زرت أراضي المناجم... وأجبرت الحكام (النوبيين) أن يغسلوا الذهب... وأحضرت ملائحت ووصلت إلى النوبة التي تتبع الزوج (٥)». هذا وقد عثر على اسم سنوسرت الثاني في قلعة كويان ووادي العلاقي Wadi el Allaqi وربما في الكوما .

وبعد الهدوء النسبي في نشاط ملوك تلك المرحلة في بلاد النوبة ، اعتلى العرش سنوسرت الثالث. فاستأنف إرسال الحملات للنوبة لمواجهة التهديدات

(1) Breasted, J.H., A.R., 1, 519f.

(2) Hayes, W.C., Op. Cit., P. 503.

(3) Hayes, W.C., Ibid., p. 503.

(4) Porter, B., and Moss, R.L.B., 'Nubia, the Deserts, and Outside Egypt (in) Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts, Reliefs and Paintings, 7, Oxford, 1951, p. 82.

(٥) وولتر أمري ، المريج السابق ص ١٦١

الآتية من الجنوب . فقد بدأت قبائل النحسيو Nehsiu في التحرك شمالاً وأصبحت تهدد النوبة السفلى ، مما أضطر سنوسرت الثالث إلى شق قناة في صخور الجندل الأول لتسهيل مرور سفنه الحربية والتجارية في طريقها إلى بلاد النوبة وقد عرفت هذه القناة باسم «طريق خع كاورع الجميل (١)» Good are the ways of khakaure . وفي العام الثامن من حكمه ، أعاد تطهير تلك القناة (٢) استعداداً لحملة الأولى على النوبة «ليهزم كوش التسعة» .

وبشير نص على لوحة الحدود التي أقامها سنوسرت الثالث عند سمنة في العام نفسه إلى الاجراءات الشديدة لمنع مرور النحسيو شمالاً... الحد الجنوبي الذي أقيم في العام الثامن ... لمنع أى تخمسى من المرور شمالاً أو برأ أو بقارب (وكذا) أى قطعان للنحسيو بخلاف ما إذا كان أى تخمسى يأتى للتجارة في اكن Iqen (٣) ... » .

وقد تبعها بثلاث حملات «تأديبية ضد قبائل كوش وسكان الصحارى المجاورة» . ولما كان من الواضح أن الغزو من ناحية الجنوب كان مصدر قلق دائم للملك تلك المرحلة ، فاننا نرى أن سنوسرت الثالث يبحر جنوبى الجندل الثانى في حملته في العام التاسع عشر من حكمه ، وينقل القتال إلى أراضي السودان (٤) حيث تقدم إلى مسافة سبعة وثلاثين ميلاً جنوبى وادى حلفا ، وقام بتخريب سلسلة من الحصون الدفاعية (٥) على طول هذه المنطقة من سمنة

(1) Hayes, W.C., Op. Cit., p. 506.

(2) Breasted, J.H., A.R., 1, 642.

(3) Wilson, J. A., The Culture of Ancient Egypt, U.S.A., 1975, pp. 136—137.

« في العام العاشر والسادس عشر والتاسع عشر من حكمه .

(4) Hayes, W.C., Op. Cit., p. 507.

(5) Gardiner, A., Ancient Egyptian Onomastica, Vol. 1, Oxford University Press 1947, pp. 9ff

وحتى بوهن ، وذلك لتكون نقاط مراقبة لحماية الجنوب . وقد صممت لتكون مواقع دفاعية كما يتضح من أسماءها (التي تطرد القبائل) والتي (تكيح الصحراوات) . وكانت أشدها متانة وأضخمها القلعة التي شيدها في سمته والتي أطلق عليها «خع كاورع القوى» (١) .

وتشير لوحة النصر النهائي التي أقامها سنوسرت الثالث في سمته وفي جزيرة أوروئارتى «... السنة السادسة عشرة ، الشهر الثالث من الفصل الثاني : أقام جلالته الحدود الجنوبية في سمته . لقد أقمت حدودى أبعد من آبائى...» (٢) . وقد عزز تلك الحدود بالجنود المصرية وبجنود قبائل المدجائى (٣) .

وفي العام التاسع عشر من حكمه ، نراه يظهر قوته للنوبيين مرة أخرى فيذهب على رأس حملة إلى كوش (٤) . وربما كانت هذه آخر حملاته إلى النوبة . وعلى ذلك يكون سنوسرت الثالث قد نجح في توطيد أركان حكمه في النوبة . إلى الدرجة التي اعتبروه لها على النوبة وعبيدوه في عهد الأسرة الثامنة عشرة .

ويبدو أن حدود مصر الجنوبية في النوبة بقيت حتى حدود سمته في عهد خلفائه أمنمحات الثالث وأمنمحات الرابع والملكة سوبك نفرو حيث لم يرد أى ذكر لنشاط عسكري طيلة مدة حكمهم . وفي الامكان ملاحظة استمرار النفوذ المصري في النوبة معظم فترات عصر الأسرة الثالثة عشرة بدليل تسجيل فيضان النيل عند الجندل الثاني في السنوات الأربع الأولى لحكم الملك منمرع خوتاوى أمنمحات سوبك حوتب Sekhemre Khutowy Ammenemes Sobkhotpe أول فراغة هذه الأسرة (٥) . ولما أصبحت مصر تحت حكم الهكسوس ،

(١) ان جاردنر المرجع السابق ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(2) Wilson, J.A., Op. Cit., p. 137.

(3) Wilson, J.A., Ibid., p. 138.

(4) Breasted, J.H., A History of Egypt, from the Earliest times to the Persian Conquest, Book III, "The Middle Kingdom : The Feudal Age" London 1906, p. 186. and Breasted, J.H., A.R., 1, 661.

(5) Hayes, W.C., "Egypt : From the Death of Ammenemes III to Seqenenre II", (in) C.A.H., Vol. 11, Part 1, Cambridge, 1973, p. 45.

لم يبق لمصر قوة في النوبة . وانتهزت بعض القبائل المغيرة الفرصة وتسربت إلى النوبة السفلى وثبت أنها أتت من الصحراء الشرقية ، وكانت جمع بين الجنس الحامى والجنس الزنجى . ولقد وصلت في خطرها إلى تهديد الحدود الجنوبية لمصر نفسها . وامتنعت تلك القبائل أن تكون دولة مستقلة اتخذت عاصمتها في يوهن . (١)

ولم يكتف النوبيون بذلك بل عقدوا حلفاً مع ملوك الهكسوس . ويشير إلى ذلك وجود بعض جعارين تحمل طابع الهكسوس في مقابر النوبة السفلى (٢) . كما يعزز هذا التقارب رسالة (٣) الملك ابوفيس Apophis ملك الهكسوس إلى أمير كوش ، الذى بدأ رسالته بلفظة «ولدى» ، وعابه على عدم اخباره بتعيينه أميراً على كوش كما أبلغه عن حرب التحرير التى كان قد بدأها كامس Kamose وحاول أن يؤلبه على مصر ويحرضه على مهاجمتها .

وعندما بدأت حروب التحرير ضد الهكسوس ، وضع أبطال التحرير

(1) Hayes, W.C., Ibid., P. 65.

(2) James, T.G.H., "Egypt : From the Expulsion of the Hyksos to Amenophis I", (in) C.A.H., Vol. 11, Part I, Cambridge, 1973, p. 297.

(3) Tigger B., Op., Cit., p. 103.

• كان يطلق على حاكم النوبة لفظ «أمير كوش» وكان يسيطر على المنطقة الممتدة من الفنتين وحتى كرما .

James, T.G.H., OP. Cit., p. 296.

ويبدو أن اشارة كوش كانت قد استقلت منذ أواخر عصر الانتقال الثانى في الوقت الذى فقدت فيه مصر وحدتها ، مما اضطر جيوش الفرعون إلى الانسحاب من الجنوب .

Tigger, B., Op. Cit., p. 296.

نصب أعينهم استعادة النفوذ المصرى فى النوبة . وتشتمل لوحة كارنارفون (١) على حديث للملك كامس إلى مجلس كبار رجال الدولة الذين كانوا فى حاشيته « ... أريد أن أعرف قوتى عندما أرى حاكما فى «أواريس» وآخر فى أثيوبيا ، وأنا أجلس فى الحكم مشتركا مع رجل أسبوى وآخر من النوبة وكل رجل منهما مشغول عن قطاعه من مصر هذه وذلك الذى يقاسمنى الأرض لأجعلهم يمر فى ماء مصر حتى منف ... » (٢) .

ويبدو من سجل انتصارات كامس أن مناطق النوبة كانت تحت السيطرة المصرية بدليل وجود نقوش صخرية تحمل اسم كامس بجوار توشكا (٣) Toshka وفى عهد أحس الأول ، بدأت الحروب الجنوبية لاسترجاع النوبة . وتشير نقوش أحس بن أبانا Ahmos, son of Ibana على جدران مقبرته فى الكاب «... والآن عندما ذبح جلالته الأسبويين ، صعد جنوبا إلى خست نفر henti-hen-nefer ليقضى على بلد بلاد النوبة ... » وبدأ جلالته مدبحة عظيمة فيهم وبعد ذلك أخضرت من هناك غنيمة ... وقد كوفت بالذهب من جديد (٤) ... » .

ويبدو أن ثورة كوش كان يقودها أميرها تتيان Tetian . هذا وقد عُثر على تمثال يحمل اسم أحس وكذلك على كتلة حجرية تحمل اسم زوجته

(١) عثر على اللوحة غرب طيبة وترجمها جن وجاردنر وارمان

Gunn, B., and Gardiner, A.H., *New Renderings of Egyptian Texts*, "The Expulsion of the Hyksos", (in) J.E.A., Vol. V., London 1918, pp. 45 — 47. and Erman, A., L.A.E., pp. 52—54.

(2) Wilson, J., "The War Against the Hyksos", (in) A.N.E.T., p. 232.

(3) James, T.G.H., *Op. Cit.*, p. 297.

« قام بترجمة النص كل من برست وجن وجاردنر

Breasted, J.H., A.R., 11, 1—13, 81—82. and Gunn, B., Gardiner, A.H., *Op. Cit.*, pp. 48—54.

(4) Wilson, J., "The Expulsion of the Hyksos", (in) A.N.E.T., p. 234.

أحمس نفرتارى فى جزيرة ساي . . Sai . والمعروف أن أحمس أقام حاكماً على بوهن اسمه تورى Tjuroy وهو الذى أصبح فيما بعد حاكماً على النوبة (١) وكان أحياناً يلقب «الابن الملكى وحاكم البلاد الجنوبية» . وبذلك يكون أحمس قد استطاع أن يستعيد النفوذ المصرى فى النوبة ، وأن يشيد معبداً فى بوهن ، وأن يجدد الفلاح والحصون التى كان قد بناها اسلافه من الدولة الوسطى (٢)

ومن عهد امنحوتب الأول ، يشير أحمس بن ابانا إلى حملة هذا الفرعون على النوبة بهدف «توسيع حدود مصر» (٣) وأورد وصفاً لتلك الحملة التى قادها الفرعون ضد القبائل القاطنة إلى الشرق أو الغرب من وادى النيل والتى كانت تعتدى على السكان الآمنين فى النوبة . ويستدل من ذلك النص أن الملك امنحوتب الأول قد غزا النوبة وقد وصل فى حملته إلى الحدود التى وصل إليها ملوك الدولة الوسطى عند الجندل الثانى . ويعزز ذلك الاتجاه نقوش الوالى تورى التى تعود إلى العامين السابع والثامن من حكم امنحوتب الأول فى كل من سمنة وأورونارنى عند خط الحدود الجنوبية القديمة التى كان قد أقامها فراعنة الأسرة الثانية عشرة (٤) . كما أنه عثر على اسمى أحمس وأمنحوتب الأول على بعض الآثار من القلعة والمعبد اللذان أقامهما أحمس فى جزيرة ساي . (٥) وفى بداية عهد تحوتمس الأول ، يعث مرسوم

.. تبع ما يزيد عن مائة ميل جنوب بوهن .

- (1) James, T.G.H., Op. Cit., p. 299.
- (2) Hayes, W.C., "Egypt : Internal Affairs from Tuthmosis I to the Death of Amenophis III", (in) C.A.H., Vol. 11, part 1, Cambridge, 1973, p. 346.
- (3) James, T.G.H., Op. Cit., p. 309.
- (4) Breasted, J.H., A History of Egypt from the Earliest times to the Persian Conquest, London, 1906, pp. 145—146.
- (5) Vercoutter, J. "New Egyptian Texts from the Sudan", (in) kush, 4, 1956, pp. 75—79.

إلى نوري حاكم النوبة ينبؤه بأمر ولايته للعرش. وتوجد نسختين من هذا المرسوم عثر عليهما في وادي حلفا وفي كوبان (١) .

ويشير أحسن بن ابانا إلى جهوده الحربية في النوبة :... إن فرعون مصر حارب قائد التوبين فسدد أول سهامه نحو هذا القائد فأصابه وألقاه على الأرض صريعاً ، بعد ذلك هزم الجيش النوبي تماماً وأمر كثيرين منهم (٢) :... . وقد تم في عهد تحوتمس الأول بسط النفوذ المصري في كوش وجزيرة أرجو = Argo وأخيراً الجنادل الرابع (٣) عند كورجس Kurgus حيث تشير لوحة الحدود التي أقامها في هذا الموقع إلى المدى الذي وصل إليه في الجنوب (٤) . وعين الملك حاكماً عاماً على النوبة بعد أن تعذر على حاكم الكاب أن يشرف على هذا الأقليم بعد أن امتد حتى الشلال الرابع . وقد أطلق على حاكم النوبة لقب «حاكم البلاد الأجنبية وابن الملك المعين على كوش» .

ومن النصوص التي تشير إلى امتداد سلطة حاكم النوبة حتى الشلال الرابع «هذا ختم فرعون الذي ولاك حاكماً (على القطر) الذي بين مدينتي نخن وفتيه (٥) ... » .

أما تحوتمس الثاني ، فقد أحرز في عامة الأول ثورة في شمال كوش

(1) Hayes, W.C., *Op. Cit.* p. 315.

(2) Breasted, J.H., *A History of Egypt, Book V, "The Empire: First Period"*, London 1906, p. 256. and Breasted, J.H., *A.R.* 11, 80.

« فرق الجنادل الثالث »

(3) Arkell, A., *Op. Cit.*, pp. 36 — 39.

(4) Tigger, B.J., *Op. Cit.*, p. 108.

(5) Breasted, J.H., *A History of Egypt, Book V, "The Empire: First Period"*, London, 1906, p. 255 and Breasted, J.H., *A.R.*, 11, 1022.

الحقيرة « (١) ويبدو أن تلك الثورة اندلعت في الوقت الذي بلغ النوبة فيه أنجبار نزاع افراد الأسرة المالكة مما اضطر الفرعون إلى تجهيز جيش وصل إلى إقليم الجندل الثالث . ولم يكتف هذا الجيش بهزيمة النوبيين ، بل قام بديع العصاه المذكور ما عدا أحد أبناء حاكم كوش الذي أسر حيا وأخذ أسيراً إلى طيبة (٢) .

وفي عهد خلفه تحوتمس الثالث ، تشير لوحة جبل برقل Gebel Barkal أنه أتم قبل العام السابع والأربعين من حكمه احتلال منطقة كاروى . . Karoy وأقام هناك مدينة نبتة الدفاعية . والواقع أن الملوك الفراعنة لم يصلوا في حملاتهم على النوبة إلى أبعد من هذه المنطقة . حتى حملة تحوتمس الثالث في عامه الخمسين لم تتعدى أن تكون حملة استعراضية لقوته العسكرية في الجنوب ، لارهاب رجال القبائل في الصحراء المجاورة . ولم تكن موجهة ضد السكان الأصليين الذين كان قد تم تمصيرهم (٣) . وفي هذه الحملة ، مر في الجندل الأول وأعاد تطهير القناة التي كان قد أقامها سنوسرت الثالث وتحوتمس الأول (٤) . وعلى جدران الكرنك ، توجد قائمة مزدوجة لمائة وخمسة عشر موقعة نوبية انتصرت فيها الجيوش المصرية على النوبيين (٥) . وتشير لوحة النصر التي أقامها تحوتمس الثالث في معبد الكرنك إلى انتصاراته وقد جمعت زئوج النوبة بعشرات الآلاف (٦)

(1) Haycs, W. C. Op. Cit., p. 347.

(2) Tigger, B. J., OP. Cit., P. 109.

•• بحوار الجندل الرابع .

3) Hayes, W. C., Op. Cit., P. 347-

(٤) إلن جاردنر ، المرجع السابق ، ص ٢٢١ .

(5) Breasted, J. H., A History of the Ancient Egyptians, The Historical Series for Bible Students, Vol. V., P. 241.

« موجودة حالياً في متحف القاهرة تحت رقم ٢٤٠١٠ .

(6) Wilson, J. A. "The Hymn of Victory of Thut-mose III", (in) A. N. E. T., P. 374.

ولقد دفع استقرار النفوذ المصرى فى تلك المناطق إلى أن يقوم أمنحوتب الثانى يشق أمير أسوى على جدار سور نبتة اظهاراً لقوة انتصاره . كما تشير إلى ذلك نقوش لوحة فى معبد عمدا Amada وأخرى فى معبد الفتين (١) . . . ويشير نص لوحة عمدا . . . وشتق ستة رجال من الأعداء على أسوار طيبة . . . أما السابع فقد أرسل بسفينته إلى النوبة وعلق على جدار أسوار نبتة ليكون عبرة تريمهم قوة انتصارات جلالة إلى الأبد فى كل الأراضى وبلاد الزوج . . . (٢) . . . ويذكر برستد (٣) أن حروب أمنحوتب الثانى فى النوبة قد امتدت حتى منطقة كاروى وأن تلك المنطقة أصبحت الحد الجنوبى للإقليم الذى يشرف عليه «حاکم الممالك الجنوبية» . وقد ترك أمنحوتب الثانى آثاراً تدل على اظهار حدود مملكته ، كما ترك نقشاً على قوسه الحربى يصف فيه نفسه : «... قاتل الأعداء قاهر كوش وناهب بلادهم ... سور مصر العظيم الحامى جنوده (٤) . . .» مما يوضح اهتمامه بتوسيع مملكته جنوباً حتى الجنادل الرابع فى نبتة (٥) .

وقد قام تحوتمس الرابع فى عامه الثامن بسحق بعض القبائل المتشردة فى الوديان شرق واوات . ومنذ عهده تغير لقب حاکم النوبة إلى «ابن الملك

(1) Hayes, W.C., Op. Cit., P. 347.

« هذه اللوحة مقسمة بين القاهرة (فى متحف القاهرة تحت رقم ٣٤٠١٩) وفينا تحت رقم ١٤١ .
وقد ترجم النسخة برستد

Breasted, J.H., A.R., 11, 791 — 797.

(2) Wilson, J.A., "The Amaba and Elephantine stelae". (in) A.N.E.T., p. 248.

(3) Breasted, J.H., A History of Egypt, from the Earliest times to the Persian Conquest, Book V, "The Empire :First period", London, 1906 .p. 325.

(4) Breasted, J.H., Ibid., p. 326.

(5) Hayes, W.C., Op. Cit., p. 320.

في كوش» و «حامل المروحة الملكية إلى يمين الملك (١)». وكان له نائبان : أحدهما يتولى شئون وإواب والآخـر شئون كوش (٢). وتشير النصوص المدونة على بقايا لوح يخص الملك امنحوتب الثالث في معبدته في عدا إلى ثورة في وإواب (٣). كما تشير سبعة نصوص حفظت في طيبة وأسوان وسمته إلى حملة امنحوتب الثالث في عامه الخامس ضد النوبة حيث نقرأ وصفاً للملك بأنه «الأمـد الخيف» «الحاكم القوي» «النار». وربما لم يصل إلى أكثر من الجنـدل الرابع وهى المنطقة التى وصل إليها كل من نخوتس الثالث وأمنحوتب الثانى حيث تشير لوحة كونوسو Kenosso «... لم يصل أى من ملوك مصر مثلما وصل إليه جلالته... (٤)».

كما تشير نصوص لوحة امنحوتب الثالث التى أقامها في معبدته في طيبة إلى إخضاعه لأمراء كوش حيث يخاطبه الإله امون رج «... جعلت أمراء اثيوبيا البائسة يخضعون لك حامليـن الجزية على ظهورهم (٥)».

أما فيما يتعلق بأمنحوتب الرابع ، فقد عـُـين واليا على كوش ، ولكن لم يرد ذكر لهذا المسئول في المرحلة التى غير فيها امنحوتب اسمه إلى اخناتون . وكان من الطبيعى أن تنعكس حالة التوتر التى عاشتها مصر أثناء ثورة اخناتون الدينية على الحالة في النوبة إذ لم يعد من السهل استغلال مناجم الذهب في تلك المرحلة . ولعل هذا يفسر الخـاج الأمراء الاسيويين في رسائلهم في طلب الذهب من مصر (٦) .

(1) Hayes, W.C., Ibid., p. 348.

(2) Hayes, W.C., Ibid., p. 349.

(3) Faulkner, R.O., "Egypt : from the Inception of the Nineteenth Dynasty to the Death of Ramesses III," (in) C.A.H., Vol. 11, part 2A, Cambridge, 1975, p. 235.

(4) Hayes, W.C., Op. Cit. P. 340.

(5) Wilson, J.A., "From Amen-Hotep III's Building Inscription", (in) A.N.E.T. p. 376.

(6) Wilson, J. A., The Culture of Ancient Egypt, U.S.A., 1975, p. 231.

لم تضعف الأحداث التي مرت بها مصر في أواخر عصر الأسرة الثامنة عشرة من قبضة المصريين على النوبة حيث تشير وثيقتان عثر عليهما في وادي حلفا من عهد رمسيس الأول وسيتي الأول إلى تأسيس معبد مصري في بوهن (١) . كما عثر على لوحة في معبد رمسيس الثاني في قلعة كوبان تشير إلى استخراجه للذهب من وادي العلاقي .

أما سيتي فقد أسس بهواً للأعمدة في معبد آمون في ثبته (٢) . وعلى الرغم من ظهور نقوش للمعارك الحربية في معابد رمسيس الثاني في أبي سنبل وبيت الوالي Beit-el Wali والدر (٣) Ed-Derr إلا أنه يبدو أن مثل هذه المناظر لم تكن سوى تقليداً استعير من النقوش السابقة (٤) . أضف إلى ذلك أن تلك النقوش لم تشير إلى مكان أو زمان تلك الحروب في النوبة التي كانت قد تحولت في الحقيقة إلى إقليم مصري ، كما أصبح سكانها متمصرين (٥) وبالأخص سكان المنطقة بين الجندلين الأول والثاني ، حيث استبدل الحكام النوبيين بمصريين ، كما شكلت محاكم مصرية تحت إشراف الحكام المصري بالنوبة وشيد بكل مدينة معبد مصري عبدت به الآلهة المصرية (٦) .

وتشير لوحة عثر عليها في كوبان إلى اهتمام رمسيس الثاني باستغلال مناجم الذهب وبخاصة في ايكيتا (٧) . ولقد بقيت واوات وكوش تحت السيطرة المصرية واستمرت الإدارة في النوبة تسير بنفس الطريقة التي كانت

(1) Faulkner, R.O., Op. Cit., p. 224.

(2) Faulkner, R.O., Ibid., P. 224.

(3) Faulkner R.O., Ibid., p. 230.

(٤) ان جاردنر ، المرجع السابق ، ص ٣١١ .

(5) Drower, M.S., "Syria C. 1500—1400 B.C." (in) C.A.H., Vol. 11, Part 1, Cambridge 1973, p. 468.

(6) Breasted, J.H., A History of Egypt, Book VII, "The Decadence", London 1906, p. 537,

(7) Breasted, J.H., A.R., III, 282 ff.

متبعة في العصور السابقة وحتى نهاية حكم الأسرة العشرين على امتداد المنطقة من الفنتين وحتى نبتة (١) .

ومما يؤكد استمرار السيطرة المصرية طوال عصر الرعامسة ، اننا نلتقي مع اسم رمسيس الرابع منقوشاً في بوهن وجرف حسين Gerf Hussein ، ورمسيس الخامس في بوهن ورمسيس السادس في عنبة وعمارة Amara وكوة Kawa ورمسيس التاسع في عمارة ، ورمسيس العاشر في كوبان وعنبة ، ورمسيس الحادي عشر في بوهن (٢) .

وفي أواخر عهد رمسيس الحادي عشر دخلت مصر مرحلة جديدة أساسها محاولة النهضة بالبلاد وتطهير كافة مرافقها من الحالة التي وصلت إليها . وقد اشار شرني (٣) Cerny إلى ما حدث في العام التاسع عشر من حكم هذا الفرعون ، وأرجع إلى كهنة امون محاولة ما أسماه حرفياً «بتجديد الولادة» . ففى العام التاسع عشر من حكم رمسيس الحادي عشر يوافق العام الأول من عصر النهضة الذي لم يستمر أكثر من تسع سنوات وانتهت بانتهاء الأسرة العشرون التي فقدت في نهاية حكمها املاكها في اسيا؛ بينما احتفظت بنفوذها في بلاد النوبة . حيث تمكن كبار كهنة امون من حسن اختيار حكام النوبة امثال بنحاس pinehas وحريحور Hrihor الذي أسس الأسرة الحادية والعشرين بعد ان تمكن من جمع مختلف السلطات في يديه سواء الدينية أو الادارية أو الحربية ، ثم انتحل فيها بعد الانقلاب الملكية . ومما تجدر الاشارة اليه أن رئيس كهنة امون أصبح حاكماً على النوبة منذ أواخر عصر الأسرة العشرين واثناء عصر الأسرة الحادية والعشرين .

(1) Cerny, J., "Egypt : From the Death of Ramesses III to the End of the Twenty-First Dynasty", (in) C.A.H., Vol. 11, Part 2B, Cambridge, 1975, P. 632.

(2) Cerny, J., Ibid., P. 632.

(3) Cerny, J., "A Note on Repeating of Births", (in) J.E.A. Vol., XV, London, 1929, PP. 194 ff.

هكذا تمكن حكام طيبة من يسط ميطرتهم على النوبة إلى أن ظهرت في النوبة مملكة اتخذت عاصمتها في نبتة ، فأدى ظهورها إلى قلب الأوضاع على المسرح السياسي في تلك المنطقة وكان أمون هو معبود هذه المملكة الرسمية ، وحمل ملوكها نفس الألقاب الفرعونية ، كما شيدوا معابدهم على الطراز المصري .

وأول ما عرفناه من الأسماء في هذه الأسرة آلارا Alara الذي حكم معظم أراضي النوبة العليا ، وربما امتد نفوذه إلى منطقة شندي Shendi عند الجندل الخامس . وتبعه كاشتا Kashta الذي تلقب بملك مصر العليا والسفلى . ولكن لا يوجد من الآثار ما يدل على نشاطه في مصر سوى لوحة أقامها في معبد خنوم في أسوان (١) . ثم تبعه ابنه يعنخي Piankh الذي استطاع تحقيق الحلم وتمكن من دخول مصر متصراً حينما نجح في ائزال الفرقة بأعوان تف نخت في الاشموين ، ثم واصل زحفه إلى منف وأعقب ذلك بزيارته إلى هليوبوليس ، وتمكن بذلك من الوصول إلى عرش مصر وتأسيس الأسرة الخامسة والعشرين .

وبعد أن أرمى دعائم حكم الأسرة النوبية في مصر طيلة ستين عاماً ، عاد يعنخي بعد أن حمل صفته بالفتانم إلى نبتة (٢) حيث سبّل انتصاراته على لوحة جرانيتية في معبد أمون وأظهر نفسه فيه كابن أمون وأنه هزم أعدائه الشماليين (٣) . وقد خلف يعنخي على عرش نبتة شاباكا Shabaka الذي قضى على جيوش بكوريس في مصر ، واتخذ من منف عاصمة له . ثم خلفه نوبى آخر هو شبتاكا Shebitaka الذي ظل على العرش حتى ولاية طهرقا .

(1) Tigger, B.J., Op. Cit., pp. 144—145.

(2) Wilson, J.A., Op. Cit., P. 293. and Breasted, J.H., A.R., IV, 816 ff.

(3) Breasted, J.H., A History of Egypt, Book VII, "The Decadence", London 1906, p. 545. and Breasted, J. H., A.R., IV, 796—883.

ويشير نص في ملوك الثاني ١٩ : ٨ - ٢٥ إلى أن طهرقا قد خرج لمحاربة الاشوريين (١) . واستطاع في بداية الأمر أن يتغلب على الملك الاشوري أسرحدون ويصده عن مصر . ولكن أسرحدون كرر محاولته في مهاجمة مصر عن طريق ميناء ومنها إلى منف التي حاصرها واستول عليها بمن فيها من عائلة طهرقا .

وتشير الألواح (٢) المنقوشة بالمسمارية إلى فتح أسرحدون لمدينة منف في عهد طهرقا «... من مدينة ايشوبري Ishhupri حتى منف مقره الملكي مسيرة خمسة عشر يوماً ، حاربت يوماً دون انقطاع في معارك دموية ضد طهرقا ... ملك مصر وأثيوبيا الملعون من كافة الآلهة العظام . وقد ضربته خمس مرات بسنان صهائي وسببت له جراحاً لا تلتئم ، ثم حاصرت «منف» مقره الملكي ودمرتها وخربت أسوارها وأحرقتها ...» . ويستمر النص في وصف تلك الحملة «... نفيت كل الاثيوبيين من مصر ، لم أترك واحداً منهم يقدم لي فروض الطاعة وعينت في مصر في كل مكان ملوكاً جدد وحكاماً وضباطاً ورؤساء موانئ وموظفين رسميين ...» .

ولكن طهرقا عاد بعد سنوات وتغلب على الحامية الاشورية مما دفع أسرحدون لتكرار محاولته للهجوم على مصر مرة أخرى . ولكنه توفي وخلفه آشور بانيبال الذي تمكن من الاستيلاء على منف مما اضطر طهرقا إلى الهروب إلى طيبة . ولكن العدو الاشوري استطاع أن يستولى على طيبة مما دفع طهرقا إلى الانسحاب جنوباً إلى نبتة .

وقد خلف طهرقا تانوت أماني Taenwat Amani (ابن شبتاكا) في حكم نبتة . فحاول أن يطرد الاشوريين من طيبة ثم من منف إلى أن عاد

(١) ابن جاردنر ، المرجع السابق ، ص ٢٧٦ .

(2) Leo, Oppenheim, A., "Texts from Hammurabi to the Downfall of the Assyrian Empire", (in) A.N.E.T., p. 293.

أشور بانيبال من نينوى وتمكن من هزيمة تانوت أماني . فيفر الأخير إلى طيبة التي استولى عليها الآشوريين . ويصف آشوربانيبال (١) أنه «... غزا طيبة غزواً شاملاً وأنه حمل معه إلى نينوى جزيرة ضخمة...» . ومع ذلك فإنه يبدو أن هذه كانت آخر مرة يظهر فيها في مصر عام ٦٦٣ ق . م . ولم أنه عثر على نص من عهد تانوت أماني «لوحة الحلم» (٢) . ويشير هذا النص إلى رؤيا شاهد الملك فيها شعبانين أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره . وقد فسر الحلم «مصر العليا تتبع لك ، فخذ لنفسك مصر السفلى هنا الصل والعقاب ظهرتا على رأسك ، منحت لك الأرض طولاً وعرضاً وسوف لا ينزعك أحد فيها» (٣) ثم عاد تانوت أماني إلى نيبته . وبخروجه من مصر ، انتهى عصر الحكم النوبي نهائياً من البلاد .

ويتضح من بحث موضوع العلاقات المصرية النوبية من الناحية السياسية أثناء العصر التاريخي أن المصريين القداماء اعتبروا الجندل الثاني بمثابة الحدود الجنوبية الطبيعية لمصر القديمة ، كما أنهم اعتبروا بلاد النوبة السفلى فيما بين الجندل الأول والثاني بمثابة منطقة نفوذ لهم منذ أقدم العصور . ومن أجل ذلك ، فإنهم دأبوا على استغلال مناجمها وتجنيد أبنائها وإرسال البعثات الاستكشافية إليها بين الحين والآخر . ولقد كان هناك عاملان مهمان أحدهما اقتصادي والآخر سياسي ، دفعا بمصر الفرعونية إلى الاهتمام بتلك المناطق إلى البحث عن المواد الخام والمعادن وخاصة الذهب في بلاد النوبة . ومما يزيد أهمية النوبة عند المصريين ، أنها كانت الطريق الوحيد لأقاليم السودان الجنوبية الغنية التي كانت تصدر لمصر الذهب وريش النعام وخشب الأبنوس وجلود النمر وسن القبل . ومن أجل ذلك اتجه فراعنة مصر منذ

(1) Leo Oppenheim, A., Ibid., p. 295.

(2) Breasted, J.H., A History of Egypt, Book VII, "The Decadence", London 1906, p. 558.

(3) Breasted, J.H., A.R., IV, 922.

عصر الاسرات المبكر إلى السيطرة على طرق القوافل التجارية والقضاء على العناصر المغيبة التي كانت تنصلي لتلك القوافل .

أما من ناحية العوامل السياسية للاهتمام ببلاد النوبة ، فيتضح من تصدى الحكام المصريين لكل من كانت تسول له نفسه للوقوف في وجه النفوذ المصري آنذاك . ولم يكن ذلك في الواقع لمجرد استعراض القوة المصرية العسكرية بل كان هدفه الخوف الدائم على حدود مصر الجنوبية . ولا سيما أن المصريين كانوا يستشعرون الخطر من ناحية بعض القبائل النوبية . ولقد صبح ما توقعته الذرائع الحاكمة في مصر من ناحية تلك القبائل . فقد انتهزت الفرصة التي سنحت لها أثناء عصر الانتقال الأول في مصر وتمكنت من أن تكون لنفسها نقط ارتكاز هددت منها بلاد النوبة السفلى وحدود مصر الجنوبية بعد أن استقلت وكونت دولة كوش . لذلك كان لزاماً على ملوك الدولة الوسطى أن يدعموا النفوذ المصري السياسي في النوبة مما استدعى استيلائهم على كرما . ولم يكتف المصريون بذلك ، بل أنهم نجحوا في تمصير النوبة السفلى والعليا عندما بدأ أحسن الأول تأسيس الامبراطورية المصرية ، وعينوا نائباً عن الملك يتولى شئون تلك المناطق . واستمرت بلاد النوبة بإقليمها تابعة لمصر ، إلى أن ظهرت أسرة نوبية جديدة انتهزت فرصة التفكك الداخلي في مصر ، وتمكنت من السيطرة على بلاد النوبة أولاً ثم نجح أحد حكامها بعضي من دخول مصر وتنصيب نفسه ملكاً عليها مؤملاً بذلك الأسرة الخامسة والعشرين المصرية . ولكن الحرب الاشورية على مصر أدت إلى خروج تلك الأسرة في نهاية المطاف من مصر عندما هزم تانوت أماني ورجع إلى نبتة عاصمته الجنوبية .

- A.N.E.T = Pritchard, J.B., Ancient Near Eastern Texts, Relating to the Old Testament, Third Edition With Supplément, Princeton, 1969.
- Breasted, A.R. = Breasted, J.H., Ancient Records of Egypt, 4 Vols. Chicago, 1906.
- C.A.H., = The Cambridge Ancient History, Third Edition, Volume I Part 2A and 2B, Early History of the Middle East. Cambridge, 1971.
- The Cambridge Ancient History, Third Edition, Volume II Part 1, History of the Middle East and the Aegean Region C. 1800—1380 B.C. Cambridge, 1973.
- The Cambridge Ancient History, Third Edition, Volume II part 2A and 2B, History of the Middle East and the Aegean Region C., 1380—1000 B.C. Cambridge, 1975.
- J.E.A. = The Journal of Egyptian Archaeology, London 1914
- J.N.E.S. = Journal of Near Eastern Studies, Chicago, 1948.
- J.A.E. = The Literature of the Ancient Egyptians, London, 1927, A Translation into English by Blackman, A.M. of Erman's die Literature der Aegypter, Leipzig, 1923.

(ب) مراجع عربية

عبد المنعم أبو بكر وآخرون ، بلاد النوبة

(ج) مراجع مترجمة إلى اللغة العربية

الن جار دنر : مصر القراعنة ، ترجمة نجيب ميخائيل ابراهيم

ومراجعة عبد المنعم أبو بكر ، الاسكندرية ١٩٧٣ .

وولتر امرى : مصر وبلاد النوبة ، ترجمة تحفة حنلومه ، ومراجعة

عبد المنعم أبو بكر ، القاهرة ١٩٧٠ .

(د) مراجع انبييه

4. Arkell, A.J., "Varia Sudanica", (in) J.E.A., London 1950.
5. Breasted, J.H., A History of the Ancient Egyptians, The Historical Series for Bible Students, Vol. V.
6. ———, A History of Egypt From the Earliest Times to the presian Conquest, London, 1906.
7. ———, Ancient Records of Egypt, 4 Vols. Chicago, 1906.
8. (erny, J. "A Note on Repeating of Births,(in) J.E.A. Vol.XV, London, 1929.
9. ———, "Egypt : From the Death of Ramesses 111' to the End of Twenty- First Dynasty" (in) C.A.H., Vol. 11, Part 2B, Cambridge, 1975.
10. Drower, M.S., "Syria C. 1500—1400 B.C." (in) C.A.H. Vol. 11, Part 1. Cambridge, 1973.
11. Edwards, I.E.S., "The Early Dynastic Period in Egypt", (in) C.A.H. Vol. 1, Part 2A, Cambridge 1971.
12. Emery, W.B., "A Masterpiece of Egyptian Military Architecture of 3900 Years ago : the Great Castle of Buhen in the Sudan", (in) Illustrated London News, Vol. 235, no. 6267 (12 September, 1959).
13. Faulkner, R.O., "Egypt : From the Inception of the Nineteenth Dynasty to the Death of Ramesses 111'", (in) C.A.H., Vol. 11, Part 2 A, Cambridge, 1975.
14. Cardiner, A., Ancient Egyptian Onomastica, Vol. 1, Oxford University Press, 1947.
15. ———, Egyptian Grammar, Being An Introduction to the Study of Hieroglyphs, london, 1969.
16. ———, "New Literary Works From Ancient Egypt, Petersburg 1116B, Recto", (in) J.E.A., 1, London, 1914.

17. Golénischeff, W., *Les Papyrus Hiéroglyphiques* nos. 1115, 1116 A, et 1116 B de l'Ermitage Impérial à St. Pétersbourg (St. Petersburg, 1913).
18. Gunn, B., and Gardiner, A. H., *New Renderings of Egyptian Texts "The Expulsion of the Hyksos"*, (in) J.E.A., Vol. V, London, 1918.
19. Hayes, W.C., "Egypt : From the Death of Ammenemes III to Seqenenre III", (in) C.A.H., Vol. 11, Part 1, Cambridge, 1973.
20. ———, *Egypt : Internal Affairs From Tuthmosis I to the Death of Amenophis III*", (in) C.A.H., Vol 11, Part 1, Cambridge, 1973.
21. ———, "The Middle Kingdom in Egypt, Internal History From the Rise of the Heracleopolitans to the Death of Ammenemes III" (in) C.A.H., Vol. 1, Part 2A, Cambridge, 1971.
22. James, T.G.H., "Egypt : From the Expulsion of the Hyksos to Amenophis I", (in) C.A.H. Vol. 11, Part 1, Cambridge, 1973.
23. Leo Oppenheim, A., "Texts From Hammurabi to the Downfall of the Assyrian Empire", (in) A.N.E.T., Princeton, 1969.
24. Lutz, H.F., *Egyptian Tomb Stelae and Offering Stones of the Museum of Anthropology and Ethnology of the University of California* (University of California Publications Egyptian Archaeology. Vol. IV) Leipzig, 1927.
25. Porter, B., and Moss, R.L.B., *Nubia, the Deserts and Outside Egypt* (in) *Topographical bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts, Reliefs and Paintings*, 7, Oxford, 1951.
26. Quibell, J.E., and Green, F.W., *Hierakonpolis, Part 2* (E.R.A. 5th Memoir) London, 1902.

27. Reisner, G.A., *Excavations at Kerma* (Harvard African Studies, Vol. V, and Vol. VI, Cambridge Mass, 1923.
28. Smith, G.E., and Jones, F.W., *The Archaeological Survey of Nubia* (Report for 1907 —1908) Vol. 11, Report on the Human Remains, Cairo, 1910.
- 29., ——— "The Old Kingdom in Egypt and the Beginning of the First Intermediate Period", (in) C.AH., Vol. 1, Part 2 A, Cambridge, 1971.
30. Tigger, B.J., *Nubia Under the Pharaohs*, Great Britain, 1976.
31. Vercoutter, J. "New Egyptian Texts From the Sudan", (in) *Kush*, 4, 1956.
32. ——— "Upper Egyptian Settlers in Middle Kingdom Nubia", (in) *Kush*, 5, 1957.
33. Wilson, J.A., "Asiatic Campaigns Under Pepi 1," (in) A.N.E.T.
34. ———, "From Amen. Hotep III's Building Inscription", (in) A.N.E.T.
35. ——— "The Amada and Elephantine Stelae", (in) A.N.E.T.
36. ———, "The Expulsion of the Hyksos", (in) A.N.E.T.
35. ———, "The Hymn of victory of Thut-mose III, (in) A.N.E.T.
37. ———, "The Prophecy of Neferti", (in) A.N.E.T.
83. ———, "The War Against the Hyksos" (in) A.N.E.T., Third Edition with Supplement, Princeton, 1969.
39. ———, *The Culture of Ancient Egypt*, U.S.A., 1975.

الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينيس

(١٠٦٨ - ١٠٧١ م)

في ضوء حولة ميخائيل بسلوس

دكتور محمود سعيد عمران

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

موضوع هذا البحث هو الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس Romanus IV Diogenes (١٠٦٨ - ١٠٧١ م) في ضوء حولة ميخائيل بسلوس Michael Psellus. والبحث في هذا الموضوع له أهداف متعددة، منها التعمق في مصدر من مصادر الدولة البيزنطية أثناء حكم الامبراطور رومانوس، خاصة أن ميخائيل بسلوس (١٠١٨ - ١٠٧٨ م) كان معاصراً وشاهد عيان، كما أنه شغل عدة مناصب عليا أهله للتعرف على الأحداث عن قرب. ومنها أيضاً دراسة عصر رومانوس داخلياً وخارجياً، فمن الناحية الداخلية كان هناك الصراع على العرش بين العسكريين والمدنيين في وقت كانت تمر فيه الامبراطورية بفترة من الضعف، وما ترتب على ذلك من نتائج. ومن الناحية الخارجية كان لنصرع الداخلي أثره في زيادة أطماع الدول المحيطة بالامبراطورية خاصة في الشرق والغرب. ففي الشرق نجد الاتراك السلاجقة وتقدمهم في شرق آسيا الصغرى وحملات رومانوس المتكررة لوقف غاراتهم وتقدمهم. وفي الغرب نجد النورمان في صقلية وجنوب ايطاليا وأطاعهم في الممتلكات البيزنطية، ومن أهداف هذا البحث أيضاً تقديم دراسة باللغة العربية في مجال الدراسات البيزنطية في وقت ندرت فيه تلك الدراسات في عالمنا العربي.

وخطه الباحث في هذه الدراسة تنحصر في تعريف ما سجله بسلوس في
 حويلته المنشورة باللغة الإنجليزية (١) ، ثم التعليق على المادة التاريخية
 في الحواشي عندما يجب التعليق عليها حتى تصبح المادة التاريخية مفهومة
 للقارئ. وفي نهاية البحث يقدم الباحث خاتمة يذكر فيها أهم الأحداث التي
 وقعت في عصر رومانوس ولم يسجلها بسلوس في حويلته . ولما كان التعليق
 في "مطر أو أك" على ما قدمه بسلوس من مادة تاريخية غير كاف في بعض
 النقاط ، فقد أفرد الباحث ثلاثة ملاحق في نهاية البحث ، إما لتحقيق جانب
 من جوانب المادة التاريخية ، أو لايضاح حادثة لم يوفها بسلوس حقها
 من الكتابة أو اللاتين معاً . ولما كان حكم الامبراطورة يودكيا Eudocia
 كوصية على ولدها القاصر ميخائيل وقسطنطين Constantine
 (١٠٦٧م) مقدمة لحكم رومانوس الرابع ، فقد وجد الباحث أن يبدأ مع حكم
 يودكيا حتى يتضح الموقف بجلاء .

والله ولي التوفيق ، ،

عمود سعيد عمران

اسكندرية في يوليو ١٩٨٠

Psellus, Michael, *Chronographia*, tr. Sewter, London, 1953.

وهي النسخة التي رجع إليها الباحث . وهناك طبعة أخرى باللغة الفرنسية نشرت في جزئين
 في باريس ١٩٢٦ .

يود كيا ١٠٦٧ م ، رومانوس الرابع ١٠٦٨ - ١٠٧١ م

يود كيا تصبح حاكمة على الامبراطورية مع والديها ميخائيل وقسطنطين

١ - عندما خلفت الامبراطورة يود كيا زوجها (١) بعد وفاته حسب رغبة ، فانها لم تقم بتسليم الحكم إلى آخرين (٢) . لقد نأت بنفسها عن قضاء معظم حياتها عاطلة في القصر بينما يقوم رجال الدولة بتسيير دفة الحكم . كما كان سلوكها في البداية يتسم بالتواضع ولم تسرف في استخدام المواكب الامبراطورية أو في زينا . لقد تحملت المسئولية بكل وعى ، وشاركت في كل اجراءات الحكم بصورة عملية كلما أمكنها ذلك ، فكانت تختار رجال الحكم ، وتنظر في الشئون العامة والايرادات والضرائب ، وانسمت عباراتها بنبرات القوّة التي يجدها المرء في أى إمبراطور . ولم يكن هذا يدعو للدهشة لأنها في الحقيقة كانت امرأة ذات كفاءة عالية . وقد شاركتها في الحكم ولداها (٣) وكل منهما يعرف قدر نفسه وقد سيطر عليها الخوف والاجلال لأُمّها .

٢ - وليس من المستغرب أن يحترمها ابنها قسطنطين ، وهو لا يزال طفلا غير قادر على فهم شئون الدولة ، ولا يستطيع ميخائيل بسلوس أن يثنى عليه لتواضعه الطبيعي . أما الابن الثانى ميخائيل فكان له وضع آخر ، فقد

(١) هو قسطنطين العاشر دو كاس ١٠٥٩ - ١٠٦٧ م .

(٢) ينطبق ذلك على الرسالة اللاحقة لوفاة زوجها فقط في عام ١٠٦٧ م أما بعد زواجها من رومانوس الرابع فقد أصبح الأخير إمبراطورا ويده كل السلطات .

(٣) هما ميخائيل وقسطنطين أنظر الموضوع رقم (٢) .

تجاوز مرحلة الصبا وأصبح قادراً على فهم شؤونه (١) ، وأثبتت المواقف التي شاهدها ميخائيل بسلوس نضوج عقله بدرجة واضحة . ومن الصعب أن نقارن بين دوافع الفتى الطبيعية والطريقة التي سلك بها مقاليد الحكم لأمه ، ويرى بسلوس عدم الثناء على الفتى في هذا الصدد .

ويقول بسلوس انه كثيراً ما شاهد الفتى ميخائيل في مناسبات عديدة وهو صامت في حضرة أمه كما لو كان عاجزاً عن الكلام ، رغم أنه كان بوسعه الحديث . وكان الفتى يملك القدرة على القيام بأي عمل يطلب منه ، إلا أنه لم يسهم في الأمور التي تتعلق بشئون الامبراطورية .

٣ - وليس من الصواب القول بأن يودكيا أم ميخائيل كانت تحضره وتزمره في بداية حكمها . والحق أنها كانت تقوم بتدريبه بنفسها لبصبح امبراطور المستقبل . كما سمحت له فيما بعد بتعيين رجال الدولة وشجعته على أن يعمل قاضياً . وكثيراً ما كانت تعبر عن حبها له وتغمره بقبلاتها . وأحياناً كانت تثني عليه وتعبر عن فخرها بعلمه . وكانت يودكيا تهتم بمسلك ابنها ميخائيل وتعهده لمختلف الواجبات التي يتعين أن ينهض بها الامبراطور . وكثيراً ما كانت يودكيا تعهد بابنها ميخائيل إلى بسلوس وتطلب منه أن يعلمه أصول وظيفته وأن يسدى النصيح اليه . واعتاد ميخائيل أن يجلس على العرش الامبراطوري إلى جانب شقيقه قسطنطين ، لأن ميخائيل كان كريم الطباع بالفطرة ، ولم يعزم أن يحتفظ لنفسه بالسلطة كاملة . والحقيقة انه كان يسمح لشقيقه أن يشاركه في واجباته كإمبراطور . وهكذا سارت الامور في تلك الأوقات، وكان عليها أن تبقى حتى النهاية دون تغيير

(١) انجبت يودكيا من زوجها قسطنطين العاشر ثلاث أولاد هم ميخائيل المعروف بالسابع (١٠٧١ - ١٠٧٨ م) ، وأندرونيقوس وقسطنطين وثلاث بنات هن أنا وثيردورا وزوى . أنظر C.M.H.VI, p, 393 . وقد توفي أندرونيقوس أثناء حكم أبيه .

Psellus, op. cit., p. 260. رابع

وكان ميخائيل في الرابعة عشر من عمره عند وفاة والده عام ١٠٦٧م أنظر مايل ص ٢٠

ما لم يتدخل القدر القاسى بضرباته . (١)

٤ - فى هذه المرحلة من الحولية بود بسلوس أن يروى شيئاً عن الامبراطورة يودكيا . بقول بسلوس : حتى هذه المرحلة لا أعرف امرأة أخرى تضاهيها فى الحكمة أو عاشت مثل حياتها . ولا يعضى بسلوس إلى أبعد من ذلك ولكنه يذكر أنها لم تصبح أقل حكمة بعد هذه المرحلة وإنما صارت أقل اهتماماً . لقد أخذت أفكارها تتغير بتقدمها فى العمل . ويدافع بسلوس نيابة عنها ويذكر لو كان هناك بعض التغيير فى تصرفاتها فأنها لم تعد عبداً للذات ولم تستسلم للانفعالات الماجنة . والواقع أنها كانت قلقة على ولديها ميخائيل وقسطنطين . وكانت تخشى أن يحرما من التاج إذا لم يقم شخص بمجاوبتهما وإرشادهما . ولم تكن الحياة فى القصر تروق للامبراطورة يودكيا . وتبرهن الحادثة التالية على ذلك . لقد كان بسلوس أخاً روحياً لوالد يودكيا ، (٢) وكانت تكن له احتراماً فائقاً وتنظر إليه كشيء مقدس . لقد حدث أن كان بسلوس معها ذات مرة فى إحدى الكنائس المقلّمة ، وشاهد عثم إيمانها بالله ، ومدى إخلاصها للسيد المسيح ، فتأثر ودعا لها من كل قلبه أن تتمتع بالحلطة مدى حياتها . ولكن يودكيا استدارت وعنفته على ذلك وقالت «ان هذا الدعاء لعنة ، اننى لا أتمنى أن يكتب لى أن أتمتع بالحلطة طويلاً ، وان أموت امبراطورة . » ولقد ملأت هذه الكلمات قلب بسلوس بالخوف والرهبة واعتبرها أسمى من أن تكون بشراً .

(١) يقصد أنقرخ هذه العبارة زواج يودكيا من رومانوس ديوجينيس وسيطرته على العرش ، وسيطرة الحرب العسكرية على الحكم . أنظر .

Vasiliev, A., History of Byzantine Empire, Madison, 1928, I, p. 427.

(٢) واند يودكيا هو قسطنطين دالاسينوس Dalassenus وقد أشار إليه بسلوس فى حديثه عن قسطنطين العاشر وذكر أن دالاسينوس كانت له شهرته فى المجال الشاق . أنظر Paelus, op. cit., p. 255

٥ - على أية حال فالإنسان كائن غير ثابت وغير مستقر خصوصاً عندما تقدم له الظروف الخارجية سبباً للتغيير . لقد كانت هذه الامبراطورة امرأة ذات خلق رفيع وروح نبيلة ، ولكن قوة مستشاريها الحكماء اهتزت من قوة الأحداث التي اندفعت واصطدمت بها ، واغرقت بأن تزوج للمرة الثانية (١) . وكان هناك بعض الناس يعرفون ما يجري ولكنهم قالوا : أن للتدبير بدأ في الأمر ، كما أن يودكيا لم تنوّه بنواياها إلى بسلوس ، ولا شك أنها فعلت ذلك بدافع الحجل . لقد أرادت أن تتحاشى ذكر اسم الزوج المنتظر وأن تضع في الوقت نفسه حداً للشائعات التي راجت حول شخصيته . ومن ناحية أخرى أرادت يودكيا أن تعرف بسلوس بخطتها . وعلى ذلك زار أحد مستشاري الامبراطورة الأشرار بسلوس وأوعز اليه أن يتحدث مع الامبراطورة صراحة في موضوع الزواج ويقترح عليها أن تضع على العرش أحد النبلاء . وكانت اجابة بسلوس موجزة ، فقد قال انه لن يقدم مثل هذه النصيحة ولن يحاول اقناعها بالحجة ولن يلجأ إلى أى وسيلة حتى

(١) يود المذبح أن يوضح لنا في هذا الموضع أن يودكيا تزوجت من رومانوس رغماً عنها وأن الظروف التي أحاطت بها كانت أقوى منها . وهناك رواية أخرى حول زواج يودكيا توضح لنا أنها كانت مهتمة بصلة خاصة بموقف البطريق البيزنطي يوحنا اكسيفيلينوس John Xiphilinus (١٠٦٣ - ١٠٧٥ م) الذي كان مصراً على أن تظل يودكيا دون زواج وفاء للقسم الذي أقسمته لزواجها الراحل . ولكن تحصل على موافقة البطريق وتزوج من رومانوس تأمرت مع أحد خصيان انقصر الذي اقترح على البطريق زواج أخيه بارحاس Bardas من الامبراطورة . وقد عرض البطريق على مجلس الشيوخ فكرة زواج أخيه دون الخلع ، ولما كان بارداس غير ملائم لهذا المراكز فقد وافق المجلس في النهاية على زواجها من رومانوس . انظر

Finlay, History of Greece, Oxford 1877, III, pp. 24-5.

ويجمل الباحث إلى الأخط بأن يودكيا كانت رغبة في الزواج من رومانوس ولم تجبر على ذلك . ويضيف ذلك أقوال يودكيا التي أوردها بسلوس . انظر مايل ص ٧ .

٦ - وحوالى ذلك الوقت انتشرت شائعات وصلت إلى مسامع البلاط ، لقد اختارت يودكيا امبراطور المستقبل . وطبقاً للترتيبات التي أعدها كان هذا هو اليوم المحدد لوصول الامبراطور المنتظر إلى المدينة . وفي الصباح التالي تقام مراسم التتويج . وفي أمسية اليوم نفسه استدعت يودكيا بسلامس ، وعندما أصبحا بمفردهما تحدثت يودكيا إلى بسلامس وقد امتلأت عينها بالدموع وقالت ، يجب أن تترك لدى ضياع هبة الامبراطورية ، والحاجة إلى الأموال بسبب الحروب التي تنشب باستمرار ، وجحافل البرابرة الذين يهبون الشرق كله (٢) ، كيف يتسنى للامبراطورية أن تنجو من الكارثة ؟ وليس لدى معرفة بالأحداث التي جرت ، وإن الامبراطور المرشح يقف على أبواب القصر . وقد أجاب بسلامس بأن المسألة ليست من السهولة بحيث يبت فيها على الفور ، وأضاف أن هذا الموضوع يتطلب التفكير الجدى ، وعلى حد قول المثل المعروف ، من الأفضل أن نقترح اليوم وأن نستمع غداً ، ولكن يودكيا واصلت حديثها ضاحكة وقالت ، لا فائدة في التفكير الآن ، لقد بت في الأمر من قبل وتم اتخاذ القرار . لقد طلب إلى رومانوس بن ديوجينيس أن يحكم كإمبراطور ، وفضله على الآخرين (٣)

(١) كان بسلامس يشغل منصب رئيس الوزراء ويمثل الاستقراطية المدنية كما كان رومانوس يمثل الاستقراطية العسكرية ولذلك كان بسلامس يصل بكل جهده حتى لا يصل رومانوس إلى السلطة لأن ذلك يعنى ضياع نفوذ بسلامس وحزبه .

(٢) المقصود بالبرابرة في هذا الموضع الأتراك السلاجقة الذين سيطروا على الخلافة العباسية وبدأوا يتقدمون في آسيا الصغرى واستولوا على مدينة أني Ani عام ١٠٦٥م وخرابوا قيصرية في عام ١٠٦٧م أنظر :

Ostrogorsky, History of Byzantine State, Oxford, 1956, p. 303.

(٣) توضح هذه العبارة أن يودكيا كانت راغبة في الزواج من رومانوس ولم تيجر على قبوله ، وهذا يخالف الحالة التي سجلها المؤرخ من قبل ، أنظر ماسبق ص ٦ .

٧ - لقد أصابت هذه الكلمات بسلوس بالرعب على الفور ، ولم يستطع أن يتصور ما سيحدث له (١) . فقال : حسنا ، سوف أدلي برأى في هذا الموضوع غداً ؟ فأجابت يودكيا ، ليس غدا بل الآن وعليك أن تؤيدني وتعضدني . فأمسك بسلوس بزمام المبادرة وطرح سؤالاً واحداً ، وقال ليودكيا : هل يعرف ولدك الامبراطور الذي يفترض أنه سوف يحكم الامبراطورية ذات يوم بمفرده بما حدث . فأجابت يودكيا : انه يعرف طرفاً من الموضوع وليس لديه كل التفاصيل بعد . وأضافت : على أية حال فاني مسرورة لذكرك ولدي ، ولنذهب اليه ونشرح له كيف تسير الأمور ، انه ينام في أحد الأجنحة الامبراطورية .

٨ - ذهب بسلوس ويودكيا إلى الفتى ، ولم يكن بسلوس يعرف مدى شعورها ، ولكنه كان ثائراً للغاية ، ولذلك سرت في جسده رغبة مفاجئة بدأت من قمة رأسه حتى أخصى قدميه . وجلست يودكيا على سرير ولدها ونادته : يا امبراطوري ويا ولدي المفضل ، انهض واستقبل زوج أمك ، ورغم أنه سيحتل مكان والدك فانه سيظل من الرعايا وليس امبراطوراً ، أنا أمك وقد ألزمتك كتابة بأن يراعى هذا التعهد (٢) . ونهض الفتى من مخدعه في الحال ونظر إلى بسلوس نظرة مريبة ولم يكن لدى الأخير أية فكرة عما يفكر فيه الفتى الذي غادر الغرفة التي كان ينام فيها مع أمه ومشى حتى قابل الامبراطور الجديد وجهاً لوجه دون أى انفعال ، فقد كان وجهه جامداً التعبير تماماً ثم احتضن رومانوس وأصبح شريكاً له في العرش وصديقاً .

(١) توضح هذه الجملة خوف بسلوس على مركزه إذا أصبح رومانوس امبراطوراً ، وتسلط الاستقراطية العسكرية على الحكم .

(٢) إذا كانت يودكيا قد حشنت بالقسم الذي أقسمت بهدم الزواج بعد زوجها تسطنطين العاشر ، فكيف تضمن أن يظل رومانوس محافظاً على عهده بعد ما يصبح امبراطوراً ؟ . لقد استحوذ رومانوس على السلطة وعامل يودكيا معاملة سيئة . أنظر مايل ص ١٠ .

٩ - عندئذ حضر القيصر (١) ، ولم تظهر مهارته الدبلوماسية في صورة أروع مما بدت عليه في ذلك اليوم . لقد أجرى القيصر بعض الاستفسارات عن ابن أخيه الامبراطور ، ثم أضاف كلمات قليلة مثناً على رومانوس ، وتلى ذلك تقبل التهاني من الحاشية والأمرسة الامبراطورية . وكان بوسع المرء أن يسمع رومانوس وهو يغني أنشودة الزفاف ، ويراه يشرب نخب المناسبة ، وهكذا آل حكم الامبراطورية إلى يدي الملك رومانوس (٢) .

حكم رومانوس ديوجينس

١٠ - كان الامبراطور رومانوس بن ديوجينس سليل أسرة قديمة ومعروفة ، ولكن ذلك كان من جانب واحد ، فقد كان والده مجرمًا وألقى القبض عليه بتهمة التمرد خلال حكم رومانوس أرجيروس Romanus Argyrus. (٣) ، وقد انتحر ديوجينس بأن ألقى بنفسه في جرف . ورغم هذا فقد كانت هناك مناسبات ظهر فيها بأنه مستقيم ولكنه كان مرائياً ومتبعجاً في معظم حياته . أما رومانوس الابن فلم يخل من الخيانة في ذاك الوقت ، وقد مرت كل الحيل والمكائد التي حاكها خلال حياته دون أن يفطن إليها أحد إلى أن أصبحت يودكيا امبراطورة . ولقد وصفت هذه السيدة في الصفحات السابقة . ولم يفصح رومانوس عن نواياه السرية حتى

(١) هو جون دوكانس إكسمططين العاشر . أنظر .

Ostrogorsky, op. cit., p. 304.

(٢) حكم رومانوس من ١ يناير ١٠٦٨م أنظر C.M.H. IV, p. 1, p. 209

وظل حكمه حتى ١٦ أغسطس ١٠٧١م . راجع مايلي ص ١٦ .

(٣) يعرف برومانوس الثالث أرجيروس وحكم من ١٠٢٨ - ١٠٣٤م ، وقد ذكر المؤرخ أن عدة ثورات قامت ضد رومانوس أرجيروس ولكنه لم يذكر ديوجينس بالاسم . أنظر Psellus, op. cit., p. 51.

تولت يودكيا العرش . لقد اعتقل رومانوس عندما تولت يودكيا السلطة (١) ، وكانت جرأته وجسارته تعرضه للخطر لولا عطف الامبراطورة ورخصتها التي أنقذته من العقاب . وكان هذا حكماً خاطئاً من جانبها ، وكان الواجب أن تحكم عليه بالموت ، ولكنها أنقذت غنقه بدلاً من ذلك (٢) . وبعد أن فعلت ذلك اعتقدت أن سيادتها ستأكد وتتدعم إذا نصبته امبراطوراً . وكان يجب أن يكون عند حسن ظنها ولا يعارض رغباتها ، وكان هذا هو التوقع المعتول ، ولكن خططها باءت بالفشل . فبعد أن تظاهر لبضعة أيام بأنه من رعاياها المخلصين ، عاد إلى سيرته الأولى . وكلما حاولت السيطرة عليه وعاملته كأنه سيدها - مثل الليث في القفص - ثار على نفوذها الذي يقيد وعض اليد التي تمسكه . وفي بداية الأمر كان يثور داخلياً ويمرر الوقت أصبح احتقاره للامبراطورة واضحاً للجميع .

١١ - يقول بيلوس : يجب على أن أعترف أن موقف رومانوس منه شخصياً كان ينهم بالتوقير والاحترام . والحقيقة أن رومانوس عندما كان مواطناً عادياً كان يلتصق رضا بيلوس بكل خضوع ومذلة ، وقد ساعده الأخير في حياته . وعندما اعتلى رومانوس العرش لم ينس خدمات بيلوس وفضله ، وأظهر له الحب والاحترام حتى انه كان ينهض عندما يمثل بيلوس أمامه ويعامله كأعظم صديق له . ويضيف بيلوس قائلاً : على أية حال ان ما ذكرته كان استطراداً وخارج عن المحور العام للموضوع (٣) . ولكن المهم أن رومانوس كان يرغب في الانفراد بالحكم ولا يشاركه في العرش أحد . ولسوء الحظ أن رومانوس لم يسهم اسهاماً كبيراً في الشؤون العامة

(١) تولت العرش في ٢١ مايو ١٠٦٧م وهو تاريخ وفاة زوجها . أنظر : Ostrogorsky, op. cit., p. 304. وظلت حتى ٣١ ديسمبر من العام نفسه وتزوجت في أول يناير ١٠٦٨ من رومانوس ديوجينيس .

(٢) اتهم رومانوس بالأنار على عرش الامبراطور القاصر ميخائيل بن يودكيا . أنظر : Finlay, op. cit., III, p. 24.

(٣) تفيد هذه العبارة أن المؤرخ يس ما يكتب وأنه خرج عن محور موضوعية .

للإمبراطورية أثناء الفترة التي سبقت توليه العرش (١) ، وعلى الرغم من ذلك فقد انتظر الفرصة بفارغ الصبر . هذا ، ويرجع إعلانه الحرب ضد الفرس (٢) إلى طموحه الشخصي أكثر من رغبته في تأمين أقاليم الإمبراطورية .

١٢ - كان من عادة بسلوس أن يسدى النصائح المفيدة إلى الإباطرة ولهذا حاول كبيج جاح رومانوس وأشار إلى ضرورة مناقشة مسألة القوات العسكرية واعداد قواتهم بالجند ، والتحالف مع قوى خارجية ، وبعد اكتمال كل الاستعدادات يعلن الإمبراطور الحرب . ولكن الثرائيين الذين اعتادوا معارضة بسلوس - مع استثناء بعضهم - جلبوا الخراب على الإمبراطورية . لقد عارضوا رأي بسلوس واستمروا في المعارضة (٣) . ولهذا سادت أسوأ الآراء . لقد استعد الإمبراطور للحرب في القصر وأمسك بدرع في يده اليسرى ويرمحه في اليمنى ، مقوى بحلقات ، ويبلغ طوله اثنين وعشرين ذراعاً (٤) . واعتقد رومانوس أنه يستطيع بدرعه أن يمنع غارات العدو ، وبرمحه إصابة جناح جيش العدو . وأطلقت حاشية الإمبراطور صرخات الحرب وصفقوا وهللوا لذلك . وبدأ على وجه بسلوس مات القلق لأنه أحس بالعواقب المحتملة .

(١) واقع الامر غير ذلك ، فالمعروف أن رومانوس كان رجلاً له شهرته العسكرية وأنه تمكن من صد حملة البجانيكية ضد الإمبراطورية وبعدها أصبح له مكانته العسكرية التي مكنته من الدخول في الحزب العسكري . أنظر . Ostrogorsky, op. cit., p. 304.

(٢) المقصود بالفرس الاتراك السلاجقة وقد اعتاد المؤرخ هذه التسمية أو كلمة البرابرة.

(٣) المقصود بالمعارضة الحزب العسكري الذي يساند الإمبراطور رومانوس .

(٤) يشبه المؤرخ بسلوس الإمبراطور رومانوس بأياس Aias بطل الآخيين في مواجهة البطل الطروادى هيكتور Hector أنظر :

Homer, Iliad, London, 1963, XV, 678.

١٣ - على أية حال ، خرج رومانوس من المدينة على رأس جيشه وتقدم نحو البرابرة (١) دون أن يدري أين يسير أو ماذا يفعل وأخذ يتجول في البلاد على غير هدى فهو يخطط للسير في طريق ويسير في طريق آخر ، فقد دخل الشام وفارس . (٢) وكل ما حققه من نجاح هو اختراقه لهذه الأراضي ووضع قواته على بعض التلال المرتفعة ثم انزال القوات مرة أخرى والمروور في ممرات ضيقة . وقد عانى من كوارث جسيمة نتيجة تصرفه ، انه لم يأت بغنائم حرب من الميديين (٣) أو الفرس . ان شياً واحداً قد أقتنع به الامبراطور ، ذلك أنه سار ضد أعدائه .

١٤ - وهنا يكمن أول مبرر لرومانوس للزهو والخيلاء ، فنذ ذاك الوقت أخذ يبدي ازدهاره الكامل للامبراطورة ، ويحتقر موظفي الدولة ، ويرفض الاستماع إلى أى نصيحة . وهذا داء الأباطرة ولا دواء له . ولم يعد يعتمد على أى ناصح أو مستشار ولم يسترشد برأى أحد سوى رأيه الشخصي في كل الظروف دون استثناء . أما بالنسبة لبلوس فانه يقسم بالله الذي تجله الفلاسفة انه حاول رده عن مطامحه . ويضيف بلوس أنه كان يعرف خطئه المخادعة ، وكان يخاف على الامبراطورة والدولة من أن تفقد كل شيء ، في تمرد أو اضطراب . ولقد ذكر بلوس الامبراطور بتعهداته الموقرة ، وحاول كلما أمكن أن يخيفه باحتمال الاخفاق في نهاية الأمر ، وأن خطئه ربما تنقلب شراً وبيلاً عليه . وعندما أبدت يودكيا استيائها من اهاناته - كما كان يحدث كثيراً - واشتكت إلى بلوس ، حاول الإصلاح والتوفيق بينهما .

(١) القصور بالبرابرة عند الملون .

(٢) وقعت أحداث هذه الحملة في العشرين من نوفمبر ١٠٩٨ م ، وقد استولت القوات البيزنطية على مدينة منج ودمجت السلاجقة مدينة عمورية . أنظر الملحق رقم (١) .

(٣) يقصد القزح المراد سيون في حلب . أنظر ابن العديم . زبدة الحلب دمشق ١٩٥٤ ص ٢٢ وما بعدها .

١٥ - وفي بداية الربيع ، أى بعد فترة ليست بطويلة (١) ، أخذ العدو يشير المتاعب وتبين أن حملة الامبراطور السابقة قد حققت نصراً أجوفاً . ولهذا تجددت الاستعدادات لغرض الحرب ، ويقول ببلوس اننى سوفأ أتجاوز عن بعض الأحداث التى وقعت ، واننى شاركت بدور متواضع فى الحملة . وحقيقة الأمر أن الامبراطور أجبرنى على الانضمام للحملة وما كان لى أن أرفض (٢) . ويفضل ببلوس الا يقول شيئاً عن سبب إصرار الامبراطور على مرافقته فى الحملة لأنه يوجز معظم الأحداث والوقائع وأنه التزم بذلك فى هذا الموضوع . والمهم أنه لا يوجد من يستطيع أن يتهمه بعدم الاخلاص للامبراطور أو يلومه على فشل خطط الامبراطور .

١٦ - كان الامبراطور رومانوس يقر ويعترف أنه أقل ودون مستوى ببلوس فى كل المسائل المتعلقة بالأدب . ويقول ببلوس : أنه يتحدث فى عن العلوم . ولكن رومانوس كان يطمح فى أن يبرز ويتفوق على ببلوس . لقد كان لدى ببلوس معرفة دقيقة بعلم الحطط العسكرية فقد درس بعنى كل ما يتصل بالتشكيلات العسكرية ، واستخدم أدوات الحرب ، والسيطرة على المدن . وقد أثار كل هذا اعجاب الامبراطور كما أثار غيرته وحسده . وقد حاول رومانوس قدر استطاعته مجادلة ببلوس وحاول التغلب عليه أثلة هذه المجادلات . ويدرك كثيرون ممن اشتركوا معنا فى هذه الحملة أن هذا الوصف ليس مبالغاً فيه (٣) .

(١) وقعت الحملة الأولى أواخر عام ١٠٦٨ م ، وأن الربيع يراد به ربيع ١٠٦٩ م خاصة وأن المؤرخ ذكر أن هذه الأحداث وقعت بعد فترة ليست بطويلة وهى حملة رومانوس على مدينة خلاط . أنظر الملحق (٢) .

(٢) كان ببلوس أحد أقطاب المعارضة للامبراطور رومانوس وحزبه العسكرى ولعل إصرار رومانوس على إسطعاب ببلوس فى هذه الحملة هو غرور رومانوس من مؤامرة تدبر فى غيته .

(٣) يرى المؤرخ ببلوس أنه أقدر من الامبراطور رومانوس فى الجوانب العسكرية من الناحية النظرية على الأقل . ويبدو فى ذلك غروراً من المؤرخ والحقيقة أن ما ذكره المؤرخ فى الموضوع السادس عشر هذا يعد استطراداً فى النص ليظهر فيه قدراته الفلسفية والعسكرية .

١٧ - والحرب الثانية (١) لم تكن أكثر توفيقاً من سابقتها . ويقول بيلوس : الحقيقة أنها كانت غير حاسمة واحتفظ العدو بما تحت يديه في كل مكان . ووقعت عشرات الألوف من رجالنا أسرى ، بينما لم نأخذ من أعدائنا إلا القليل من الأسرى . وعلى أية حال فإن [البيزنطيين] لم يهزموا ونجحوا في أحداث هرج هائل بين صفوف البرابرة (٢) . ونتيجة هذا كله أصبح رومانوس أكثر غروراً وفخراً ووقاحة من ذي قبل لأنه قاد الجيش مرتين ، ولم يعد يحترم شيئاً والأموراً من ذلك أن مستشاري سوء الذين استمع إليهم قد ضلّوه تماماً .

١٨ - أما الامبراطورة يودكيا فقد عاملها رومانوس كأسيرة حرب بل إنه كان سيوافق على طردها من القصر . لقد كان يشك في القيص (٣) ، وفي مناسبات عديدة كان يخطط لاعتقاله وإعدامه ، ولكنه سرعان ما كان يغير رأيه ويتخلى عن الفكرة . وعلى أية حال فقد أرتضى رومانوس في هذه المرحلة أن يجبر القيص وأولاده (٤) على أن يقسموا له بيمين الولاء والطاعة وعندما لم يصبح لدى رومانوس أية خطة لتنفيذها ضد القيص شرع في حملته الثالثة والأخيرة ضد البرابرة الذين أظهروا عداوتهم الصريح . لقد كانوا يشنون غارات السلب والنهب على الأراضي الرومانية . وعندما حل الربيع (٥) اجتاحتها بأعداد غفيرة (٦) . ولهذا غادر رومانوس العاصمة مرة أخرى

(١) تنيد هذه الجملة أن رومانوس قام بحملة أولى وهي ما أشار إليها الباحث أنها وقعت أواخر عام ١٠٦٨ م . والمقصود بالحرب الثانية هي التي وقعت في ربيع ١٠٦٩ . أواسط عام ١٠٦٩ م .

(٢) عن تفاصيل هذه الحملة أنظر الملحق رقم (٢) .

(٣) هو يوحنا دو كاس الذي يشكل مع بيلوس زعامة حزب المعارضة ضد رومانوس Ostrogorsky, op. cit., p. 304

(٤) هما قسطنطين وأندرونيقوس أنظر :

Brehier, L. Vie et Mort de Byzance, Paris, 1947, p. 282.

(٥) ربيع عام ١٠٧١ م أواسط عام ١٠٦٣ م . تابع مايل من أحداث عن معركة مانزكرت .

(٦) عن تفاصيل السلاجقة في هذه المرحلة أنظر الملحق رقم (٣) .

لجارتهم مصحوباً بجيوش خفيفة ووحدات عسكرية وطنية أعظم من ذي قبل (١) .

١٩ - ولما كان رومانوس قد اعتاد عدم الاستماع للنصائح سواء في المائل المدنية أو العسكرية ، فقد خرج بجيشه في الحال وأسرع إلى قيصرية (٢) ، ولما وصل إلى هذا الموقع خشي أن يتقدم بعد ذلك . وحاول أن يجد علماً للعودة إلى بزنطة ، لا خروفاً على نفسه فقط وإنما لمصلحة الجيش أيضاً . ولما كان في انسحابه عاراً يفوق طاقته ، فقد فكر في الاتفاق مع العدو لوقف انتماكاته السنوية . ولكن هذه الفكرة لم تنفذ (٣) . وربما كان في حالة من اليأس والقروط أو غرور الامبراطور بثقته في نفسه ، حين اندفع بقواته مهاجماً دون أن يتخذ الحيلة لحاية مؤخرة جيشه . وعندما رآه العدو يتقدم تقرر استدراكه وإيقاعه في الشرك بالخدعة . وتظاهر الاعداء بالتقهقر المدبر ، وبتكرار هذه العملية عدة مرات لنجحوا في عزل بعض قوادنا الذين

(١) كان الجيش البيزنطي يتكون في هذه الحلة من ثلاثمائة ألف ويزينون ما بين رومي حوروسي وغزي وقنجاقي وكريسي وأبخازي وسخزي وفرنجي وأرميني . انظر الأسفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق . القاهرة ١٩٠٠ ص ٣٧ .

وإختلفت المصادر العربية حول عدد الجيش البيزنطي وأن أقل عدد هو مائة ألف أنظر ابن العبري : تاريخ مختصر الدول - بيروت - ١٨٩٠ - ص ٣٢٣ وذكرت بعض المراجع الأجنبية المتخصصة أن الجيش البيزنطي كان حوالي ستين ألف . راجع .

Oman, C., The History of The Art of War in The Middle Ages, London, 1924, I, p. 219.

(٢) تقع قيصرية على مسافة ٦٥٠ كيلو من القسطنطينية وهي المسافة نفسها من قيصرية إلى مانزكوت تقريباً .

(٣) واضح الأمر أن السلطان السلجوقي ألب أرسلان هو الذى يادر بفرض فكرة الصلح على الامبراطور رومانوس ، ولكن رومانوس رفض وقال لاهلته إلا بالرى . أى بعد دخول رومانوس مدينة الرى . انظر . ابن الأثير : الكامل - بيروت - ١٩٧٩ - ج ١٠ ص ٦٦ .

دخلوا أسرى (١) .

٢٠ - ويقول بسلوس أنه أدرك في هذه المرحلة - ولو أن الامبراطور لم يدرك - أن السلطان نفسه، ملك الفرس والكرد (٢)، كان موجوداً شخصياً مع جيشه وأن معظم انتصارات الجيش ترجع إلى مهارته القيادية . ولقد رفض رومانوس تصديق أى شخص تادى بتأثير السلطان في هذه الانتصارات . والحقيقة أن رومانوس لم يكن يريد السلام، فقد كان يعتقد أنه سيتولى على «مسكر البرابرة دون قتال . وأسوء الحظ فقد تسبب بجهله للعلوم العسكرية في نشيت قواته (٣) ، فبعضها كان مر كراً حوله شخصياً والبعض الآخر أرسل للسيطرة على بعض المواقع . ومن ثم قبلوا من مواجهة أعدائهم بقواته متكاملة فقد اشترك بأقل من نصفها (٤) .

٢١ - ورغم أن بسلوس لا يمكنه أن يثني على هذا العمل ، فإنه لا يستطيع أن يوجه اللوم الامبراطور . ويقول بسلوس : والحقيقة أن

(١) ذكر الأصفهاني أن مملك الروم قد قدم رؤساء مقرين من الروس في عشرين ألف فارس ، وغالطوا بلاد غلاط بالبلاء واللب والباء فخرج اليهم صنداق التركى وقتل منهم خلقاً كثيراً وقادهم في القيد . وذلك يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة عام ٤٦٣ هـ (٣ أغسطس ١٠٧١م) . أنظر : الأصفهاني : المصدر السابق ص ٣٨ .

(٢) المقصود به السلطان ألب أرسلان .

(٣) تعرف هذه المعركة باسم مانزكورت التي وقعت أحداثها في ١٧ ذى القعدة ٤٦٣ هـ ١٦ أغسطس ١٠٧١م . ومن أسباب هزيمة رومانوس أيضاً وتوقع خيانة في صفوف انتقوات البيزنطية . أنظر : Finlay, op. cit., III 33, Oman, op. cit., p. 219 .

لمزيد من التفاصيل عن معركة مانزكورت راجع المحقق رقم (٣).

(٤) إذا كانت القوات البيزنطية قد تدوت ببين ألف فعلى ذلك أن رومانوس اشترك بأقل من ثلاثين ألف مقاتل وليس هذا الرقم بضئيل إذا ما عرفنا أن الجيش السلجوقي كان حوال خمسة عشر ألفاً حسب اتفاق معظم المصادر العربية .

أنظر : صدر الدين أبي الحسن : أعيان الدولة السلجوقية - لاهور - ١٩٣٣ ص ٤٧ . ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٦٥ ، ابن العبري : المصدر السابق ص ٣٦٢ .

رومانوس تحمل كل الخطر بنفسه ، ويمكن تفسير ذلك بطريقتين . وتمثل وجهة نظر بسلوس رأياً وسطاً بين الطريقتين . فاذا ما اعتبر بطلا يواجه الخطر ويحارب بكل شجاعة ، فمن المعقول أن تنفى عليه . أما إذا فكر المرء في أن القائد هو من التزم بالتواعد العسكرية المتبعة ويجب عليه أن يظل بعيداً عن خط القتال يشرف على تحركات جيشه ويصدر الأوامر اللازمة للرجال الذين تحت قيادته ، فعندئذ يعتبر سلوك رومانوس تهوراً كبيراً لأنه عرض نفسه وحياته للخطر دون أدنى تفكير في العواقب . ويميل بسلوس كثيراً إلى الثناء عليه لما فعله أكثر من توجيه اللوم إليه . (١)

٢٢ - على أية حال لقد ارتدى رومانوس الزي العسكري بكامله كجندى عادى وشهر سيفه على الأعداء . وطبقاً لرواية كثير من المصادر الخاصة ، فقد قتل رومانوس بالفعل عدداً كبيراً من الأعداء وأجبر عدداً آخر على الفرار . وعندما عرف مهاجموه من هو فيما بعد ، حاصروه من جميع الجوانب وقد جرح وسقط من فوق جواده . وكان طبعاً أن يأسروا امبراطور الروم ويقتادوه إلى معسكر الأعداء فتشتت جيشه . وكان الذين هوبوا جزءاً يسيراً من كل الجيش ، أما معظم الجيش فقد صار ما بين أسير وقتيل (٢) .

٢٣ - يقول بسلوس لست راغباً في هذه المرحلة أن أكتب عن الزمن الذى قضاه الامبراطور فى الأسر أو موقف المنتصرين منه ، وسوف أترك ذلك إلى مرحلة لاحقة (٣) . والمهم أنه بعد أيام قليلة (٤) من المعركة

(١) ماقده المؤرخ في هذا الموضوع يعتبر إنساناً للإمبراطور رومانوس وتحليلاً جيداً للأحداث .

(٢) انظر أيضاً الملحق رقم (٣) . ٥

(٣) تابع مابل الموضوع رقم (٢٦) .

(٤) استبق السلطان ألب أرسلان ملك الروم في أسيرة بضعة أيام . انظر الراوندى : راحة الصدور - القاهرة ١٩٦٠ ص ١٩٠ .

استطاع أحد الذين قدر لهم القرار أن يصل قبل رفاقه ، وقد حل هذه الأنباء المحزنة إلى المدينة (١) . وأعقبه رسول ثان ثم آخرون . ولم تكن الصورة التي قدموها واضحة لأن كل منهم عرض الكارثة بطريقته الخاصة . فقد روى البعض أن رومانوس قد مات ، وذكر آخرون أنه وقع أسيراً ، والبعض أعلن أنهم رأوه ملقى على الأرض جريحاً ، بينما ذكر آخرون أنهم رأوه يقتاد مكبلاً بالسلاسل إلى معسكر البرابرة (٢) . وعلى ضوء هذه المعلومات عقد مجلس في العاصمة ، وأخذت الامبراطورة تفكر في الخطوات المقبلة . وكان القرار الجماعي الصادر عن الاجتماع هو أنه يجب ترك موضوع الامبراطور مؤقتاً سواء أكان أسيراً أم ميتاً ، ويجب على الامبراطورة يودكيا وولداها حكم الامبراطورية .

٢٤ — وفي هذا المؤتمر أبدى بعض المستشارين الرغبة في أن يتولى ميخائيل وشقيقه الأصغر (٣) السيطرة الكاملة على إدارة الامبراطورية ، وألا تقرم أمهما بأي دور فعال أيا كان . بينما جدد آخرون أن تستعيد يودكيا السلطة الكاملة مع استبعاد ولديها . أما بسلوس فلم يوافق على كلا الرأيين ، فالرأى عنده — وهو يتحدث بصراحة — هو أن الواجب على الجميع أن ينملا في تناقض ، ويجب على الابن أن يولى والدته الاحترام لأنها أمه ، ويجب أن تظل الأم كخاكة على قدم المساواة مع ابنها . والحقيقة أن اقتراح بسلوس هذا هو الذي وافق عليه الامبراطور ميخائيل نفسه وأبده (٤) . وقد كان هناك أشخاص يتصورون أن يستأثروا بالسلطة العليا لأنفسهم ، وأن يحكموا الدولة لحسابهم وهؤلاء هم الذين حرصوا يودكيا على أن تحكم.

(١) المراد بها مدينة أنطسطينية .

(٢) توضح هذه السطور أن المذبح لا يلقى الاحكام جزافاً بل يمرض المادة التاريخية بكل خدر .

(٣) هو قسطنطين دو كلس .

(٤) لم يستر هذا الوضع طويلاً فقد أجبرت الامبراطورة الأم على التنازل والإنخراط في سلك الرهبانية . أنظر مائيل الموضوع رقم (٣١)

مفردها ، وفي الوقت نفسه كانوا يعملون على أحداث الشقاق بين ميخائيل وأمه .

٢٥ - يقول بسلوس : كان من الصعب عليه في هذه المرحلة أن يعبر كما ينبغي عن الإعجاب الذي شعر به نحو هذا الفتى ، لقد ناقش بسلوس مع ميخائيل دستورية هذا التصرف سراً ، وكان ميخائيل مستعداً - إذا شئت أمه - أن يتنازل عن العرش . كما كان ميخائيل حريصاً على ألا يصدر منه أى تصرف يدل على عدم احترامه لوالدته ، وكان ميخائيل يرى أنه من الواجب أن تعامل أمه بالاحلال الذي يليق بها مهما كان الثمن . ولقد نجح بسلوس في الوصول إلى تسوية بين ميخائيل وأمه يودكيا أكثر من مرة . ولكن ميخائيل كانت تسيطر عليه فكرة أنه لا ينبغي له أن يعارض والدته ، لأن مجرد لقاءهما وجهاً لوجه كان يظهر الحجل والوجل في وجه ميخائيل . لقد أضر ميخائيل على إذلال نفسه تماماً ، وظل هذا الوضع حتى وصل القيصر (١) إلى المدينة بناء على طلب يودكيا وقد أيد القيصر وجهه نظر بسلوس التي ترمي إلى قيام حكم جماعي للأسرة . (٢)

٢٦ - لم تكن مشكلة الحكم تجد حلاً لها حتى هوت على رؤوسا [البيزنطيين] محنة أخرى في اليوم نفسه (٣) ، فعندما وقع الامبراطور الروماني أسيراً في أيدي القائد العام لقوات العدو ، فإنه لم يبتهج بالنصر الذي حصل بنجاحه الخارق ، لقد احتفل بانتصاره في تواضع غير متوقعة ، فقدم حواسنه لأسيره وسمح له أن يشاركه مائدته وعامله كضيف كريم ، وعين له حرساً خاصاً ، وحرر الأسرى الذين حرص الامبراطور على إطلاق

(١) يوحنا دوكلاس .

(٢) تسمى هذه السطور بأن يودكيا كانت تريد الانفراد بالحكم وأن بسلوس والقيصر يوحنا عارضا هذه الفكرة .

(٣) المقصود بذلك خبر إطلاق سراح رومانوس من الأسر .

سراحهم ، وأخيراً أطلق سراح رومانوس نفسه أيضاً ، بعد أن عقد معه معاهدة صداقة وتلقى منه ضمانات أقسم عليها الامبراطور بأن يلتزم بكل بكل الاخلاص بالعهودات التي قطعها على نفسه ، وإعادته إلى اراضي الرومانية مصحوباً بعدد كبير من الحرس كما يتفق على شخص (١) . والواقع أنه كان في اطلاق سراح الامبراطور بداية المتاعب ، فقد كان ذلك سبباً رئيسياً لكوارث عديدة . وبعد أن حصل الامبراطور على تساهل [من عدوه] بفوق تصوره ، أصبح يعتقد أن في امكانه أن يسترد عرشه بدون أية صعوبة (٢) ، ولكي يبرهن رومانوس على حسن الحظ الذي واثقه به هزيمته ، كتب رسالة بنفسه إلى الامبراطوره يخبرها فيه بكل مغامراته .

٢٧ - وعلى أثر هذه الأخبار صاد الاضطراب الشديد داخل انقصر وكان الجميع يغدون ويروحون في كل مكان ، فقد اندهش بعضهم عند سماع هذه الأنباء ولم يصدقها البعض الآخر . ووجدت يودكيا نفسها في موقف عصيب وعجزت عن اتخاذ أي قرار . وعندما وصل بسلوس وجد نفسه في صلب المشكلة ، فقد ألح الجميع عليه لتقديم المشورة وامداه النصيح بأفضل تصرف يمكن عمله . ويقول بسلوس لقد كان امبراطوري المحبوب ميخائيل قد انضم إلى البعض وأصر على سماع رأي . ولهذا أعلن بسلوس أنه لم يعد من الضروري استقبال رومانوس داخل الامبراطورية ويجب اعتباره خارجاً على القانون ، ويجب أيضاً اصدار الأوامر في جميع أنحاء الامبراطورية بأن حكمه قد انتهى . وقد اقتنع المعتدلون بأن هذه الطريقة

(١) بعد اطلاق سراح رومانوس جهزه السلطان ألب أرسلان بشرة آلاف دينار وأطلق جماعة من البطارقة وخلع عليه وسيرمه عسكرياً يوصلوه إلى مأمنه وشيعة فرسجاً . ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٦٧ ، ابن البري : المصدر السابق ص ٢٢٣ .

(٢) توضح هذه العبارة أن حكم رومانوس انتهى بوقوعه أميراً في يد السلاجقة وهو تاريخ معركة مانزكرت .

تتحقق المصالح العامة للامبراطورية ، ولكن المعارضون كان لهم رأى آخر (١)

٢٨ - هكذا كانت الأمور تمضى عندما قرر ميخائيل ، نتيجة خوفاً على حياته الخاصة ، وعدم ثقته في [رومانوس] ديوجينيس القامى الطبع أن يحمى في طريق خاص . ولا شك أن الخطوة التى وضعها قد أنقذت حياته ، وكان تصرفاً حكيماً حقاً . لقد خرج من تحت سيطرة والدته وأصبح سيده نفسه منذ ذلك الوقت . (٢) وبناء على نصيحة أبناء عمه (٣) القيصر يوحنا دو كاس ، ضمن ولاء حرس القصر المسلحين جميعاً بالدروع والسيوف الحديدية الثقيلة ذات الحد الواحد التى تعلق على الاكتاب اليمنى Rhomphaia (٤) ، على أية حال ، فقد أخذ الحراس يدقون بعنف على دروعهم في آن واحد ويصيحون صيحات الحرب ، ولوحوا بسيوفهم في صياح ، واتجهوا متماسكين إلى الامبراطور اعتقاداً منهم أنه في خطر . وأحاطوا به من جميع النواحي ، ومنعوا أى فرد أن يقترب منه ، وخلصوه إلى الأدوار العليا بالقصر

٢٩ - كان ما حدث كافياً بالنسبة للمعارضين . وخلال هذا انتاب الرعب من ساندوا الامبراطورة ، وكان بساوس أحدهم ولم يدركوا ما حدث . وقد اعتقد بساوس ومن معه أن أحداثاً رهيبه سوف تحدث لهم ، كما فقدت الامبراطورة يودكيا أعصابها فعلاً ، وهربت بعد أن وضعت نقاباً على وجهها ، إلى مأوى سرى تحت الأرض . وبينما كانت تخفى في أعماق هذا السرداب كان بساوس يقبع في الفتحة التى تؤدى اليه ، ولم يكن

(١) المعارضون هم الحزب المسمى الذى يساند الامبراطور رومانوس .

(٢) كان ميخائيل في الرابعة عشر من عمره عند وفاة والده قسطنطين العاشر عام ١٠٦٧م

أنظر : Oman, C., The Byzantine Empire, London, 1922, p. 251.

وعلى ذلك يكون ميخائيل قد بلغ الثامنة عشر في عام ١٠٧١م .

(٣) قسطنطين وأندرونيقوس .

(٤) هو الحرس النارجياني الذى كان مخصصاً لحماية الإمبراطور شخصياً . راجع

Ostrogorsky, op. cit., p. 393.

لذنه أية فكرة عما يجب أن يفعل ، وإلى أين يمضي طلباً للامان . على أية حال فبعد أن ضمن ميخائيل سلامته الخاصة ، تذكر بسلوس ، وكان أول من تخطر على بال ميخائيل . وقد أرسل الرسل للبحث عن مكان بسلوس داخل أرجاء القصر . وعندما تعرفوا على مكان بسلوس رفعوه على أذرعهم وحلوه إلى الملك في موكب بهيج ، كما لو كان كشافاً عظيماً أو هدية ثمينة . وعندما شاهد الإمبراطور بسلوس تنفس الصعداء كانان بعد مرور هذه العاصفة ، وعلى الفور عهد ميخائيل إلى بسلوس بمسئولية اتخاذ القرارات الضرورية (١) .

٣٠ - وانشغل بسلوس بأمور الدولة ، وكان لابد من وضع بعض الخطط واتخاذ بعض التدابير إذا أريد لإدارة العاصمة أن تحتاز هذا الاعصار ، وحوالى ذلك الوقت كان الآخرون يناقشون وضع الامبراطورة الذيلة العجوز . وبالاختصار فقد صدر مرسوم بأن تغادر يودكيا القسطنطينية وتعيش في دير للراهبات كانت قد أقامته وشيده بنفسيها بالقرب من البحر تكريماً للسيدة مريم العذراء (٢) . وقد نفذ هذا المرسوم على الفور رغم أن ابناً ميخائيل رفض التصديق على هذا القرار ولم يرض عن نفي أمه . ويؤكد بسلوس هذه الحقيقة ويقول : أنه مستعد أن يؤكد أمام العالم كله ويشهد الله على ما يقواه . والحقيقة أن الظروف كانت أقوى من ميخائيل

(١) كانت عقائد الحكم الفعلية في يد القيصير يوحنا وميخائيل بسلوس أثناء حكم يودكيا وصية على ولديها . وبعد انتهاء حكم رومانوس أصبح الحكم في يد القيصير يوحنا أنظر :

Brehier, L., op. cit., p. 282

وظل بسلوس داخل القصر . ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً فقد تمكن نفقوديرس دوق أنطاكية من الوصول إلى القصر والسيطرة على الإمبراطور ميخائيل ، وأبعد بسلوس عن القصر وأزال الخطوة عن القيصير يوحنا . راجع أسد رستم : الروم ، دار المكشوف بيروت ١٩٥٦ ص ٢٢٢ .

(٢) وقعت هذه الأحداث في ٢٤ أكتوبر ١٠٧١ م .

Ostrogorsky, op. cit., p. 304.

وتغلبت على رغبائه . (١)

٣١ - في مثل هذه الموضوعات يكرر التاريخ نفسه ، فقد نجد الأشياء نفسها تحدث والأحداث نفسها تقال . وقد اختلف آراء الناس اختلافاً كبيراً حول مصير الامبراطورة ووجهوا ضدها الاقاويل . وترتب على ذلك صدور قرار ثان يقضى بأن ترتدى زى الراهبات ، وقد نفذ هذا الأمر وانتهت فجأة حياة الامبراطورة كحاكمة (٢) .

٣٢ - وبدلاً من أن يتجه رومانوس ديوجينيس لاطلاق سراحه ، امتلاً بالحزن لاحتمال فقدته لعرشه . وقد انضم اليه عدد كبير من الجنود . وعندما كان يتحرك من مكان إلى آخر ، كان يستخدم الأموال العامة في شئونه الخاصة ممياً نفسه بالأيام معارضة من أحد . وأخيراً وصل إلى مدينة أماسيه Amasea (٣) الشهيرة ، وهي المدينة التي تحدث عنها الجميع .

٣٣ - كان رد ميخائيل على هذا هو أن عين ابن القيصر الشاب (٤) قائداً عاماً لجيش الرومان . وكان القائد الجديد رجلاً يتسم بحماية كبيرة ، وحضور البديهة وسرعة الحاطر ، والقدرة المتميزة على اختيار الطريق وقدرته على الحديث بأسلوب يفهمه الجميع . وعندما اقترب لرومانوس ديوجينيس من المدينة - بعد ما وطد مركزه في آسيا - أخذ يجمع جيشه

(١) تشير هذه العبارة إلى أن الامبراطور ميخائيل كان العوبة في يد عمه القيصر يوحنا دو كاس .

(٢) أصبح ميخائيل السابع حاكماً منفرداً في ٢٤ أكتوبر ١٠٧١ م أنظر C.M.H. IV, p. I, p. 210.

وهو التاريخ نفسه الذي دخلت فيه والدته النير . راجع ص ٢٢ حاشيته (٢) .

(٣) تقع مدينة أماسيه في الشمال الشرقى لآسيا الصغرى ومن أهم مدن تم أرمنييا كوى واتجاه رومانوس إلى إماسيه يوسى بأنه كان على علم بأنه أصبح غير مرغوب فيه ، لأن المفروض أن يتجه إلى الغرب في طريقه إلى القسطنطينية .

(٤) هوستنطين بن يوحنا دو كاس عم الامبراطور ميخائيل .

- ويكفنه . ثم التجأ رومانوس إلى كل ألوان الحيل لكي يأسر خصمه أو يدفعه للخروج من المدينة . وبعد ما ساء مركز رومانوس وتدهور وضعه ، جمع كل قرائه وصفها للقتال ضد مهاجميه وقام بهجوم جري . وفي المعركة تكبد كلا الجانبين خسائر كبيرة (١) . ويقول بسلوس : لقد قام قائدنا (٢) بالهجوم على العدو كفارس مجنح وانقض على صفوف الأعداء وكانت قوية كالحصن الحقيقي ، وردّها وحطم صفوفها في أماكن عديدة . ولقد لقي مصرعهم من صمدوا في ميدان القتال بينما أخذ البعض أسرى ، وتمكن عدد ضئيل منهم من الفرار . وكان من بين الفارين [لرومانوس] ديوجينيس ، وقد هرب على جواده بأسرع ما يمكن (٣) . ويضيف بسلوس : ولأول مرة أصبح لدينا مبرراً للشعور بالثقة في المستقبل .

٣٤ - وحقيقة الأمر أنه كان في هذه الهزيمة بداية سقوط [رومانوس] ديوجينيس الذي لجأ بعده هذه الأحداث إلى حصن صغير مع حفنة من أتباعه (٤) . ويقول بسلوس : لولا تدخل البعض لسقط رومانوس في أيدينا . ويضيف بسلوس أن رومانوس ديوجينيس كان قد رقى رجلاً من أصل أرمني (٥) ،

-
- (١) تشير هذه العبارة إلى القوات التي كانت تحت سلطان الإمبراطور رومانوس قوات لا يستهان بها ، فقد انضم إليه عدد كبير من الجنود . انظر ماسبيق الموضوع (٣١) .
(٢) المقصود به قسطنطين دو كاس ، وكلمة قائد هنا توضح موقف بسلوس . من الإمبراطور رومانوس الذي يرى فيه إمبراطوراً غير شرعياً بعد هزيمة مانزكوت .
(٣) وقعت أحداث هذه المعركة عند دوقية Doceia الواقعة إلى الشمال في الطريق بين أماسية والقسطنطينية أنظر : Finlay, op. cit., III, p. 35 and no 1.
وقد أشارت المصادر العربية أن رومانوس لجأ إلى دوقية بعد إطلاق سراحه راجع : ابن الأثير المصدر السابق ج ٢٠ ، ص ٦٧ ، ابن العبري : المصدر السابق ص ٣٢٣ .
(٤) المقصود بها قلعة تايروبيون Tyropoen راجع :
Brehier, op. cit., p. 282.
(٥) يقصد شاتانورس الأرمني حاكم مدينة انطاكية . وقد ذكره المؤرخ بالاسم في الموضوع رقم (٣٨) . راجع أيضاً : Finlay, op. cit., III, p. 36.

وكان هذا الرجل خبيثاً ومعارضاً لنا ، وعندما رأى ما صار اليه ولى نعمته
 انتهر الفرصة لرد الجميل . وذهب ليقابله مع حفنة من جنوده ، وشجع
 رومانوس على الصمود وبذل له وعوداً عجيبة . ولم يتركه يقاتل
 قوات الامبراطورية بل أخذه معه إلى قيليقية Cilicia . وقال الرجل
 الارميني لرومانوس : أن الوديان المحيطة في إقليم قيليقية سوف تمنحه
 قسماً من الراحة بدلاً من الهجوم (١) . وبعد ذلك زود الرجل الارميني
 رومانوس بالجنود والمال ، وألبسه رداء الامبراطور . وانتظر الرجل اللثم
 بعد ما أعد رومانوس للقتال الفرصة المواتية لتجديد القتال ضد معارضيهِ .

٣٥ - ويقول بـلوس : ولهذا عقدنا مؤتمراً آخر ، وناقشنا ما يمكن
 عمله بعد ذلك . وكان هناك فريق يجذ عقد الصلح مع رومانوس ورأى
 أنه من الأفضل أن يسمح له بالمشاركة في الحكم ولا نفضل شيئاً أكثر من ذلك ،
 بينما صمم آخرون على اعلان الحرب والتأكد من عدم اعطاء أية فرصة
 لرومانوس للمضى في خطته غير المسئولة . وعلى أية حال ، لقد قرر
 المجتمعون عقد الصلح أولاً (٢) ، وأرسلوا رسالة ودية ومتعاطفة مع
 الامبراطور. ولكن [رومانوس] دبو جينس اعتبر الموقف الودى اهانة بالغة، وقال
 رومانوس : انه شخصياً غير ملام ، وشرع يقدم مطالب خاصة . لقد رفض
 التنازل عن العرش ، أو أن يخفف من مطالبه الخاصة بالعرش . والحقيقة
 أن رد رومانوس كان أكثر صلفاً وغروراً عما اعتقد مراسلوه .

٣٦ - وعلى ذلك اضطر الامبراطور [ميخائيل] وهو آسف أن يتخلى
 عن فكرة الصلح ، وأسندت قيادة الجيوش الامبراطورية إلى اندرونيقوس
 Andronicus أكبر أولاد التيمصر [يوحنا] . وكان اندرونيقوس رجلاً

(١) كان تواجد الامبراطور في إقليم قيليقية في مدينة أدنة .

Brehier, L., op. cit., p. 282.

(٢) تشير هذه العبارة إلى أن الحزب السكري كان لا زال قوياً حتى هذه المرحلة .

طويلاً ، كما كان نبياً وعطوفاً وعادلاً ، وقد أصبح مشولاً عن قيادة كل قوات الامبراطورة في الشرق . وكان الهدف الأول لاندرونيقوس هو أن يحارب جيشه بتعاون تام وأن يركز ولاء رجاله على الهدف المشترك كما كانت معاملته لكل الرتب تنسم بالانصاف والمساواة ، وحاول أن يفهم جنوده كبشر ، وأن يثبت أنه صديق لهم . وكان هدفه الثاني عدم شعور رومانوس بمراقبته أثناء اقتراب رومانوس من ممرات قيليقية حتى يشق طريقه بأمان داخل الشعاب الجبلية الوعرة . وبعد أن يعبر رومانوس كل الأراضي الوعرة يفاجئه اندرونيقوس دون توقع (١) . وشرع أندرونيقوس ورجاله في تنفيذ هذه المهمة ، وطبقاً للخطة الموضوعة سارت القوات في ممر على درب جبلي منحد . وفي هذه الاثناء كان الامبراطور ميخائيل قائماً يخشى أن يقع رومانوس في أيدي جنوده أو يموت وهو يقاتل ، أو يقع أسيراً وتبر أحد أعضاء جسمه (٢) .

٣٧ - لقد رأى بسلوس الامبراطور ميخائيل وهو يركب عدة مرات لتعرض حياته للخطر إذا انتصر رومانوس . وحسب قول ميخائيل لقد كان صديقاً لرومانوس ، وكانت بينهما موافق وعهود ويخشي ميخائيل بحرقهما . ولهذا السبب أرسل بعض القسس المحبين للسلام ومعهم رسالة ودية إلى [رومانوس] ديوجينيس (٣) . وكانت الرسالة المرسلة من ميخائيل

(١) إن تنحية قسطنطين دو كاس وتعيين أخيه أندرونيقوس بدلاً منه ترجع إلى فشل قسطنطين في حزيمة رومانوس ، كما أن وصف المؤرخ لاندرونيقوس بهذه الصورة يشير إلى أن أخيه قسطنطين لم يكن معبرياً داخل صفوف الجيش ، وأنه أقدرته عسكرياً . ولعل تعيين قسطنطين في بداية الأمر يرجع إلى تخطيط القيادة في القسطنطينية .

(٢) أشار المؤرخ إلى أن ميخائيل كان صديقاً لرومانوس . انظر ماسبق الموضوع رقم (٨) والموضوع رقم (٣٧) .

(٣) هم أساقفة علقونونية وهرتلية وكلونيا . انظر :

Finlay, op. cit., III, p. 36.

تتضمن كل انواع الوعود ، وفي الوقت نفسه - رغم عناد رومانوس -
ينصحه فيها بالخضوع والاذعان .

٣٨ - وقبل أن تصل هذه الرسالة إلى رومانوس كانت الحرب قد
بدأت. لقد كان رومانوس قابلاً في الحصن الذي سبق له أن سيطر عليه، وكان
يتولى قيادة جيشه شاتاتورس Chatatours الارميني - الذي سبق ذكره
في الفصل السابق - ودخل المعركة وكله أمل في النصر . لقد سيطر القائد
الارميني بمساعدة المشاه والفرسان على بعض المواقع الهامة قبل أن تصل
قوات الامبراطور ميخائيل اليه - وأعد جنوده للقتال وكان معظمهم من
اللاتفين بدنياً ومحبون للقتال .

٣٩ - واجه شاتاتورس أندرونيقوس بقواته المتأهبة للقتال ، وقبل
أن تتخذ الجنود مواقعها للاشتباك في المعركة ، كان كريستينوس الفرنجي (١)
Crispinus the Frank (ويقول بلس انه كتب هذه السطور يوم
وفاته) يقف مع أندرونيقوس وكل منهما يشجع الآخر . وكان كريستينوس
هذا عدواً للرومان في بداية الأمر ، ولكنه غير موقفه فيما بعد، لم يكن ولاءه
الجديد أقل وضوحاً من عدائه القديم . وعندما رأى كريستينوس رجال
[رومانوس] ديوجينيس مستعدين للقتال طلب من أندرونيقوس أن يثق به
ويسمح له بمهاجمة فرسان رومانوس . وقد انطلق كريستينوس وهاجم
قلب قوات رومانوس ونجح في اختراق صفوفهم . وقد اكتشف كريستينوس
ضعف مقاومة رجال رومانوس لأنهم لم يقاوموا الا لفترة قصيرة ثم ولوا
الآدابار، ولذلك طارد كريستينوس الفارين مع جماعة من فرسانه ، واستطاع
أن يلحق بهم خسائر فادحة ، ويأسر منهم عدداً كبيراً .

(١) كان أحد القواد البيزنطيين في إيطاليا ، وفي عام ١٠٦٩م أعلن الثورة لاحتقاده
أنه لا يلقى المعاملة اللائقة به ، ثم اتهم العفو من الإمبراطور رومانوس وأعيد إلى الخدمة العسكرية
أنظر : Brehier, L., op. cit., p. 280.

٤٠ - هزم جيش رومانوس وتشتت ، وعاد أندرونيقوس وكريستينوس متصران إلى الخيمة التي أعدت لهما . وقدم أحد الفرمان بعد قليل ومعه أحد الأسرى ، وكان الأسير هو شاتاتورس الأرمني الذي قال : انه أثناء فراره سقط في حفرة وزحف إلى ظل شجيرة ، وقد رآه أحد الذين طاردوه وكاد يقتله لولا أنه لمح الدموع في عينيه ، فاكثى بتجريدة من ثيابه ، ومضى لحال سبيله . ثم جاء محارب آخر ، وعندما رآه في هذا الموقف المؤسف اندفع إليه ليقتله . ولكن شاتاتورس أخبره انه إذا أبقي على حياته وحمله إلى قائد معين (ذكره بالاسم) فسوف يكافئه بخفاء . ولما علم أندرونيقوس شخصية الأسير شعر بالانتصار . وعلى أية حال ، فقد زود أندرونيقوس أسيره بالملابس والأدوات التي يحتاج إليها ، وعاملة كقائد شجاع ولم يضع عليه أى قيد رغم أنه كان أسيراً .

٤١ - وكان طبيعياً الا يثق [رومانوس] ودبوجينس في فلوك جيشه ، ولكنه كان لا يزال بطمع في نجدة حلفائه الفرس (١) . وحقيقة الأمر أنه أخذ يشجع رجاله ويعددهم بالراحة في المستقبل القريب . ولكن القوات التي اعتمد على ولائها والرجال الذين عهد إليهم بحماية الحصن (٢) الذي اختبأ فيه كانوا أول من خانوه . لقد عقدوا اتفاقاً مع أندرونيقوس ، وعندما تلقوا وعداً وقسمًا بعدم الخاق الأذى بهم ، فتحو أبواب الحصن وسمحوا للجند أندرونيقوس بالدخول وأرسلوهم إلى المكان الذي يقيم فيه [رومانوس] دبوجينس . وكان مشهداً غريباً حزيباً ، فقد ولت آمال رومانوس وأصبح مغلول اليدين كالأسير وسلم نفسه لآمره دون شرط . وفي الحال أُجبر على ارتداء زى الرهبان الأسود ثم رفع غطاء رأسه وسمح بقص شعره دون

(١) المقصود الأتراك السلاجقة ، وقد ذكر ابن الأثير أن ألب أرسلان هادن رومانوس حين سنة واصلته نائباً عنه . أنظر ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٦٦ .

(٢) كان رومانوس في أحد حصون مدينة أذنة في هذه المرحلة . أنظر :

Finlay, op. cit., III, p. 36.

أن يهتم بمن قام بذلك . واجريت مراسم التكريس بسرعة ، وقد تم ذلك بمعرفة من تصادف وجودهم وليس على أيدي من ينبغي أن يقوموا بهذا العمل . وبعد ما كرم رومانوس وأصبح راهباً اقتادوه خارج الحصن واصطحبوه متجهين إلى أندرونيقوس . ولم يقابله الأخير بالصلف والغرور بل بالملاطفة والمراعاة ، فقد صافحه ودعاه إلى خيمته ، وطلب منه أن يكون ضيفه على مائدة فخمة أعدت لذلك .

٤٢ - يقول بلموس : لقد مضت الأحداث سلسلة حتى الآن ، لقد أخذت القارئ إلى الطريق الملكي السلس كما يقول الكتاب المقدس أما أن أنقله إلى ما حدث بعد ذلك فهذه مهمة صعبة . ويضيف بلموس أنه لا يميل إلى ذكر أحداث يجب ألا تحدث إطلاقاً ، وإن كان له أن يستطرد قليلاً ، فإن بعض ما حدث ما كان يجب أن يحدث ، لأن تعاليم الدين والعرف الطبيعي عن إلحاق الأذى بحول دون هذا العمل . ومن ناحية أخرى فإن ظروف تلك المرحلة وما تطلبه الموقف من حدوث تغييرات مفاجئة لأي من الطرفين المتصارعين كانت من العوامل التي أوجبت حدوثه . ولقد تم ذلك على النحو التالي : لقد خشيت العناصر المخلصة في المجلس الامبراطوري من نجاح رومانوس في السيطرة على الامبراطور ميخائيل . ولهذا عمدت هذه العناصر إلى كتاب رسالة إلى شخص معين أوكلوا إليه مهمة تنفيذ سمل عيني رومانوس ، وقد تم ذلك دون علم ميخائيل (١) .

٤٣ - كان الامبراطور ميخائيل على جهل تام بما جرى ، ويقول بلموس : انه لا يذكر ذلك تملقاً لميخائيل ويعلم الله ذلك ، وأن ما ذكره هو الحقيقة . وعندما علم ميخائيل مؤخراً بما حدث بكى بكاء مراراً أكثر مما بكى رومانوس قبل محنته . لقد أحزنت ميخائيل هذه الأخبار ولم تفرحه أو أبدى

(١) لقد سلم رومانوس نفسه بعد ما ضمن له حياته أساقفة خلقونية وهرقلية وكونوليان لكن بالقيصر يوحنا لم يعبأ بذلك وأمر بسمل عيني الامبراطور ونفاه إلى جزيرة بروت
Finlay, op. cit., III, p. 36.

أى علامة من علامات السرور ، وهو شعوره نفسه عندما سمع بوقوع رومانوس أسيراً ، ولم يمنع ميخائيل من البكاء أمام الناس سوى الاستياء العام . على أية حال ، لقد أرسل رومانوس وهو أعشى ليقم في الدير الذي أنشأه في جزيرة بروت Prote حيث توفي بعد قليل (١) ، بعد ما استمر حكمه أقل من أربع سنوات (٢) . ولقد أصبح ميخائيل حاكماً بلا منازع للامبراطورية .

بعد هذا العرض لعصر رومانوس الرابع في حولة ميخائيل بسلوس يمكن القول في ختام هذا البحث أن بسلوس تناول بعض جوانب عصره بالشرح والتفصيل خاصة ما يتعلق بالأحداث التي وقعت في القصر ، كما تناول بعض الأحداث بإيجاز ولم يوفها حقها مثل بعض الأحداث المتعلقة بالصراع مع السلاجقة . وعلى أية حال ، فقد تناول الباحث المادة التاريخية التي تركها لنا بسلوس بالتقيد والتحليل وحدد تواريخها وأما كن حلوها وغير ذلك من الأمور التي تجعل المادة التاريخية واضحة جلية . والأهم من ذلك ان بسلوس أغفل ذكر حادثتين هامتين وقعتا في عصر رومانوس .

والحادثة الأولى تتعلق بحملة عسكرية وقعت أحداثها في عام ١٠٧٠ م ، وهي الحملة التي تولى أمرها القائد العسكري مانويل كومنين Manuel Comnenus قائد القوات البيزنطية في الشرق في عصر رومانوس (٣) وقد عهد رومانوس إليه بمراقبة تحركات السلاجقة في آسيا الصغرى ووقف غاراتهم ، ولكن مانويل لم يوفق في مهمته وهزم أمام القوات الإسلامية

(١) ترقى في عام ١٠٧٢ م .

(٢) من أول يناير ١٠٦٨ - ١٦ أغسطس ١٠٧١ م ، ثلاث سنوات وسبعة أشهر ونصف ..

C.M.H. IV, p. I, p. 210

Anna Comnena, The Alexiad, tr. Sewter, Penguin Book, 1969, (3) p. 73.

ووقع أسيراً في أيديها . وقد شجع هذا القوات السلجوقية فاستمرت في غاراتها حتى وصلت إلى مدينة خونية التي هلك الكثير من أهلها في محاولتهم الفرار أمام غارات السلاجقة . والواضح أن السلاجقة قد تشجعوا بعد هذه الأحداث ، فاستولى السلطان ألب أرسلان على مدينة مانزكرت في العام نفسه (١٠٧٠ م) واغار على مدينة الرها ، وبعد أن قضى خمسين يوماً أمام أسوارها عاد إلى بلاده . (١)

وإذا كانت الحادثة الأولى تتعلق بالشرق ، فإن الثانية تختص بالغرب . ففي السادس عشر من ابريل عام ١٠٧١ م نجح روبرت جويسكارد Robert Guiscard دوق أبوليا Apulia (١٠٥٧ - ١٠٨٥ م) ، في انتهاز فرصة انشغال القوات البيزنطية بالحروب السلجوقية واستولى على مدينة بارى Bari . وبسقوط مدينة بارى في يد النورمان تنهى السيطرة البيزنطية على آخر موقع لها في إيطاليا (٢) .

(١) Brehier, op. cit., p. 280, Finlay, op. cit., III, p. 30. (1)

(٢) عن هذه الأحداث راجع : Anna Comnena, op. cit., p. 53 and no 34 La-Monte, The World of The Middle Ages, New York, 1949, p. 277; Painter, S.A., History of The Middle Ages, New York, p. 198; Hasking, The Norman in The European History, New York, 1959, p. 202.

ملحق (١)

حلة رومانوس الرابع على منبج

في ٢٠ أكتوبر ١٠٦٨ م ١٩ محرم ٤٦١ هـ

لعل أسباب هذه الحملة ترجع بصفة عامة إلى تقدم الأتراك السلاجقة المطرد في آسيا الصغرى على حساب الأراضي البيزنطية ، وبصفة خاصة عندما هاجم السلاجقة مدينة انطاكية وما حولها ثم عودتهم في جمادى الآخرة عام ٤٦٠ هـ إبريل - مايو ١٠٦٨ م (١) . وعلى ذلك سار رومانوس واتجه إلى مدينة ليكاندوس Lykandos حيث وصلته الأخبار بأن الجيش السلجوقي اتجه إلى إقليم بنطس Ponts في الشمال وأغار على مدينة قيصرية . وأسرع رومانوس واعترض طريق عودة السلاجقة عند مدينة سيواس Sebaste (Sivas) وجبال تفريك Tephrike وأجبر السلاجقة على الفرار بعد ما نجح في تحرير الأسرى واسترداد الغنائم (٢) .

ثم اتجه رومانوس في العام نفسه ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ - ١٠٦٨ م إلى الجنوب وأغار على نواحي مدينة حلب واستولى على مدينة منبج Hierapolis وحصنها (٣) ، باعتبارها من القلاع الحصينة المتقدمة على حدود الامبراطورية . وهاجم بلدة عزاز (٤) ، وعاد إلى بوابات قليقية ، حيث علم بأن السلاجقة

(١) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ١١ - ١٢ .

(٢) Finlay, op. cit., III, pp. 27-8.

(٣) Michel Le Syrien, Chronique, ed. Chabot, Paris 105, III, p. 168.

الاستقمان : المصدر السابق ص ٣٥

(٤) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ١١ - ١٢ .

انتهزوا فرصة تواجده في منبج وأن الحدود الشرقية أصبحت مفتوحة أمامهم
فانجهوا إلى عمورية (١) وعادوا بسرعة دون أن يلحق بهم رومانوس (٢)

والقضية التي أفرد لها الباحث هذا الملحق هي تاريخ سقوط مدينة
مدينة منبج في يد رومانوس ، فقد أورد المؤرخ بسلوس طرفاً من هذه الحلقة
ولم يحدد تاريخها أو الأماكن التي وقعت فيها الأحداث . كما أشار ميخائيل
البرياني إلى سقوط منبج ولم يتحدث حتى عن السنة التي سقطت فيها .
أما المصادر العربية فقد اختلفت في السنة التي وقعت فيها الأحداث . فبعضها
ذكر أنها وقعت في عام ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ - ١٠٧٠ م (٣) والبعض الآخر
يتفق مع ابن العديم بأنها وقعت في عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ - ١٠٦٩ م وحدد
شهر المحرم من العام نفسه تاريخاً لسقوطها (٤) . وبالرجوع إلى المراجع
تبين أن بعضها حدد عام ١٠٦٨ م ولم يحدد الشهر (٥) . وبعضها حدد العشرين
من نوفمبر عام ١٠٦٩ م (٦) .

وبتحليل هذه الأحداث ومادتها التاريخية ، نجد أن أسباب الحلقة
ترجع إلى مهاجمة المسلمين لمدينة انطاكية في بخمادى الآخرة عام ٤٦٠ هـ /
أبريل - مايو ١٠٦٨ م . ولما كانت مدينة انطاكية من المدن الهامة بل
والمقدسة لدى البيزنطيين ، وأن رومانوس اعتلى العرش كقائد عسكري

(١) السطيس : تاريخ السطيس . نشرة كاهن ١٩٣٨ في Journal Asiatique ص ٣٥٨

(٢) Finlay, op. cit. III, p. 28.

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق - بيروت - ١٩٠٨ ص ٩٨ ، الأصمغاني :
المصدر السابق ص ٣٥ ، ابن الأثير ، المصدر السابق ص ١٠ ص ٦٠

(٤) ابن الجوزي : مرآة الزمان ، عل هامش ذيل تاريخ دمشق ص ٩٨ حاشية ٢

(٥) Ostrogorsky, op. cit., p. 304, C.M.H. IV, p. I, p. 209.

(٦) أسد رستم : المرجع السابق ج ٢ ص ١١٠ ، Brehier, op. cit., p. 280

بمساعدة الحزب العسكرى ، فقد أصبح الأمر لا يحتل الأثر للمدينة حتى
نهاية عام ١٠٦٩ م ، ومن ثم فالباحث يميل إلى ما أورده ابن الجورى بأنها
أخذت فى المحرم عام ٤٦١ هـ وفى العشرين من نوفمبر عام ١٠٦٨ م . وعلى
ذلك يمكن القول أن مدينة منبج سقطت فى التاسع عشر من محرم عام ٤٦١ هـ
العشرين من نوفمبر عام ١٠٦٨ م .

ملحق (٢)

حملة رومانوس الثانية على خلاط

في أواسط عام ٦٤٢ هـ / ربيع ١٠٦٩ م

كان الأتراك السلاجقة قد اجتاحوا الأراضي المحيطة بمدينة قيصريّة فخرج اليهم رومانوس بجيشه لدفعهم عن الأراضي البيزنطية في ربيع عام ١٠٦٩ م / أواسط عام ٤٦٢ هـ (١). وحتى ينتهي رومانوس من طردهم بأسرع وقت ممكن ، فقد كان يقتل الأسرى لكي لا يخصص جانباً من جنده لحراستهم ، ويستفيد بكل قواته في المعارك العسكرية . وبعد ما وصل إلى إقليم قيسوقية اتجه إلى مدينة ملطية عبر مدينة رومانوبوليس *Romanopolis* وكانت خطته تنحصر في محاصرة مدينة خلاط أملًا في حماية الحدود الأرمينية من غارات السلاجقة . ولم يرسل رومانوس أحد قواده لتنفيذ هذه المهمة بل اتجه على رأس جيشه إلى مدينة خلاط (٢) وعهد بحماية الحدود إلى القائد الأرميني فيلاريثوس *Philaretos* دوق أنطاكية . وكعادة السلاجقة في حربهم الخاطفة أفسحوا له الطريق والتفوا حوله وهزموا فيلاريثوس وانجهوا إلى مدينة قونية *Iconium* فهاجموها وعادوا محملين بالغنائم (٣) . وعندما وصلت هذه الأخبار إلى مسامع رومانوس تراجع عن خلاط واتجه إلى سيواس وأرسل إلى فيلاريثوس ليقطع خط الرجعة على السلاجقة في

(١) أنظر ماسبق المرسوم رقم (١٥)

Finaly, op. cit., III, p. 29.

(٢)

وقد ذكر ابن القلانسي أن رومانوس عاش في ناحية شازجرد (مانزكرت) عام ٤٦٢ هـ . وفي نواحي مانزكرت تقع مدينة خلاط . أنظر : ابن القلانسي المصدر السابق ص ٩٨ .

Runciman, A History of The Crusades, Cambridge, 1954, I, (٣) p. 16; Brehier, op. cit., p. 280.

الوقت الذي بهاجم رومانوس فيه السلاجقة عند مدينة هرقلية Heracleia كما اشترك الأرمن في مهاجمة السلاجقة عند جبال قيليقية وأجبروهم على ترك الأسلاب والفرار (٤) . وكافأ رومانوس فيلاريتوس على شجاعته ومنحه لقب دومستيق Domestic (١) ، أى ضابط قصر .

وبعد عرض أحداث هذه الحملة يمكن القول أن أحداث هذه الحملة قد وقعت في ربيع العام التالي لحملة الأولى في عام ١٠٦٨ أى ربيع عام ١٠٦٩ م أواسط عام ٤٦٢ هـ ، وهو ما سجله الباحث في الحاشية رقم (١) صفحة (١٣) .

ملحق (٣)

معركة مائز كرت

١٧ ذى القعدة ٤٦٣ هـ / ١٦ أغسطس ١٠٧١ م

الهدف من هذا الملحق هو التقاء الضوء على معركة مائز كرت لتحديد خمس نقاط معينة ، الأولى هي تاريخ خروج الامبراطور رومانوس بجيشه من القسطنطينية ، والثانية هي التعرف على حجم القوات البيزنطية والسلجوقية ، والثالثة تتعلق بالمعركة وتاريخها . أما الرابعة فهي مرتبطة بأسر الامبراطور ومعاملته ، والخامسة والأخيرة تخص النتائج المترتبة على هذه المعركة .

وفيما يتعلق بتاريخ خروج الامبراطور للقتال ، فقد أشار المؤرخ بيلوس ان خروجه كان في الربيع دون ذكر السنة ، أما المصادر العربية فقد أوضحت ان خروج البيزنطيين كان في عام ٤٦٣ هـ / أكتوبر ١٠٧٠ - أغسطس ١٠٧١ م . والربيع الواقع في هذه الفترة هو ربيع عام ١٠٧١ م ، أواسط عام ٤٦٣ هـ .

أما عن حجم وتسليح القوات البيزنطية ، فقد ذكر بيلوس أن رومانوس خرج لمحاربة السلاجقة مصحوباً بجيوش حليفة ووحدات عسكرية بيزنطية أكبر من حجم القوات التي خرج بها رومانوس من قبل ، ولم يشر إلى حجم القوات السلجوقية . وذكرت بعض المصادر العربية أن القوات البيزنطية كانت على ما قيل ستمائة ألف من الروم «وانضاف اليهم من سائر الطوائف» ، وأن القوات الاسلامية كانت على ما ذكر أربعائة ألف من الأتراك وجميع الطوائف (١) . وذكرت مصادر أخرى أن الجيش البيزنطي كان يزيد

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٩٩ . وهي اعداد مبالغ فيها .

على ثلاثمائة ألف فارس وراجل تضمنت عناصر من البيزنطيين والأرمن والفرس والبيجناكية والغز والفرنجية ، وأن القوات الإسلامية كانت خمسة عشر ألف من القرمصان الشجعان (١) . وذكر آخرون أنهم جاءوا في ستمائة ألف فارس ، وأن المسلمين كانوا اثني عشر (٢) .

وذكر ابن الأثير أن القوات البيزنطية كانت مائتي ألف من الروم والفرنجة والروس والبيجناك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد ، وأن المسلمين كانوا خمسة عشر ألف فارس (٣) . أما ابن العبري فقد روى أن القوات البيزنطية كانت مائة ألف وأن القوات الإسلامية خمسة عشر ألف (٤) . وسجل ابن العديم أن عدد القوات البيزنطية كانت ثلاثمائة ألف أو يزيدون ما بين فارس وراجل من جموع مختلفة من الروم والروس والخزر واللات والغز والقفجاق والكرج والبخاز والفرنجة والأرمن وفيهم خمسة آلاف من رماة الأقواس ، وأن المسلمين كانوا خمسة عشر ألف (٥) . وذكر ميخائيل السرياني أن عدد القوات السلجوقية كان اثني عشر ألفاً ، ولم يذكر أعداد القوات البيزنطية . (٦)

من ذلك يتضح أن بعض المصادر قد غالت كثيراً في ذكر حجم القوات المشتركة في القتال مثل ابن القلانسي ، لذلك يرى الباحث عدم الاعتماد عليه في هذه الناحية . ويتبين بعد ذلك أن ما ذكرته المصادر العربية حول القوات البيزنطية يتراوح بين ثلاثمائة ألف وأقلها مائة ألف . ولكن المراجع

(١) صدر الدين أبي الحسن : المصدر السابق ص ٤٧ .

(٢) الزاوي : المصدر السابق ص ١٨٩ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ص ١٠ ص ٦٥ .

(٤) ابن العبري : المصدر السابق ص ٣٢٣ .

(٥) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤ .

Michel Le Syrien, op. cit., III, p. 169.

(٦)

المتخصصة ترى أن حجم القوات البيزنطية كان مئتين ألف (١) ، وهو عدد مقبول ومعقول أخذ به الباحث ، وأنها اشتملت على عناصر بيزنطية وغير بيزنطية .

أما عن تسليح القوات البيزنطية فالمعروف ان العمليات العسكرية في الجيش البيزنطي كانت تقع على عاتق المشاة والفرسان المزودة بالدروع . ويبدو أن رومانوس استعد استعداداً كبيراً لهذه المعركة فقد كان لديه ثلاثة آلاف أو أكثر من العربات لنقل الأحمال ، هذا بالإضافة إلى المعدات التي كان فيها منجنيق كبير يرمى حجراً وزنه بالرطل الخلاطى قطار ، وكأنه جبل له في ألبو مطار (٢) .

وفيما يتعلق بوقائع هذه المعركة فالواضح أن رومانوس كان يعتمد على عنصر المفاجأة ، لذلك قسم جيشه إلى قسمين أحدهما يتولى قيادته القائد النورمانى رسل دى باييل Roussel de Bailleul ومعه المرتزقة الأوربيين للاستيلاء على خلاط . والجزء الثانى يتولى رومانوس قيادته بنفسه ويتجه إلى ما نركرت (٣) ، لاستعادتها من يد السلاجقة .

كانت تحركات البيزنطيين مفاجأة للسلطان ألب أرسلان الذى كان فى أذربيجان عندما وصلت القوات البيزنطية إلى أرزن الروم ، وكان السلطان فى خواص جنده ، وجموع عساكره بعيدة عنه ، فبقى فى خمسة عشر ألف فارس من نخبة عسكره واتجه إلى ميدان المعركة (٤) . وكان ذلك يوم الأربعاء الخامس عشر من ذى القعدة ٤٦٣ هـ / ١٤ أغسطس ١٠٧١ م (٥) .

(١) Oman, op. cit., I, p. 219.

(٢) الاسفهانى : المصدر السابق ص ٤١ صدر الدين أبى الحسن : المصدر السابق ص ٢٠

(٣) Finally, op. cit., III, p. 31.

(٤) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤ .

(٥) صدر الدين أبى الحسن : المصدر السابق ص ٤٩

والواضح أن ألب أرسلان كان قد عرف بكبر حجم القوات البيزنطية ، فأرسل في طلب الصلح من الامبراطور رومانوس ، ولكن الامبراطور رفض وقال : لاهدنه الا بالرى ، أى بعد هزيمة السلطان ألب أرسلان ودخوله مدينة الرى - ويرى البعض أن السفارة التى أرسلت لطلب الصلح لم تكن غير عيون للسلطان وأن مقصوده كان «أن يكشف سرهم ويتعرف أمرهم» (١) .

وإذا كان رومانوس هو الذى دق ناقوس الحرب ضد السلاجقة وحدد أرض المعركة ، فإن ألب أرسلان هو الذى حدد موعدها ، وتتفق المصادر أن الطرفين التقيا يوم الجمعة السابع عشر من ذى القعدة عام ٤٦٣ هـ / ١٦ أغسطس ١٠٧١م ، وقت الصلاة حسب ما أشار به الفقهاء على السلطان (٢)

اصطف الجبشان للقتال ووضع رومانوس نفسه على رأس القوات فى الوسط ، وعهد بالجناح الأيمن إلى القائد القبادوق اليانس Alyattes وإلى الجناح الأيسر إلى نقفور بريئوس Nicephorus Bryennius ، وتولى أمر الجنود الاحتياطية أندرونيقوس بن يوحناوكاس ألد أعداء الامبراطور. وظلت المعركة من ظهر ذلك اليوم حتى قرب غروب الشمس ، ولم يحقق أى طرف نصراً ملموساً على الآخر . ومع اقتراب المساء أعطى رومانوس أوامره للجيش بالعودة إلى المعسكر البيزنطى (٣) . والواضح أن اندرونيقوس

(١) الامنهال : المصدر السابق ص ٣٩ .

(٢) صدر الدين أبى الحسن : المصدر السابق ص ٤٩ . ويرى البعض أن المعركة وقعت

فى أغسطس ١٠٧١ - راجع Bailly, A., Byzance, Paris, 1948, P 269

Ostrogorsky, op. cit., P. 304 ويرى آخرون أنها وقعت فى

٢٦ أغسطس ١٠٧١ - انظر Brehier, op. cit., P. 281, C. M. H., IV, P. 270

Finlay, op. cit., III, p. 34.

(٢)

كان قد انسحب في وقت غير مناسب وأذاع عن عمد شائعة تفيد هزيمة الجيش البيزنطي (١) . وقد سبب ذلك كله ارتباكاً في صفوف القوات البيزنطية ، وهي الفرصة التي استغلها السلاجقة لا تزال الضربات بالجيش البيزنطي ، وحاول رومانوس أن يعالج الموقف بما تحت يديه من قوات وقاقل حتى هزم ووقع في الأسر .

وفيما يتعلق بمعاملة السلطان للإمبراطور رومانوس فقد اتفقت المصادر عن حسن معاملة ألب أرسلان لأسيره الإمبراطور . ومما ذكرته المصادر أن السلطان قال للإمبراطور : ألم أرسل إليك في الهدنة فأبيت ، فقال رومانوس ، دعني من التوبيخ وأفعل ما تريد . فقال السلطان : ما عزم أن تفعل بي إن أسرتني ؟ فقال الإمبراطور : أفعل القبيح . قال السلطان فما تظن أني أفعل بك ، قال الإمبراطور : إما أن تقتلني وإما أن تشهر بي في بلاد الاسلام ، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال ، واصطناعي نائباً عنك . قال السلطان : ما عزم على غير هذا (٢) وهناك رواية أخرى بيزنطية حول نفس المعنى فقد سأل السلطان الإمبراطور عما كان يفعله به إذا كسب المعركة وأمر السلطان ، فأجاب الإمبراطور : كنت أجلك حتى الموت ، ولكن ألب أرسلان قال له : لن أجلك فقد قيل لي أن السيد المسيح علمكم الصفح عن الخطايا وأنه يكره المتكبر ويكرم المتواضع (٣)

وتم الصلح بين الطرفين ، واقتدى رومانوس نفسه بالمال (٤) ، واشترط ألب أرسلان على رومانوس أن يرسل إليه عساكر الروم في أي وقت يطلبها وأن يطلق سراح أسرى المسلمين ، وهادنه السلطان خمسين سنة (٥) .

Scylitzes, Historia, p. 698.

(١)

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١ ص ٦٧ .

Scylitzes, ots. cit., P.700

(٣)

(٤) ذكر البعض أنه ألف ألف دينار وخمسة آلاف . ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠

ص ٦٧ ، وذكر آخرون ألف ألف دينار . ابن العبري : المصدر السابق ص ٢٢٢ .

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٦٧ .

أما عن نتائج هذه المعركة فيمكن القول أن هذه المعركة فتحت الحدود الشرقية البيزنطية على مصراعها أمام التقدم السلجوقي ، وأن الإمبراطورية البيزنطية فقدت اسمها كحامية للحدود الشرقية الأوربية ، وأن السلاجقة نجحوا في مراحل لاحقة في السيطرة على جانب كبير من آسيا الصغرى . أما في الجانب البيزنطي ، فقد تسببت في أن يفقد رومانوس عرشه ، وزيادة الصراع على السلطة داخل العاصمة البيزنطية لفترة ليست بقصيرة ، كما اتخذ البعض من معركة مانزكرت سبباً من أسباب الحروب الصليبية (١)

William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond The Sea, (1)
New York, 1943, I, pp. 77—8.

وعن المزيد من النتائج راجع .

جوزيف نسي يوسف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى دار المعارف
طبعة ثانية - ١٩٦٧ - ص ١٤٥ وما بعدها .

الشرائع العراقية القديمة

دراسة تاريخية حول نشأتها وتطورها وأثرها في تنظيم الحياة

الاجتماعية في العراق القديم

دكتورة نبيلة محمد عبد الحليم

كلية التربية - جامعة الاسكندرية

لا شك أن لدراسة الشرائع العراقية القديمة أهميتها البالغة ، لأنها تلقي بعض الضوء التاريخي على العلاقات الانسانية التي سادت المجتمع العراقي القديم ، لاسيما وأن هذه الشرائع من أقدم ما اكتشف من الشرائع القديمة . يضاف إلى هذا أن هذه الشرائع قد سجلت في حقبة حاسمة في الحياة السياسية والادارية والقانونية للشعب العراقي القديم . لهذا فهي تمثل نهاية العصر الذي ساد فيه العرف غير المكتوب ، وبداية عصر أكثر تطوراً بدأت فيه الشرائع المدونة .

ومن العلامات البارزة في حضارة الشرق الأدنى القديم ، تعلق السومريون واحترامهم وتمسكهم بالقوانين ، فكانت كافة المعاملات تجري وفق أحكام معروفة . وهذا التعامل المنظم لا يمكن أن يزدهر الا بتطبيق العدالة . وقد وضعت منطقة الشرق الأدنى القديم أصول الحضارة الانسانية في كافة أوجه النشاط الانساني ، حيث توصل انسان هذه المنطقة إلى الاستقرار قرب نهاية عصور ما قبل التاريخ وبصفة خاصة في العصر الحجري الحديث . ومن مظاهر حضارة الشرق الأدنى القديم ، الشرائع التي تعد أولى

الجهود البشرية في تنظيم الحياة وفق أصولها وقواعد السلوك لأفراد المجتمع . ولقد تفاخر ملوكهم بإقامة العدل واحترام القانون في بلادهم . وتأسيساً على ذلك ، فإننا نجد أن المفاهيم القديمة كانت تضع القانون والعدالة ضمن الأفكار الرئيسية سواء من زاوية المفهوم النظري أو التطبيق العملي لدرجة يمكن معها القول بأن أثرهما كان واضحاً في المجتمع السومري القديم ، بدليل التركة الأثرية التي عثر عليها والتي تتمثل في الألواح الطينية المنقوشة بمختلف الوثائق القانونية السومرية . ومن أمثلة تلك الوثائق يمكن الإشارة إلى الوصايا والعقود ونصوص المعاهدات والاتصالات (١) . هذا وكان الطالب في بلاد سومريتهم بدراسة المواد القانونية مع غيرها من العلوم . وكانت دراسة القانون تتطلب ضبط العبارات والمصطلحات القانونية واستنساخ نصوصها (٢) . كما كان القضاة على دراية واسعة بتفسيرات القوانين وتطبيق القواعد القانونية . هؤلاء هم الذين وضعوا أسس أصول الفقه في القانون . وكان الكهنة يأخذون قطعاً وقرأوا من الدراية القانونية في معاهد خاصة ليشرحوها في الشريعة وأحكامها ، وخلقوا ما يطلق عليه مؤلفات فقهية بشرح بعضها الصيغ القانونية (٣) .

وعلى الرغم من تنوع مصادر القوانين القديمة ، وبالرغم من اختلاف أهميتها بحسب كل عصر ، فإنه يمكن أن نرد المصادر الرئيسية إلى أربع مجموعات هي : العرف ، والتشريع أو التقنينات ، ووثائق الحياة اليومية

(1) Kramer, S.N., From the Tablets of Sumer, Indian Hills, Colorado, 1956.

ترجمه العربية طه باقر بعنوان «من ألواح سومر» مراجعة وتقديم أحمد نغرى ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢) سمبول كريب ، نفس المرجع ، ص ١٢٢ .

(٣) طه باقر ، شرائع العراق القديم ، مجلة سومر ، المجلد الثالث ، الجزء الثاني ، ١٩٤٧ ، ص ١٧٤ .

والنصوص الأدبية والتاريخية . وهما من هذه المصادر ، العرف ، والتشريعات
نظراً لارتباطهما الوثيق بموضوع البحث .

ففيما يتعلق بالعرف ، فيمكن اعتباره أقدم المصادر القانونية لأنه من
صنع الجماعة مباشرة . ويمكننا تعريف العرف بأنه مجموعة القواعد الملزمة
التي تضعها الجماعة تلقائياً دون تدخل من جانب الدولة (١) .

ومن هذا التعريف ، يتضح أن للعرف ركنين : أولهما مادي ويتمثل
في التكرار ، ذلك أن الجماعة تدرج على سلوك معين ، أو على مراعاة شكل
معين على نحو تلقائي دون تدخل من جانب الحاكم . والتكرار لا يتحقق
إلا إذا مضى عليه زمن كاف لتثبيت السلوك أو الشكل محل التكرار .
ويكفي أن نشير إلى اتباع العرف مدة طويلة من شأنه أن يؤكد . والركن
الثاني للعرف ، هو الركن المعنوي ، ويتمثل في الاعتقاد بالزام السلوك
أو الشكل للأفراد . ويقرن الإلزام بجزاء توقعه الجماعة على من لا يلتزم
بالعرف . من أمثلة ذلك القتل بالرجم (٢) . ويؤخذ على العرف وهو قانون
غير مدون أنه قد يشوبه الغموض سواء من حيث وجوده أو عدم وجوده ،
أو من حيث مداه أن وجد .

هذا وقد خضعت بلاد العراق القديمة خلال العصور السحيقة في القدم
لحكم العرف ؛ فكانت تتبع قواعد غير مكتوبة ، محفوظة في ذاكرة الحكماء
ورجال الدين في العشيرة أو القبيلة أو الدولة ، متضمنة عادات الأسلاف
وتقاليدهم .

(١) يعرف البعض العرف بأنه مجموعة القواعد التي تنشأ من درج الناس عليها يتوازونها
جيلاً بعد جيل ، والتي لها جزاء قانوني كالتشريع سواء بسواء .

عمر ممدوح مصطفى ، أصول تاريخ القانون ، الإسكندرية ١٩٦٣ ص ٦٧ .

(٢) حسن كيرة ، المدخل إلى القانون ، الإسكندرية ١٩٧٠ ، ص ١٦ .

وأيضاً سمر عبد السيد تناغر ، النظرية العامة للقانون ، الإسكندرية ١٩٧٤ ، ص ١١

٤٢٣ ، ٤٢٧ وما بعدها .

أما بالنسبة لنطاق العرف ، فقد كان العرف يحكم النظم على اختلاف أنواعها مثل نظام الأسرة ، ونظام الملكية ، والعلاقات بين المواطنين ، ونظام العبادة . وإقامة الشعائر الدينية للاله ، والقانون الجنائي ، وكل العلاقات مع السلطات العامة (١) .

هذا ولقد كانت القواعد العرفية الأولية تقرب كثيراً من الأحكام الدينية وذلك لأن ملوك العصور الأولية لم يكونوا مجرد رؤساء سياسيين فحسب ، بل كانوا يعتبرون موفدين من قبل الآلهة لحكم البشر بالنيابة عنها . ولقد تضمنت شريعة حمورابي Hammurabi بعض أحكام مصدرها القواعد العرفية القديمة .

أما فيما يختص بالتشريع والتفتينات ، فيمكن القول بأن مكانة العرف بدأت تنحصر لصالح التشريع ثم لصالح المجموعات القانونية التي أطلق عليها تجاوزاً مصطلح «تفتينات» وقد اضطر رئيس العشيرة ثم رئيس القبيلة ثم الملوك إلى التدخل لسببين : أولهما في الحالات التي لم يكن العرف فيها قد تكون بعد . وثانيهما : في الحالات التي اقتضت استعمال سلطة هؤلاء التدخل لشكالة العرف أو لغرض احترامه . وبهذا حل التشريع محل العرف ، وامتاز عليه بالمرونة لأنه متطور ، وبالوضوح لأنه مكتوب (٢) . هذا ومما لا شك فيه ، أن كتابة القواعد القانونية العرفية من شأنه أن يحفظها من الضياع ويحول بينها وبين النسيان (٣) . وربما يكون الدافع إلى تدوين القوانين هو نشرها بين الناس حتى لا تحتكره طائفة معينة تفسره لمصلحتها الخاصة وهذا ما حدث للقانونيين اليوناني والروماني (٤) بينما لم نصادف مثل هذا الباعث فيما يختص بالقوانين العراقية القديمة .

(١) عبد المجيد عبد الحفيظ ، تاريخ النظم الاجتماعية والقانونية ، الاسكندرية ١٩٨١ ،

ص ٢٤٥ .

(٢) حسن كيرة ، المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٣) صوفى أبو طالب ، مبادئ تاريخ القانون ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٤٣ .

(٤) صوفى أبو طالب ، نفس المرجع ، ص ١٤٤ .

أما فيما يختص بسنات التشريع ، فيلاحظ أن القواعد التشريعية كانت ملكية ودينية في آن واحد ، لأن كلمة الملك هي التي كانت تخلق القانون ولكن يرجد من ورائها دائماً إحياء إلهي . ونورد فيما يلي مثالا لسنات التشريعات العراقية ، تدل على ازدواج صفتي الملكية والألوهية : تضمن لوح اورنامو Ur-Nammu مقدمة مطولة ورد بها مايلي : «...عن الإلهان آن An وإنليل Enlil الإله القمر نا - ان - نا Na-n-na ملكاً على مدينة أور(١)»... ثم اختار هذا الإله بدوره اورنامو ليحكم بلاد سومر ومدينة أور بصفته نائباً عنه بمثل في الأرض . وكانت باكورة أعمال هذا الحاكم الجديد ، ضمان سلامة أور وبلاد سومر في النواحي الإدارية والعسكرية (٢) .

كما يبدأ تشريع لبث عشثار Lipit-Ishtar بمقدمة تتضمن أن الإله آن والإله إنليل هما اللذان وضعاً لبث عشثار على العرش «... دعا آن وإنليل لبث عشثار ، الراعي الصالح الذي نطق باسمه نونامير Nunamir (إنليل) ليشو لي إماراة البلاد لكي يقيم العدل فيها ، ويقضي على الشكوى ، ويدمر العصاة ، ولكن ينشر الرخاء بين السومريين والآكديين (٣)»... كما أن التشريعات ومن بعدها التقنيات ، كانت تنتهي بصب اللعنات على من يخالفها ، وتتوعد بالعقوبات الشديدة الدنيوية . وفي الإمكان معالجة التشريعات العراقية القديمة وفقاً لترتيبها التاريخي .

ففيما يختص بتشريع أوروكاجينا Urukagina ، فقد تم العثور على أربع نسخ منه في اطلال مدينة لجش Lagash عام ١٨٧٨ (٤) ويلاحظ أن أوروكاجينا قد هدف من وراء تشريعه هذا إلى تطبيق العدل الاجتماعي

(1) Finkelstein, J.J., "The Laws of Ur-Nammu," (in) A.N.E.T., Princeton, 1969, p. 523.

(٢) صويل كريم ، المرجع السابق ، ص ١١٩ .

(3) Kramer, S.N., Lipit-Ishtar Law Code, "Prologue", (in) A.N.E.T., Princeton, 1969, P. 159.

(٤) صويل كريم ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

حيث نلمس اهتمامه بحماية الطبقات الفقيرة من المستغلين وجباة الضرائب إلى الدرجة التي يمكن القول معها بأنه «لم يعد هناك جاب للضرائب» (١) . كما استطاع أوروكاجينا أن يخفف الاعباء الملقاة على عاتق بعض الطبقات الكادحة من قبل الحكام والكهنة (٢) . وكان من بين تلك الطبقات الملاحين وصيادى السمك والفلاحين والرعاة حيث اعفوا من دفع الفضة التي كانت مفروضة عليهم . كما احتوى تشريع أوروكاجينا على قائمة اجبارية بالأسعار والأجور (٣) . وقد قضى بقانونه على استغلال الاغنياء للفقراء . فمثلا ، إذا حدث أن «بيت الرجل الوضع كان بمحور بيت الثرى الكبير ، وقال الرجل الكبير له أريد أن ابتاعه منك ، وإذا أصر الرجل الكبير على شرائه وأجابه الرجل الوضع : ادفع لى الثمن الذى أراه مناسباً ، ولكن لم يوافق على شرائه الرجل الكبير ، فلا يحق لذلك الرجل أن يملك على بيت الوضع (٤)» .

وقد تطلب اصدار تلك التشريعات اجراء بعض التعديلات فى النظام الادارى والغاء بعض المناصب ... فى حدود مملكة الاله ننجرسو Ningirsu وحتى البحر ، كان هناك مفتشون ، الفيت مناصبهم (٥)

وعلى الرغم من أن تشريعات اوروكاجينا قد حققت أهدافها الاجتماعية الا أنه سرعان ما ذهب أوروكاجينا واصلاحاته ، عندما سقطت مدينته على يد لوجال زاجيرى Lugal Zagisi حاكم مدينة أوما .

(١) مسويل كيرير ، نفس المرجع ، ص ١١١ .

(2) Gadd, C.J., "The Cities of Babylonia", (in) C.A.H., Vol. 1, Part 2A, Cambridge, 1971, P. 141.

(3) Gadd, C.J., "Hammurabi and the End of his Dynasty", (in) C.A.H., Vol. 11, Part 1, Cambridge, 1973, P. 190.

(٤) مسويل كيرير ، المرجع السابق ، ص ١١١ .

(5) Gadd, C.J., "The Cities of Babylonia", (in) C.A.H., Vol. 1, Par 2A, Cambridge, 1971, P. 141.

وفيا يتعلق بتشريع اورنامو ، فقد أصدره الملك اورنامو لكي يضمن تطبيق العدل في البلاد والعمل على اصلاح احوال رعاياه (١) . والتشريع مكتوب باللغة السومرية القديمة . وقد بدأ هذا الملك حكمه قبل الملك حورابي بحوالى ثلاثة قرون . ويعتبر تشريعه حتى الآن أقدم النصوص التشريعية القديمة المعروفة لنا . وقد دون على لوح نفر (٢) الموجود حالياً بين مجموعات الشرق القديم في امتانبول . واللوح ينقسم إلى ثمانية أعمدة يوجد أربعة منها في كل وجه . ولكن أقل من نصف محتوياته الأصلية مازال سليماً . ان وجه اللوح الأكثر وضوحاً يحتوى على مقدمة يجعله أقل احتواء على المادة القانونية . أما النص B فيحتويه كسرتين تحملان رقمي u. 7739 و u. 7740 وقد عثر عليهما في اور ونشرهما جرفي Gurney و كرامر (٣) kramer

أما فيما يختص ببنود هذا التشريع ، فقد ترجم فنكلستين (٤) Finkelstein ثمانية وعشرين مادة حيث لم يتمكن من ترجمة باقى النص لتهمشه . وأحد هذه المواد تتعلق بالاثبات بالبينة عن طريق الامتحان بالالقاء في النهر (٥) . وهذه طريقة كانت تمارس في العصور القديمة وبوجه خاص في الاتهام الخاص

• قام كرامر باستنساخ وترجمة لوح منقوش بأجزاء من شريعة أورنامو
أنظر : TextA, Ni 3191.

Kramer, S.N., (in) *Orientalia*, XXIII, 1954, PP. 40ff.

(١) صويل كرامر ، المرجع السابق ، ص ١١٩ .

(٢) صويل كرامر ، نفس المرجع ، ص ص ٤٢٠ ، ٤٢١ ، أشكال

٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ .

أنظر

(3) Gurney, O.R., and Kramer, S.N., (in) *A.S.*, XVI, Chicago, 1965, PP. 13—19.

(4) Finkelstein, J.J., *Op. Cit.*, PP. 523—525.

(5) Finkelstein, J.J., *Ibid.*, P. 524.

عمارة أعمال السحر (١). وقد تضمن قانون حمورابي (في مادته الثانية) (٢) هذه البينة بدورها. وتتضمن مادة أخرى مكافئة من يعيد العبد الآبق إلى سيده. أما باقي المواد فتبين مبدأ الدية الاجبارية. وهذا تكون الدية قد سبقت القصاص منذ عام ألفين ق. م.

ونورد فيما يلي ترجمة لنصوص الدية (٣) :

— إذا رجل ضد رجل ... بآلة ... قطع القدم فعليه أن يؤدي ١٠ شبقلات من الفضة .

— إذا كسر رجل عظام رجل آخر بالسلاح ، فسوف يؤدي له مينا .
واحداً من الفضة .

— إذا قطع رجل أنف رجل يسكن نحاس فسوف يؤدي ثلثي المينا من الفضة .

ويعلق كرمير على اعتناق تشريع اورنامو لمبدأ الدية بقوله ، ان هذا القانون أكثر انسانية من قانون حمورابي نفسه . (٤) كما يلاحظ البعض الآخر أن قانون حمورابي الأكثر حداثة جاء أكثر تأخراً في هذا المجال ، وهو تطور عكس الملاحظ في تاريخ القانون الجنائي (٥) وقد نشر مؤخراً جزئين من

(١) صويل كرمير ، المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

(2) Meek, T.J., "The Code of Hammurabi", the Laws, (in) A.N.E.T. Princeton, 1969, P. 166.

(3) Finkelstein, J.J., Op. Cit., P. 524.

« وحدة الأوزان عند المصريين وتنقسم إلى ستين شاقلا ويبلغ وزنها حوالي ٥٥٠ جرام .

(٤) صويل كرمير ، المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

(٥) عبد المجيد محمد الحفناوي ، المرجع السابق ، ص ٢٥٤ .

الواح عثر عليها في أور (١) تتناول بعض مواد من شريعة أورنامو التي تتعلق بالعقوبات المفروضة في حالة المرأة التي ترتكب الفاحشة ، والبنت المستعبدة التي تضع نفسها في مستوى ميدها (٢) وفي حالة الاعتداء على أرض الغير .

أما فيما يخص بقوانين اشنونا (٣) Eshnunna (بلالاما) ، فقد عثر على أجزاء من هذا التشريع في اشنونا بين عامي ١٩٤٥ ، ١٩٤٧ (٤) مدونا على لوحين من الطين في تل أبو حرميل . . . وقد نسب البرشت

أنظر :

(1) Gurney, O.R., and Kramer, S.N., "Two Fragments of Sumerian Laws" (in) Studies, ... Landsberger, P, 13 ff.

(2) Gadd, C.J., "Babylonia C. 2120—1800 B.C.", (in) C.A.H., Vol. 1, Part 2B, Cambridge, 1971, R. 598.

علق على قوانين أورنامو كل من كورسكو و. Korosec, V. وكليما J. Klima وفنكلستين أنظر

Finkelstein, J.J.; (in) J.C.S., 22, 1968—1969, PP. 66ff.

ترجمة هذا القانون

(٣) طه باقر ، قانون جديد من تل أبو حرميل ، مجلة سومر ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، ص ١٤٢ .

وأيضاً نجيب ميخائيل إبراهيم ، مصر والشرق الأدنى القديم ، حضارة العراق القديمة ، الجزء السادس ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ص ٤٥ - ٤٩ .

والقانون محفوظ حالياً بالمتحف العراقي تحت رقم ٥١٠٥٩ ، ٥٢٦١٤ .
كانت مدينة أشنونا تقع عند تل أسمر ، حيث أجريت حفائر على يد المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو

Goetze, A., "The Laws of Eshnunna", (in) A.N.E.T., Princeton, 1969, P. 161.

(4) Moscati, S., Ancient Semitic Civilization, London, 1957.

ترجمة العربية السيد يعقوب بكر ، وراجعه محمد أنقاص بعنوان «الحضارات السامية القديمة» القاهرة ، ص ٩٦ .

.. كانت أبو حرميل جزءاً من مملكة أشنونا التي كانت تشغل منطقة ديال شرق بغداد والتي ازدهرت في المرحلة الواقعة بين سقوط دولة أور الثالثة (حوالي القرن ق.م.) وقيام إمبراطورية حمورابي .

جوتز (١) Albrecht Goétze هذا التشريع إلى ملك يدعى
 يلالاما ، ثم عدل عن هذه التسمية ونسبها إلى مدينة اشتونا . والتشريع مدون
 باللغة الأكديّة (٢) ويتضمن مقدمة وسنين مادة تعالج عدة موضوعات كالزواج
 والطلاق (٣) والوديعة والاجارة وتحديد أسعار بيع السلع الرئيسية . كما تتضمن
 جانباً ملحوظاً من الأحكام العقابية مثال ذلك (٤) (مادة ٢٣) إذا لم يكن
 لرجل دعوى قبل آخر ومع ذلك استرهن جاريته واحتجزها في بيته ثم قتلها
 فانه يدفع مقابلها جارين له . (مادة ٢٤) إذا لم يكن له دعوى قبله ومع ذلك
 احتجز زوجة موشكينوم • Mushkenum أو طفلاً له وقتلها ، فان
 هذه جريمة كبرى ... إن المحتجز يقتل .

وقد أخذ هذا القانون مبدأ الدية في جرائم الايذاء ، فنص على أنه إذا
 عض انسان أنف آخر وقضمه فقطله ، فانه يدفع مينا من الفضة . وللعين
 يدفع مينا من الفضة ، وللسن نصف مينا ، وللأذن نصف مينا ، والالطمة
 على الوجه عشر شواقل من الفضة (مادة ٤٢) .

كذلك نص هذا القانون على بعض الجرائم ضد الأموال . مثال ذلك :
 ان من يقبض عليه في حقل (موشكينوم) اثناء المحصول خلال النهار يدفع

(1) Goétze, A., Op. Cit., PP. 161—163.

أنظر

Goétze, A., "The Laws of Eshnunna" (in) Ann. A.S.O.R., 31, New
 Haven, 1956, PP. 4ff and 21f.

(2) Gadd, C.J., "Hammurabi and the End of his Dynasty", (in) C.A.H.,
 Vol. 11, Part 1, Cambridge, 1973, P. 187.

(3) Gadd, C.J., Ibid., P. 188.

(4) Goétze, A., Op. Cit., P. 162.

• من التصلين بالقصر أو المعبد .

١٠ شواقل من الفضة . ومن يمسك به ليلاً هناك يقتل ولا يخرج حياً .
(مادة ١٢) .

وتعتبر شريعة اشنونا أقدم شريعة قسمت المجتمع العراقي القديم إلى ثلاث طبقات (١) هي الاشراف (اويلم Awilum) وطبقة الاحرار من عامة الشعب (موشكينو) والأرقاء أو العبيد اردو (العبد) وامتو (العبد) .

وفى يتعلق بشريعة لبث عشتار (ايسين) فقد اصدرها خامس ملوك ايسين . وقد سجلت هذه الشريعة على لوح طيني مجفف بالشمس (٢) ، وجدت نسخ منها مدونة على سبعة ألواح طينية بالخط المسماري وباللغة السومرية . ، عثر على ستة منها في نيبور وموجودة بمتحف الجامعة بلندن ، أما السابعة فوجودة حالياً بمتحف اللوفر . وبالنسبة لمحتويات هذه الشريعة ، فقد جمعها فرنسيس ستيل F. Steele وصمويل كرايمر (٣) ثم نشرت ١٩٤٨ (٤) حيث ظهر أنها تشتمل على مقدمة كما سبقنا الإشارة

(١) اندوار غالى الذهبى ، تاريخ النظم القانونية والاجتماعية ، بنغازى ، ١٩٧٦ ، ص ١٠٤ .

(٢) صمويل كرايمر ، المرجع السابق ، ص ١١٥ .

• ومن المحتمل أن تكون هناك نسخة بالأكادية قد نشرت

Gadd, C.J., "Babylonia C.2120-1800 B.C.", (in) C.A.H., Vol. 1, Part 2B, Cambridge, 1971, P. 635.

(3) Steele, F.R., "The Code of Lipit-Ishtar", (in) A.J.A., 52, 1948, PP. 425—450. and Kramer, S.N., The sumerians, Their History Culture and Character, Chicago, 1963, PP. 336ff.

(٤) طه باقر ، قانون لبث عشتار ، مجلة سومر ، المجلد الرابع ، الجزء الثانى ١٩٤٨ ، ص ٤ .

وخاتمة . وعلى عدد من المواد لم يبق منها سوى ثمانية وثلاثين مادة (١) المواد الثلاث الأولى منها غير واضحة . أما المادتان الرابعة والخامسة فيبدو أنهما تعالجان الملاحاة النهرية ، والمادة السادسة مشوهة . وتتعلق المادتان السابعة والثامنة بزراعة الحقول وبساتين الفاكهة . أما المادة التاسعة ، فتعاقب من يدخل بستان رجل آخر ، يقبض عليه كاللص ، ويدفع عشر شواقل من الفضة . أما المادة العاشرة ، فتعاقب من يقطع شجرة من حديقة رجل آخر ، بدفع نصف مينا من الفضة . والمادة الحادية عشرة ، تناول العلاقة بين صاحب المنزل وصاحب الأرض الفضاء المجاورة له . والمواد ١٢ ، ١٣ ، ١٤ تتعلق بالعيد . أما باقى المواد فبعضها يعالج معاقبة الواشى ، والبعض الآخر يعالج الميراث والزواج والتعويض الواجب دفعه فى حالة الاصابات .

ونرى الباحثة التعرض إلى مثال تطبيقى يبين الجانب القانونى لاحدى قضايا (٢) القتل وطريقة تصرف المحكمة حيال القتلة وشريكهم . ففى تلك القضية ، قام ثلاثة رجال هم نانسج Nanna-Sig ابن لو - سن Lu-Suen وكو - انليلا Ku-Enlilla ابن كونانا Ku-Nanna الحلاق وانليل انام Enlil-ennam ابن اددا كالا Adda-Kalla البستاني بقتل لو اناننا Lu-Ioanna ابن لوجال أورو Lugal-Uru الذى كان يعمل موظفا بالمعابد . ثم قام القتلة باختيار زوجة القتل نين دادا Nin-dada ابنة لونيورتا Lu-Ninurta بمقتل زوجها . وعلى الرغم من عدم قيام الزوجة

• ورد بالخاتمة ما يلى

«الحق أنى بالاتفاق مع كلمة الحق أوتر ، جعلت سومر وأكد تتسكان بالعدالة الحقنة ...

كما أحلت العدل والحق وأقررت العدالة والخير ...»

Kramer, S.N., "Lipit-Ishtar Law Code", (in) A.N.E.T., Princeton, 1969, P. 161.

(1) Kramer, S.N., Ibid., PP. 159—161.

(2) Finkelstein, J.J., Documents From the Practice of Law, "Additional Mesopotamian Legal Documents, (in) A.N.E.T., P. 542.

بإبلاغ السلطات بهذه الجريمة . ، إلا أن الملك أور نينورتا Ur-Ninurta ملك ايسن عندما بلغه خبر تلك الجريمة ، أحال القضية إلى مجمع المواطنين في مدينة نيبور الذي قام بتشكيل محكمة للفصل في تلك القضية . وفي هذا المجمع قام تسعة لينااضوا المتهمين ، وانجهوا إلى مقاضاة الزوجة لأنها ظلت ساكنة تكتم أسر المتهمين ، فهي إذن شريكهم... طالما أن هؤلاء الرجال قد اشترى كوا في قتل الحنبي عليه ، لابد أن يلحقوا حتفهم ، الرجال الثلاثة وكذلك الزوجة (١) على أساس أن الزوجة ظلت ساكنة ولم تقم بالإبلاغ عن جريمة القتل ، واعتبرت أن سكوتها يفوق جرم شركائها الآخرين .

وبالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه ، ينبغي التعرض إلى مجموعة القوانين السومرية (٢) التي يشير إليها نص على لوحة (٣) نشر منذ ما يزيد عن مئتين عاماً . وكان من المعتقد أنه يمثل جزءاً من قانون أصدره حاكم قبل عبيء خوراني . وفي الواقع فإن النص يشمل مجموعة من القوانين والأحكام القانونية تضمنها كتاب مدرسي في العصر البابلي القديم (حوالي ١٨٠٠ ق . م) ومحتويات وجه اللوح لم تنشر قبل ذلك لسوء حالتها . ومهما كان الأمر ، فإن السطور القليلة الواضحة تحتوي على بعض الأحكام القانونية الغير مترابطة مثل الاجارة واختفاء الحيوانات .

« عثر على محاكمة المتهمين بترك الجريمة منقوشاً على لوح طيني ومكتوباً باللغة السومرية وذلك عام ١٩٥٠ على يد بعثة المعهد الشرق بجامعة شيكاغو ومتحف جامعة بنسلفانيا كما عثر على نسخة أخرى من الوثيقة نفسها في خرائب نيبور بواسطة بعثة متحف بنسلفانيا مما يؤكد أن قضية «الزوجة الساكنة» كان يسجل سابقة قضائية مشهورة .

صويل كريم ، المرجع السابق ، ص ١٢٢ ،
أنظر

- (1) Jacobsen, T., *Analecta Biblica*, XII, 1959, pp.133ff. and Chiera, E., *Old Babylonian Contracts*, 1922, No. 173.
- (2) Finkelstein, J.J., „Sumerian Laws-YBC 2177“, (in) A.N.E.T., Princeton, 1969, pp. 525. 526.

أنظر

- (3) Clay A.T., *Yale Oriental Series, Babylonian Texts*, Vol. 1, No. 28 . and Finkelstein, J.J., (in) *J.A.O.S.*, Vol. LXXXVI, New Haven, 1966, pp.357ff.

وتوجد ترجمة لمحتويات ظهر اللوح المشار اليه تحتوى على بعض القوانين .
وقد جاء بمجموعة القوانين السومرية أحكاماً منها ما يتعلق بالابن الذى
يترك من أبيه وأمه ، فيعاقب الابن بطرده من المنزل وربما يبيعه (مادة ٤) .
وحالة الأم والأب اللذان يتركان من ابنيهما فيعاقب الابن بطرده من المنزل
والمدينة (مادتان ٥ ، ٦) .

أما بالنسبة لشرعية حمورابى ، فتعتبر الشريعة أعظم وثيقة قانونية تم
اكتشافها حتى الآن نظراً لكثرة أحكامها التفصيلية وسلامة معظم نصوصها .
وواضح هذه الشريعة هو الملك حمورابى الذى يعتبر حكمه أزهى فترة فى
تاريخ المملكة البابلية القديمة . ويعتبر قانونه (١) الخالد تجسداً لأغلب
ما تضمنته القوانين السابقة عليه . وهو مدون على لوحة من حجر الديوريت
الأسود فى قته رسم بارز يمثل الملك حمورابى وهو يتلقى التكليف بوضع
القانون من اله العدل شمش اله الشمس . وقد حل الغازى العيلامى شوتروك
ناهونتى Shutruk Nakhunte (حوالى ١٢٠٧ - ١١٧١ ق . م .)
هذه اللوحة مع غيرها من الغنائم والأصنام إلى سوسة . Susa . وقد
عثر بعثة آثار فرنسية على اللوحة (٢) فى شتاء ١٩٠١ - ١٩٠٢ وحملها
إلى متحف اللوفر كغنيمة تنتقيب عن الآثار . وقد نشرت نصوص هذا
القانون وترجمت إلى الفرنسية بواسطة انقس شيل Scheil عام ١٩٠٢ (٣)

(1) Meek, T., Op. Cit., pp. 163—180.

• سوسة هى العاصمة القديمة لمملكة عيلام .

(2) Pritchard, J.B., The Ancient Near East, An Anthology of Texts and
Pictures, Vol. 1, Princeton, 1973, Fig. 59.

أنظر

(3) Scheil, V., Mémoires de la délégation en Perse, iv, 1902, pp. 11ff.

وعقب على الشريعة كل من دريفر وميلز (١) . هذا وقد يحى العيلاميون نصوص المواد من نهاية نص المادة ٦٥ حتى بداية نص المادة ١٠٠ . ومع هذا فقد أمكن العثور على نصوص هذه المواد في نسخة أخرى مكتوبة باللغة السامية (٢) ومن المعلوم أن الملك حمورابي قد أمر بتدوين نسختين مختلفتين بعض الشيء للقانون ، ويفصل بينهما مدة لا تقل عن خمس سنوات . وكانت لوحة اللوفر هي النسخة الثانية (٣) وفيها يتعلق بوصف لوحة حمورابي يمكن ملاحظة تواجد نقش في الجزء الأعلى يظهر فيه حمورابي واقفاً مرتدياً عباءة ورافعاً يده اليمنى في مواجهة الإله شمش (٤) الذي يبدو في النقش جالساً على العرش وقدميه ترتكزان على قاعدة مرتفعة (٥) .

وتتكون اللوحة من ثلاثة أجزاء - مقدمة ، يتلوها صلب القانون الذي لم يبق منه سوى ٢٨٢ (٦) مادة مكتوبة في شكل أعمدة ، ويبلغ عدد سطورها ٣٦٠٠ سطراً ، وتنتهي بخاتمة . وفي المقدمة إشارة إلى أن الإلهة فوضت حمورابي مهمة نشر العدل في البلاد .

« ... أنا حمورابي ، المكرم ، الأمير الذي يخاف الإله ،
لأقيم العدل حتى يسود الأرض ،

أنظر

(1) Driver, G.R., and Miles, J.C., The Babylonian Laws, Vol. 1, Legal Commentary, Oxford, 1952.

(2) Breasted, J.H., The Conquest of Civilization, 1926, 1938.

نقله إلى العربية أحمد فخري ، بعنوان «انتصار الحضارة» تاريخ الشرق القديم ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ١٩٠ .

(٣) أدوار غالي الشهيق ، المرجع السابق ، ص ١١١ .

(4) Frankfort, H., The Art and Architecture of the Ancient Orient, London, 1954, p. 59.

(5) Thompson, R.C., "Isin, Larsa and Babylon", (in) C.A.H., Volume of Plates 1, Cambridge, 1927, P. 66.

(٦) أحمد فخري ، دراسات في تاريخ الشرق القديم ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٣٦ .

ولأقضى على الشر والسوء ،
 حتى لا يظنى القوي على الضعيف ...
 أنا محبوب ابنا
 حين أرسلنى مردوك لأقود الشعب فى طريق الحق ،
 ولأدير البلاد ،
 وضعت أسس القانون والعدالة فى لغة الأرض .
 مستهدفاً صالح الشعب (١) ... » .

وعلى الرغم من أن تلك المقدمة مجدت الآلهة ، إلا أن نصوص القانون لم تخل بهم ، حيث جاءت بقواعد علمانية بعيدة عن الصبغة الدينية .
 ولذلك فإن قانون حمورابى يختلف من هذه الزاوية عن القوانين الدينية مثل القانون الهندى (٢) .

وفى خاتمة الشريعة ، يعلن حمورابى « .. أنا حمورابى ، الملك الكامل ،
 الذى لم يهمل ذوى الشعور السوداء ،
 الذين قدمهم لى انليل ،
 والذى عهد إلى بهم راعيهم مردوك ، ...
 لقد عينى كيار الآلهة ،
 ومن ثم أصبحت الراعى الخير ، الذى يعنى صولجى الحق ، ...
 وحلت فى صدرى شعوب أرض سومر وأكد ، ...
 وحكمتهم فى سلام ، ... » .

(١) Meek, T.J., "The Code of Hammurabi", The Prologue, (in) A.N.E.T., Princeton, 1969, pp. 164—165.

(٢) عبد المجيد عبد الفتارى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .

حتى لا يظنى القوى على الضعيف
وحتى تتحقق العدالة ... ، ...
لقد سجلت كلماتي القيمة على لوحى ،
في حضرة تمثالى ، كملك للعدالة ،
وأقنها لتشرع القانون فى الأرض ، ...
ولتعطى العدالة للمظلوم
أنا حمورابى ، ملك العدل ،
قدم شمس إلى القوانين (١) .»...

كما تتضمن الخاتمة كذلك الاشارة بفضائل حمورابى ، وتعداد نعمائه
ودعوة خلفائه من بعده ألا يبدوا عمله ، ويدعو الالهة إلى أن تنزل اللعنة
على من يشوه نصوص القانون أو يغير منها شيئاً (٢) .
ويمكن القول بأن حمورابى قد جمع جزءاً من شريعتى القوانين والتشريعات
العراقية السابقة مثل شريعة اورنامو وشريعة اشوناء وشريعة لبث عشتار ، ثم أضاف

-
- (1) Meek, T.J., The Code of Hammurabi "The Epilogue", (in) A.N.E.T.,
PP. 177—178.
(2) Meek, T.J., Ibid, PP. 178—179.

أنظر

Harper, R.F., The Code of Hammurabi, Chicago, 1904.

• نجد القواعد التى بنى عليها حمورابى المشولية عن فعل الحيوان وعن تدمير البناء ، قد
أخذت بها بعض التشريعات السابقة مثل قانون اشوناء . فمثلاً فيما يختص بالمشولية عن فعل الحيوان
نرى المادة ٢٥٠ من قانون حمورابى تنص على أنه «إذا نطح ثور رجلاً أثناء مسيره فى الشارع
فإن الرجل فليس الأمر موضع دعوى» .

أما المادة ٢٥١ فنصت على أنه «إذا كان ثور لرجل مروحاً بالنطح وأخطره بذلك مجلس
مدينته ولكنه لم يحفظ قرينة أو يربطه ثم نطح الثور واحداً من البلهاء فإنا نضع نصف مينا
من الفضة» . «وإذا كان المقتول عبداً فإنه يدفع ثلث مينا من الفضة» (مادة ٢٥٢) .

عليها حمورابي الكثير من المواد الأخرى ، فجاء تشريعه كاملاً (١) لتنظيم المجتمع وحمايته .

ويبدو أن تشريع حمورابي كان متقدماً على عصره ولا سيما فيما يتعلق بالتعريفات القانونية للأجور (٢) ويتضح ذلك في (مادة ٢٥٧) إذا استأجر رجل مزارعاً ، فإنه يعطيه ٨ كور من الحبوب كل سنة . وحددت المادة (٢٥٨) أجر راعي الغنم ٦ كور من الحبوب كل سنة والمادة (٢٦١) حددت الأجرة السابقة بأنها ٨ كور من الحبوب كل سنة . أما المادة (٢٧٣) فقد حددت أجور العمال الموسمين . وحددت المادة (٢٧٤) أجور صانع الطوب والفساج وصانع الأختام والجواهرجي والحداد وصانع الجلود وصانع السلال والبناء .

وعلى الرغم من تحديد الأجور في شريعة حمورابي ، إلا أن تلك المواد جاءت أكثر وضوحاً في تشريع اشنونا (٣) .

وبالنسبة لقانون العقوبات ، فقد كانت الجريمة والعقوبة متطورتين

٥٥ . وتقابل هذه النصوص في قانون اشنونا المادتان ٥٤ ، ٥٥ .

مادة ٥٤ : إذا عرف عن ثور عادة الناطحة ووصل إلى السلطات بآ معرفة صاحبه بذلك ومع ذلك فإنه لم يقتطع قرنية ثم ناطح الثور رجلاً وقتله فإن صاحبه الثور يدفع ثلثي مينا من النضة .
ومادة ٥٥ : «أن نطح عبداً فقتله فإنه يدفع ١٥ شاقلاً من النضة .

أما بالنسبة لمسئولية البناء فقد تناولها قانون حمورابي في المواد ٢٢٩ - ٢٣٣ . وتتناولها المادة (٥٨) من قانون اشنونا . وهذه المواد تشترط أن مسئولية من أقام البناء ومسئولية صاحب البناء لا بد لقيامها من ذوات الخطأ .

- (1) Moscati, S., The Face of the Ancient Orient, A Panorama of Near Eastern Civilization in Pre-classical Times, U.S.A., 1962, P. 89.
- (2) Driver, G.R., and Miles, J.C., Op. Cit., pp. 469f.
- (3) Gadd, C.I., "Hammurabi and the End of His Dynasty", (in) C.A.H., Vol. 11, Part 1, Cambridge, 1973, p. 190.

بحيث كانت الدولة لا الأفراد هي التي تشرف على تحديد الجرائم وتوقيع العقوبات الا أنه يؤخذ على هذا القانون شدة تلك العقوبات . فعلى سبيل المثال نص التشريع المذكور على تطبيق عقوبة الاعدام في حالة الجرائم الآتية :

شهادة الزور في قضية تنصل بالحياة (مادة ٣) إذا شهد شاهد بشهادة زور في قضية ولم يستطع اثبات قوله وكانت القضية تنصل بالحياة يقتل . والسرقة من المعابد أو أموال النحلة (مادة ٦) إذا سرق رجل متاع معبد أو متاع الدولة ، فانه يقتل . وكل من وضع يده على متاع مسروق يقتل . واختفاء الاشياء المسروقة (مادة ٧) إذا اشترى وجل أو أخذ كأمانة ذهباً أو عبداً أو جارية أو ثوراً أو نعجة أو جحشاً أو أى شئ آخر من يد ابن رجل آخر أو عبده بغير شهود أو عقود ... فهو لص ... ويقتل . وبجانب تطبيق عقوبة الاعدام في كثير من الجرائم ، فقد نص هذا التشريع على بتر الأعضاء كعقوبة .

(مادة ١٩٥) إذا ضرب ولد أباه تقطع يده .

وهذه العقوبات القاسية إذا قورنت بما جاء في قانونى اورنامو واشنونا تصف قانون حمورابى بالتخلف في هذه الناحية . ولو أن تطور هذا القانون في خلال المراحل الزمنية التي طبق فيها كان يدعو إلى التغلب على هذه القسوة باستبدالها بالرحمة ، وعلى العقوبات البدنية باستبدالها بالغرامات المالية (١) .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن شريعة حمورابى لم تتضمن قواعد عامة مجردة كما هو الشأن في التشريعات الحالية ، بل تناولت مسائل محددة للغاية يتعلو إيجاد حلول للمسائل الأخرى الثرية منها . فعلى سبيل المثال فاننا نلمس في المادة السابقة (١٩٥) التي تعاقب الابن بقطع يده إذا ضرب أباه لا نجد أى مادة أخرى تتحدث عن قتل الوالدين . كما لا توجد مواد تتناول البيع

(١) ادوار غال الذهبى ، المرجع السابق ، ص ١١٨ .

الا بطريقة عرضية فبما يختص بالأشياء المكتسبة التي لا يجوز التصرف فيها كحقول الجندي أو دستانه أو متعلقات بيته (مادة ٣٦) .

ويرى البعض أن الحالات الأخرى غير المنصوص عليها في قانون حورابي ، كانت تعالج حسب القواعد العرفية والتشريعية التي كانت تحتويها القوانين السابقة على قانون حورابي ما لم يأت القانون الأخير بنص يخالفها (١)

وأياً كان تقويمنا لهذا التشريع ، فإننا نسجل عليه أنه لم يعالج كافة مظاهر الحياة الاجتماعية السائدة في عصره ، وأنه كان يعنى بفروض قضائية تفصيلية ، لا بمبادئ عامة مجردة (٢) لهذا فقد كانت مواده تبدأ بهذا الاصطلاح شوما Shumma أى «إذا فرض أن» (٣) وأن مصادره كانت متعددة ، عرفية قديمة ، وأحكاماً قضائية ، وقواعد تشريعية مستحدثة .

أما من حيث الترتيب ، فقد نهج حورابي نهج تشريع لبت عشار في تقسيم التشريع إلى ثلاثة أجزاء : الجزء الأول مقدمة ، والثاني المضمون ، والثالث الخاتمة . وأما الأسلوب ، فهو موجز ورائع . وتتميز المقدمة والخاتمة بأسلوب شبه شعري (٤) كما يتضح للباحث عند دراستها للتشريع حورابي درجة اتقانه سواء من حيث الصياغة أم من حيث المضمون .

وفي الامكان العرض لبعض النماذج المعبرة عن درجة هذا الاتقان في تلك المواد التي تعالج أسس المسؤولية الجنائية . ونحن نعلم أن القوانين الفرعونية كانت تقيم المسؤولية الجنائية على دعامين هامين هي المساواة بين جميع المصريين أمام القانون دون تفرقة بين مواطن وآخر ، والتعويل على الارادة في المسائلة الجنائية .

(١) ادوار غال الفدي ، نفس المرجع ، ص ١١٥ .

(٢) Moscati, S., Op. Cit., p. 89.

(٣) ادوار غال الفدي ، المرجع السابق ، ص ١١١ .

(٤) Meek, T.J., Op. Cit., p. 164.

أما شريعة حمورابي ، فقد ملكت مسلماً آخر إذا أسست المسؤولية الجنائية على دعائم ثلاثة هي :

(أولاً) تدرج العقوبة وفقاً للمركز الاجتماعي للمذنب .

(ثانياً) اعتناق مبدأ المسؤولية الجماعية ، واهدار الأخذ بالمسؤولية الإرادية وحدها .

(ثالثاً) الأخذ بمبدأ الثأر «القصاص» وحده دون إفساح مجال الدية بصفة عامة .

ففيما يتعلق بتدرج المساءلة الجنائية تبعاً للمركز الاجتماعي للمذنب ، فقد أقر تشريع حمورابي إلى تقسيم المجتمع العراقي القديم إلى ثلاث طبقات هي طبقة الأولم ، وتضم الأحرار أو السادة أو الإشراف ، وطبقة الموشكينوم وتضم الأحرار من عامة الشعب ، والثالثة طبقة الأرقاء أو العبيد وردم wardum ، وكانت لهم بعض الحقوق . ، كما كانت هناك بعض الأحكام التي بموجبها يتمكنون من الحصول على حريتهم (١) إذا توفرت ظروف معينة . وكان معيار التفرقة بين الطبقتين الأوليتين يرجع أساساً إلى مركزهم الاجتماعي ومدى ثرائهم (٢) .

* أجاز حمورابي الرقيق بعض الحقوق فيما يتعلق بالزواج وتملك الأموال (مادة ١٧٥) إذا تزوج عبد لقصر أو عبد خاص لمواطن من ابنة رجل حر ورزيت منه بأطفال ، فليس لسيد العبد حق الخدمة على الأطفال من ابنة السيد .

(مادة ١٧٦) هذا إلى أنه إذا تزوج عبد لقصر أو عبد خاص لمواطن من ابنة سيد ثم أنها دخلت حين تزويجها إلى بيت عبد القصر أو بيت عبد المواطن الخاص ببائنها وارتبطا ببعضهما ثم أسا بيتاً وأنشاء بيتاً ثم مات العبد ، فإن ابنة السيد تأخذ ببائنها ثم يقسم إلى قسمين ما اشتركت مع زوجها في شرائه بعد ارتباطهما ويأخذ صاحب العبد النصف وتأنط هي النصف لأولادها .

(1) King, L.W., A History of Babylon From the Foundation of the Monarchy to the Persian Conquest, London, 1915, p. 166.

(2) Gadd, C.J., Op. Cit., P. 197.

وقد تضمن تشريع حوراي اختلافاً في الأحكام تبعاً لاختلاف المركز الاجتماعي للمذنب . ونورد فيما يلي أمثلة لهذا الاختلاف (١)

(مادة ١٩٦) من يتسبب في اتلاف عين عضو من جماعة النبلاء تقطع عينه .

(مادة ١٩٧) من يكسر عظمة رجل آخر تكسر عظمته .

(مادة ١٩٨) من يفقد رجلاً من العامة عينه أو إحدى عظامه يدفع مئة من الفضة .

ولقد سبق لقانون اشنونا أن أخذ بالفرقة في المسؤولية تبعاً للمكانة الاجتماعية للمذنب (مادتي ٢٣ و ٢٤) . . الأمر الذي دل على أن تشريع حوراي كرم هذه الفرقة ولم يبتكرها .

وهناك فرقة أخرى ترجع إلى المهنة . فقد فرق قانون حوراي في المعاملة العقابية بين ذوي المهن المختلفة . ونورد فيما يلي مثالا لهذه الفرقة وردت في المواد ٢١٨ - ٢٢٠ . (مادة ٢١٨) إذا باشر طبيب عملية كبرى لرجل بسلاح برونزي وتسبب في موته ، أو فتح خراجاً بعينه فأثلفها ، تقطع يده . (مادة ٢١٩) إذا كانت العملية لعبد رجل من العامة ومات ، فيعوض عبداً بعبد .

(مادة ٢٢٠) إذا باشر العملية على عين العبد بالسلاح البرونزي فأثلفها يدفع نصف ثمنه من الفضة .

(1) Meek, T.J., OP. Cit., P. 175.

* مبدأ العين بالعين .

* (مادة ٢٣) إذا لم يكن لرجل دعوى قبل آخر ومع ذلك استمر من جاريته واحتجزها في بيته ثم قتلها ، فإنه يدفع مقابلها جارين له .

(مادة ٢٤) إذا لم يكن له دعوى قبله ومع ذلك احتجز زوجة « موشكينوم » أو طفلاً له وتلها ، فإن هذه جريمة كبرى ... إن المحتجز يقتل .

وعلى ذلك فقد كان الجراحون يعاقبون تبعاً لنتائج عملياتهم مع مراعاة الاختلافات المألوفة في التقدير وفقاً للطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها المريض .

أما فيما يختص باعتناق حورابي لمبدأ المسؤولية الجماعية ، فقد كانت المسؤولية الفردية تقوم أساساً على الإرادة ، إرادة الفرد للنتيجة الإجرامية . أما المسؤولية الجماعية ، فتعارض مع الإرادة لأنها تحمل الجماعة ككل ، مما قد يقع من بعضهم من إثم أو جريمة . وقد اتجه تشريع حورابي إلى فرض المسؤولية الجماعية على الأسرة والعشيرة والهيئات . وقد كانت هذه المسؤولية الجماعية تطبق في حالتين أولهما : بمجرد حدوث الجرم ، والثانية : في حالات معينة منها عدم التمكن من القاء القبض على المجرم لفراره أو لامتناع أسرته أو قبيلته عن تسليمه . ومن تطبيقات المسؤولية الجماعية تشير إلى مادتي ٢٣ ، ٢٤

(مادة ٢٣) إذا لم يضبط السارق ، فإن صاحب المتاع المسروق يقدم تفصيلات المسروقات في حضرة الإله ، وعندئذ تعوضه المدينة وحاكمها التي وقعت السرقة في ناحيتها عن متاعه المسروق .

(مادة ٢٤) إذا كان ما سرق «حياة» تدفع المدينة للحاكم مينا من الفضة تعويضاً لأهلها .

ويشير بعض المؤرخين إلى هاتين المادتين بأنهما يدلان على أن قانون حورابي قد ارتقى حتى بلغ درجة من التقدم قلما نجدها في كثير من التشريعات الحالية ، حيث لا يوجد في هذه الأيام مدينة بلغ صلاح الحكم فيها إلى الدرجة التي تفرض على المدينة تعويضاً لمن يقع عليه جريمة بسبب إهمال تلك المدينة (١) .

وبالنسبة لمبدأ القصاص ، فقد طبق تشريع حورابي مبدأ القصاص تطبيقاً

(١) ادوارد غالي الذهبى ، المرجع السابق ، ص ١١٨ .

شاملا لم يقتصر على الجرائم العمدية ، بل تجاوزها إلى الجرائم التي لم يخطئ فيها المذنب ، بل ولم يتدخل في الفعل الاجرامى ، ولم يتصل بهذا الفعل على أى وجه . وهذا ظلم بين (١) . ونورد قيا إلى مثالين (٢) : تنص المادة ٢٠٩ من هذا التشريع على أنه «إذا ضرب رجل ابنة رجل آخر وأجهضت ، يدفع ١٠ شواقل من الفضة بسبب اجهاضها .

وتضيف (المادة ٢١٠) إذا ماتت المرأة قتلت ابنته .

كما تنص المادة (٢٢٩) على أنه «إذا بنى بناء بيتاً لرجل ولم يتم البناء بحيث انهار المبنى وتسبب في وفاة صاحب البيت يقتل البناء .

كما تضيف (المادة ٢٣٠) إذا أدى ذلك إلى موت ابن صاحب البيت يقتل ابن البناء (٣) .

وبالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه : فقد حرص قانون حمورابى على أحكام الموارث . ورعاية حقوق القصر بطريقة لا نجد مثيلا لها في كثير من التشريعات الحالية ، حيث تشير (المادة ١٧٧) إذا كان لأرملة أطفال قصر وعولت على دخول بيت رجل آخر فليس لها أن تدخل دون موافقة القضاة فإنها حين تريد دخول بيت رجل آخر يتجرى القضاة حالة تركه زوجها السابق ثم يهدون إلى زوجها الثانى برعاية تركه زوجها السابق ونحرم اوحدة بينهم وبين المرأة تستهدف أنهم سيرعون التركة ويربون القاصرين دون التعرض بالبيع لمناخ البيت لأن المشتري الذى يقدم على شراء مناخ بيت أطفال أرملة ينحسر ماله ويعاد المناخ إلى أصحابه .

(١) جيس هيرى برستد ، المرجع السابق ، ص ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(2) Meek, T.J., Op. Cit., pp. 175—176.

(3) Meek, T.J., Ibid., p. 176.

• كانت التركة تقسم بين الأولاد الذكور . أما الإناث فلم يكن لهم هذا الحق إلا إذا لم يكن هناك أبناء ذكور .

Moscatti, S., Op. Cit., P. 90.

وفي الامكان التعرض لبعض الآراء التي صدرت لتقييم قانون حورابي
 فمن ناحية يعتقد البعض بأن شريعة حورابي شريعة دينية (١) ويتخذون
 دليلاً على ذلك بأن الإله شمش هو الذي أوحى بهذا القانون إلى حورابي (٢)
 ولكن البعض الآخر يعارضون هذا الرأي على أساس أن شريعة حورابي
 ليست قانوناً دينياً ، بل مجرد وسيلة لاقرار السلام بين الناس (٣) . وكذلك
 فإن تلك الشريعة لم تكن وحياً من الإله شمش أو غيره من الآلهة بدليل ما جاء
 في قوله «الاحكام المتعلقة بالعدالة وضعها الملك العظيم حورابي ، والأقوال
 الواردة بعدها تدل على أن الملك هو الذي سنّها لشعبه . أما الإشارة إلى الإله
 شمش ، فانما يدل على التقديس أو ربما تكون الإشارة إلى هذا الإله بالذات
 كإله للشمس التي كانت تتخذ شعاراً للعدالة في الاساطير القديمة على أساس
 أنها رمز كشف الحق وإزالة الظلم (٤) .

ومن ناحية أخرى ، يرى ديلاهورت بأن قانون حورابي ليس قانوناً
 بالمعنى المتعارف عليه أي من كونه مجموعة من القوانين التي تتضمن نظاماً
 كاملاً للتشريع ، وانما هو مجموعة من القرارات الملكية (٥) .

ومهما كان الأمر في حكمنا على شريعة حورابي ، يجب أن يكون في
 ضوء نظرتنا لنظام الحكم في العراق في تلك الآونة . فقد كان للملك في العراق
 صفتان : صفة كمثل الإله ، وصفته كحاكم عليه حماية مدينته ثم دولته (٦) .

(١) صلاح الدين الناهي ، تطبيقات على قوانين العراق ، مجلة سورر ، المجلد الخامس ،
 الجزء الأول ١٩٤٩ ، ص ٣٧ .

(٢) ادمار غالي الذهبي ، المرجع السابق ، ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٣) عبد المجيد محمد الحفناوي ، المرجع السابق ، ص ٣٣٧ .

(٤) عبد الرحمن الكيالي ، شريعة حورابي أقدم الشرائع العالية ، حلب ١٩٥٨ ،
 ص ١٠٣ .

(٥) ل. ديلاهورت ، بلاد ما بين النهرين ، الحضارتان البابلية والآشورية ، ترجمة
 محرم كمال ، القاهرة ، ص ١١٠ .

(٦) نجيب ميخائيل ابراهيم ، المرجع السابق ، ص ٢٧ .

وعلى ذلك ففى الامكان القول بأن تشريع حمورابى ليس تشريعاً دينياً بحتاً ، إذ أنه لم يحتو على أحكام دينية ، بل هو فى الواقع لا يخرج عن كونه قرارات ملكية صدرت فى أحكام خاصة لهذا الشعب . ولو أن هذا لم يقلل من المميزات الكثيرة لهذا القانون بدليل أنه اكتسب شهرة واسعة حيث اقتبسه العيلاميون واستخدمه ملوك آشور . كما عثر على نسخ كثيرة منه فى عصر الدولة البابلية الجديدة (الكلدانية) مما يؤكد انتشاره وتأثيره على الشعوب المجاورة وقوانينها .

وتنبئنا الإشارة إلى اعلان قانونى (١) صدر فى عهد الملك أمى زادوجا Ammisaduqa - عاشر ملوك أسرة بابل ، وذلك بغرض تطبيق العدل والمساواة فى بداية عهده . وتشمل قوانين أمى زادوجا إعادة الدين ، وإعادة الأرض إلى أصحابها . كما تنبئنا الإشارة إلى مجموعة من القوانين الآشورية التى يمكن ارجاعها زمنياً إلى العصر الآشورى الوسيط (٢) . وقد عثر عليها منقوشة على بعض لوحات طينية ، بعضها مهشم . وتاريخ هذه اللوحات يعود إلى عهد الملك تجلات بلاسر الأول Tiglath Pileser أى من القرن الثانى عشر ق . م . وأما القوانين ، فيمكن ارجاعها زمنياً إلى القرن الخامس عشر ق . م . (٣) وذلك فى حفائر البعثة الألمانية فى آشور القديمة . وفى الأعوام من ١٩٠٣ وحتى ١٩١٤ . وقد نشر منها حتى الآن احدى عشر لوحة (٤) . وبعد ذلك نشرت نصوص خمس كمرات . وتعتبر أوفى ترجمة وتعليق للقوانين الآشورية

* احتفظ آشور بنى بيل بنسخة من قانون حمورابى فى مكتبة .

ادوار غال الذهبى ، المرجع السابق ، ص ١٢١ .

(1) Finkelstein, J.J., "The Edict of Ammisaduqa," (in) A.N.E.T., Princeton, 1969, 526—528.

انظر

Finkelstein, J.J., "Ammisaduqa's Edict and the Babylonian Law Codes," (in) J.C.S., Vol. Xv, New Haven, 1961, pp. 91 ff.

(٢) سينيور مرسكان ، المرجع السابق ، ص ٩٦ .

(3) Meek, T.J., "The Middle Assyrian Laws," (in) A.N.E.T., Princeton, 1969, P. 180.

* قلعة شرجات Qalat Shergat حالياً

(4) Meek, T.J., Ibid. , pp. 180—188.

ببواسطة دريفروميلز (١) . وقد تعرضت مواد القوانين الآشورية للأحكام الخاصة بدخول المعابد وسرقة ما بها ، وعقوبات السرقة بوجه عام . وكذلك الأحوال الشخصية الخاصة بالمرأة كهذايا الزواج والميراث والطلاق . كما تناول جزء منها الأحكام العقابية في حالات السرقة والخيانة والرشوة ، وأيضاً القوانين المرتبطة بالزراعة والرعى .

وبالدراسة الموضوعية المقارنة بين القوانين الآشورية وقانون حورابى ، يمكن للباحث أن يلاحظ أن القوانين الآشورية أقسى في أحكامها ، ولكنها أقل في مستواها الحضارى مثال ذلك (اللوحة الأولى A) .

(مادة ٣) إذا مرض رجل أو مات وسرقت زوجته من بيته شيئاً ثم سلمته إلى رجل أو سيدة أو أى شخص آخر ، فإن الزوجة تعدم كما يعدم كل من تسلم منها شيئاً . أما إذا سرقت زوجة من زوجها وهو على قيد الحياة شيئاً من متعلقات بيته وأعطته إلى رجل أو سيدة أو أى إنسان آخر ، فإن الزوج يقيم الاتهام ضد زوجته ويوقع عليها العقوبة المناسبة كما أن من تسلم من يدها شيئاً يعيده وتوقع عليه نفس العقوبة التى أنزلها الزوج بزوجه .

وقد صدرت في عهد الامبراطورية البابلية الجديدة مجموعة من الشرائع (٢) عثر عليها منقوشة على لوح موجود حالياً بالمتحف البريطانى . وقد قام بنشرها وترجمتها بيزر (٣) F.E. Peiser ويحتوى اللوح على ستة عشر فقرة ، يمكن الاطمئنان إلى تسعة منها . ويفترض بيزر أن تلك القوانين إنما تعود زمنياً إلى

أنظر

(1) Driver, G.R., and Miles, J.C., The Assyrian Laws, Edited with Translation and Commentary, 1935.

(2) Meek, T.J., "The Neo-Babylonian Laws", (in) A.N.E.T., Princeton, 1969, pp. 197—198.

أنظر

(3) Peiser, F.E., (in) S.P.A.W., Berlin, 1889, pp. 823-828 and Tafel VII.

عصر آشور بانيبال Ashurbanipal . ومهما كان الأمر ، فإن طريقة صياغة تلك القوانين تشير إلى انتهاءها إلى الدولة البابلية الجديدة . هذا وقد تناولت القوانين المواد التي تتناول التعويض في حالة اغراق حقل نتيجة سوء استخدام لبئر مجاور لذلك الحقل .

مثال ذلك (مادة ٣) (السيد الذي يستخدم) بئر له لأغراض الري ولكنه لم يصنع (حاجزاً) قوياً وأدى ذلك إلى أحداث فيضان أغرق الحقل المجاور فعليه أن يدفع لمالك هذا الحقل الأخير قبحاً .

كما تناول بعض المواد الأخرى هدايا الزواج (مواد ٩ - ١٣) وكذلك الميراث بالنسبة لأولاد تزوج والدهم أكثر من مرة (مادة ١٥) .

وبذلك تكون الدراسة التاريخية لموضوع الشرائع العراقية القديمة قد أوضحت أهمية البحث في هذا المجال ، حيث أنها ألقت بعض الضوء التاريخي عن العلاقات الانسانية في المجتمع العراقي القديم . فالمجتمع لا يستقيم أمره الا إذا استوى على سنن بينه ينزل أفراد المجتمع عند حكمها . ومن هنا كان لابد للمجتمع من نظام يحكم نشاط الأفراد . هذا النظام لا يستوى الا على قواعد أمره ملزمة بحمل الأفراد على طاعتها . فالمجتمع والقانون متلازمان .

وقد تعرضت الباحثة عند دراستها لموضوع هذا البحث إلى نشأة القوانين العراقية القديمة وتطورها وأثرها في دراسة العلاقات والصلات المختلفة بين الأفراد باعتبارهم أعضاء في الهيئة الاجتماعية . وقد أثبتت نتائج هذه الدراسة تقدم الحضارة العراقية في وضع أسس الشرائع والقوانين على أساس كونها من الجهود البشرية المبكرة ، في تنظيم الحياة ووضع قواعد السلوك لأفراد المجتمع الذين امتازوا باحترامهم وتمسكهم بأحكام القوانين ، فصارت كافة المعاملات والأحوال الشخصية وفق تلك القوانين المنظمة ، مما ساعد على تحقيق العدالة في المجتمع العراقي آنذاك .

المراجع

(أ) مدلولات الاختصارات

List of Abbreviations

- A.N.E.T. = Pritchard, J.B., *Ancient Near Eastern Texts, Relating to the Old Testament*, Third Edition with Supplement, Princeton, 1969.
- A.J.A. = *American Journal of Archaeology*, Concord, N.H. etc., 1948.
- Ann. A.S.O.R. = *Annual of the American Schools of Oriental Research, Supplementary Studies*, New Haven, 1956.
- A.S. = *Assyriological Studies*, Oriental Institute University of Chicago, Chicago, 1965.
- C.A.H. = *The Cambridge Ancient History*, Third Edition, Volume 1, Part 2A and 2B, *Early History of the Middle East*, Cambridge, 1971.
—*The Cambridge Ancient History*, Third Edition, Volume 11, Part 1, *History of the Middle East and the Aegean Region C. 1800—1380 B.C.*, Cambridge, 1973.
- J.A.O.S. = *Journal of the American Oriental Society*, New Haven, 1966.
- J.C.S. = *Journal of Cuneiform Studies*, New Haven, 1961 and 1968—1969.
- S.P.A.W. = *Sitzungsberichte der Preussischen Akademie der Wissenschaften*, Berlin, 1889.

(ب) مراجع عربية :

- ١ - ادوار غالى الذهبى : تاريخ النظم القانونية والاجتماعية ،
بنغازى ١٩٧٦ .
- ٢ - أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، القاهرة ١٩٦٣ .
- ٣ - حسن كيرة : المدخل إلى القانون ، الاسكندرية ١٩٧٠ .
- ٤ - سمير عبد السيد تناغور : النظرية العامة للقانون ، الاسكندرية ١٩٧٤ .
- ٥ - صوفى أبو طالب : مبادئ فى تاريخ القانون ، القاهرة ١٩٦٥ .
- ٦ - صلاح الدين الناهى : تعليقات على قوانين العراق ، مجلة سومر ،
المجلد الخامس ، الجزء الأول ، ١٩٤٩ .
- ٧ - طه باقر : شرائع العراق القديم ، مجلة سومر ، المجلد الثالث ،
الجزء الثانى ، ١٩٤٧ .
- ٨ - طه باقر : قانون جديد من تل أبو حرميل ، مجلة سومر ، المجلد
الرابع ، الجزء الأول .
- ٩ - طه باقر : قانون لبث عشتار ، مجلة سومر ، المجلد الرابع ،
الجزء الثانى ، ١٩٤٨ .
- ١٠ - عمر ممدوح مصطفى : اصول تاريخ القانون ، الاسكندرية ١٩٦٣ .
- ١١ - عبد المجيد محمد الحفناوى : تاريخ النظم الاجتماعية والقانونية ،
الاسكندرية ١٩٨١ .
- ١٢ - عبد الرحمن الكيالى : شريعة حمورابى أقدم الشرائع العالمية .
حلب ١٩٥٨ .
- ١٣ - نجيب ميخائيل ابراهيم : مصر والشرق الأدنى القديم ، حضارة
العراق القديمة ، الجزء السادس ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦١ .

(ج) مراجع مترجمة إلى اللغة العربية .

١٤ - جيمس هنرى برستد : انتصار الحضارة ، تاريخ الشرق القديم ،
نقله إلى العربية أحمد فخرى ، القاهرة ١٩٦٩ .

١٥ - ميتينو موسكاتى : الحضارات السامية القديمة ، ترجمة السيد
يعقوب بكر ، ومراجعة محمد القصاص ، القاهرة .

١٦ - صمويل كريم : من ألواح سومر ، ترجمة طه باقر ، ومراجعة
وتقديم أحمد فخرى ، القاهرة ١٩٥٧ .

١٧ - ل. ديلاپورت : بلاد ما بين النهرين ، الحضارتان البابلية والآشورية ،
ترجمة محرم كمال ، القاهرة .

(د) مراجع أجنبية :

- 18 — Breasted, J.H., *The Conquest of Civilization*, 1926, 1936.
- 19 — Chiera, E., *Old Babylonian Contracts*, 1922.
- 20 — Clay, A.T., *Yale Oriental Series, Babylonian Texts*, Vol. 1, No. 28.
- 21 — Driver, G.R., and Miles, J.C., *The Assyrian Laws, Edited with Translation and Commentary*, 1935.
- 22 — , *The Babylonian Laws, Vol. 1, Legal Commentary*, Oxford, 1952.
- 23 — Finkelstein, J.J., "Additional Mesopotamian Legal Documents", (in) *A.N.E.T.*, Princeton, 1969.
- 24 — , "Ammisaduqa's Edict and the Babylonian Law Codes", (in) *J.C.S.*, Vol. XV, New Haven, 1961.
- 25 — , (in) *J.A.O.S.*, Vol. LXXXVI, New Haven, 1966.
- 26 — , "Sumerian Laws-YBC 2177, (in) *A.N.E.T.*
- 27 — , "The Edict of Ammisaduqa", (in) *A.N.E.T.*
- 28 — , "The Laws of Ur-Nammu", (in) *A.N.E.T.*, Princeton, 1969.
- 29 — Frankfort, H., *The Art and Architecture of the Ancient Orient*, London, 1954.
- 30 — Gadd, C.J., "Babylonia C. 2120—1800 B.C.", (in) *C.A.H.*, Vol. 1, Part 2B, Cambridge, 1971.
- 31 — , "Hammurabi and the End of His Dynasty", (in) *C.A.H.*, Vol. II, Part 1, Cambridge, 1973.
- 32 — , "The Cities of Babylonia", (in) *C.A.H.*, Vol. 1, Part 2A, Cambridge, 1971.
- 33 — Goétze, A., "The Laws of Eshnunna", (in) *A.N.E.T.*, Princeton, 1969.

- 34 — , "The Laws of Eshnunna", (in) *Ann. A.S.O.R.*, 31, New Haven, 1956.
- 35 — Gurney, O.R., and Kramer, S.N., (in) *A.S.*, XVI, Chicago, 1965
- 36 — , "Two Fragments of Sumerian Laws", (in) *Studies ... Landsberger*.
- 37 — Harper, R.F., *The Code of Hammurabi*, Chicago, 1904.
- 38 — Jacobsen, T., *Analecta Biblica*, XII, 1959.
- 39 — King, L.W., *A History of Babylon From the Foundation of the Monarchy to the Persian Conquest*, London, 1915.
- 40 — Kramer, S.N., *From the Tablets of Sumer*, Indian Hills, Colorado, 1956.
- 41 — , *Lipit-Ishtar Law Code*, "Prologue", (in) *A.N.E.T.*, Princeton, 1969.
- 42 — , (in) *Orientalia*, XXIII, 1954.
- 43 — , *The Sumerians Their History Culture and Character*, Chicago, 1963.
- 44 — Meek, J.J., *The Code of Hammurabi*, "The Epilogue", (in) *A.N.E.T.*
- 45 — , *The Code of Hammurabi*, "The Laws", (in) *A.N.E.T.*
- 46 — , *The Code of Hammurabi*, "The Prologue", (in) *A.N.E.T.*
- 47 — , "The Middle Assyrian Laws" (in) *A.N.E.T.*
- 48 — , "The Neo-Babylonian Laws", (in) *A.N.E.T.*, Princeton, 1969.
- 49 — Moscati, S., *Ancient Semitic Civilization*, London, 1957.
- 50 — , *The Face of the Ancient Orient, A Panorama of Near Eastern Civilization in Pre-Classical Times*, U.S.A., 1962.

- 51 — Peiser, F.E., (in) S.P.A.W., Berlin, 1889.
- 52 — Pritchard, J.B., *The Ancient Near East, An Anthology of Texts and Pictures*, Vol. 1, Princeton, 1973.
- 53 — Scheil, V., *Mémoires de la délégation en Perse*, IV, 1902.
- 54 — Steele, F.R., "The Code of Lipit-Ishtar", (in) *A.J.A.*, 52, Concord, N.H. etc., 1948.
- 55 — Thompson, R.C., "Isin, Larsa and Babylon", (in) *C. A. H.*, Volume of Plates 1, Cambridge, 1927.

بسم الله الرحمن الرحيم

أبو عبيد البكري
والبكريون في واهه وشططيش

للدكتور محمد أحمد أبو الفضل
كلية التربية - جامعة طنطا

يعتبر أبو عبيد البكري - أبرز شخصيات هذه الأسرة - علماً من
أعلام الفكر الأندلسي في عصر نضجه أي في القرن الخامس الهجري
(الحادي عشر الميلادي) .

فهو واحد من أبرز أعلام ذلك العصر ، ومن أشهر علمائه دون جدال
علماً وتحصيلاً وقراءة ، ولذلك جاء تدوينه شيئاً رتيباً بأسلوب سهل ممتنع
وليدت هذه الأمور كلها لتتاح لغير عبقرى . ولهذا يتفق الكثيرون من
الباحثين على أنه من أعظم جغرافى الاسلام ، وهو بغير شك أعظم جغرافى
أخرجته الأندلس (١) .

وهو أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكري
يرتفع نسبة إلى بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعى بن جديلة

(١) أنظر :

Dozy (R) : Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne
pendant le Moyen Age, t I , Leyde, 1849, P. 288 ;

Pons Boigues : Ensayo Bio-Bibliografico sobre los historiadores y
Geografos Arabigo-Espanoles, Madrid, 1898, P. 160;

كراتشكوفسكى (أغناطيس يوليا ثوفتش) : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، نقله إلى
الحرية صلاح الدين عثمان هاشم ، القسم الأول ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة
١٩٦٣ ، ص ٢٧٤ .

حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية
مدريد ١٩٦٧ ، ص ١٠٨ .

جشاك بالشا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، مكتبة
النهضة المصرية ، القاهرة ، ٢٠٩ ،

السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٨١ ،
٢٩٨١ ، ص ١٩٥ .

ولعل من المفيد لقاء الضوء على حياته أو ما يحتمل أن يكون قد ورثه عن بعض أجداده من صفات ، ولحسن الحظ أن ابن بشكوال - أقدم مترجم لأبي عبيد البكري - قد احتفظ لنا بترجمة لأحد أجداده وهو أيوب بن عمرو البكري ، يفهم منها أن أسرة البكريين كانت من البيوتات الكبيرة في الأندلس التي ترددت فيها الخطط والمناصب (٣) .

فأول من ولى منصباً ذا شأن في أسرة البكري هو أحد أجداده أيوب - ابن عمرو البكري ، ونعرف مما يورده ابن بشكوال (٤) ، أن أصل هذه الأسرة من لبله (Niebla) (٥) وأن أيوب بن عمرو كان ذا علم وفضل وسرو وعظمة ومروءة ، وأنه رحل إلى المشرق كمعادة الأندلسيين في ذلك العصر لطلب العلم والحج فالتقى بجامعة من علماء المشرق ودرس عليهم ثم عاد

(٢) ابن حزم (أبو محمد عل بن أحمد بن سعيد) : جهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٣٢١ ، ابن بشكوال (أبي القاسم خلف بن عبد الملك) : كتاب الصلة ، القسم الأول ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ ، ص ١١٢ .

ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر) : الحلة السراء ، الجزء الثاني ، تحقيق حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٨٠ ، حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص ١٠٩ .

(٣) الصلة ، القسم الأول ، ص ١١٢ (ترجمة ٢٦٧) .

(٤) نفس المصدر والتعم والصحة .

(٥) لبله Niebla ، وكان اسمها في القديم Ilipla ، وتقع في جنوب غرب إسبانيا في مقاطعة أونيبي Onuba ، أنظر :

الحيدري (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) : كتاب الروض المطار في خبر الاقطار ، تحقيق ليفرير وفنسال ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ١٦٨ ، الترجمة ليفرير وفنسال ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ١٦٨ ، الترجمة الفرنسية ، ص ٢٠٣ ، وراجع أيضاً :

Ency of Islam, art Huelva, by levi-Provençal.

إلى الأندلس ، فتولى خطة الرد وهي من الخطط القضائية التي تميز بها الأندلس ، وكانت من بين الخطط الستة التي تخول لملكها سلطة إنفاذ الأحكام (٦) . وكانت مرتبة صاحب خطة الرد أدنى منزلة من قاضي الجماعة يدل على ذلك ترتيبه في الجلسات والاحتفالات والمناسبات الرسمية إذ كان يأتي في الترتيب بعد قاضي الجماعة ، وكان عادة ما يستند إلى صاحب خطة الرد الخروج إلى الكور لمطالعة رعاياها والكشف عن سير عملها ، والتحقيق في الشكاوى المقدمة من أهل تلك الكور ضد عمالهم (٧) . وكان أيوب بن عمرو البكري شديداً في أحكامه من أهل النباهة والذكر في قرطبة (٨)

ويورد ابن الأبار رواية هامة نقلا عن ابن حيان مفادها أن أيوب ابن عمرو هذا وأخيه محمد كانا ضمن الشخصيات الأندلسية الذين سموا من الخليفة هشام المؤيد ما أمر بعقده للحاجب المنصور بن أبي عامر مجدداً للألفة بعد جفوة طارئة حدثت بينهما عندما رغب الخليفة هشام المؤيد واتباعه استرجاع السلطة من يد الحاجب المنصور بن أبي عامر ، وتاريخ العقد شهر صفر سنة ٣٨٧ هـ (فبراير - مارس سنة ٩٩٧ م) ، (٩) .

ويفهم من هذا أن أيوب بن عمرو وأخيه محمد أجداد أبو عبيد البكري كانا من رجال الخليفة هشام المؤيد وحظياً في عهده بمكانة طيبة ، وتولى

(٦) والخطط الست هي : القضاء والشرطة والمظالم والرد والمدينة والسوق ، راجع ابن حيان (أبو مروان) المقتبس من أبناء أهل الأندلس ، تحقيق محمود طي مكي ، لجنة أحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٢٨٨ ، ١٥٤٨ .

(٧) أنظر : ابن حيان (أبو مروان) : المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، تحقيق عبد الرحمن طي الحبي ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٥ ، ص ١٠٠ ص ١٠٤ .

(٨) ابن بشكوال : الصلاة ، القسم الأول ، ص ١١٢ .

(٩) ابن الأبار : الجلة السراء ، القسم الثالث ص ١٨١ .

أخذها على الأقل خطة الرد بقرطبة فلما آلت السلطة إلى الحاجب المنصور ابن أبي عامر ، وأصبح هو المتصرف في أمور الدولة ، انحازوا إليه ، وأصبحوا من رجاله الموثوق بهم ، ومن ثم استمرت مكانتهم في الدولة الأموية ، يؤيد ذلك ما رواه ابن حيان « وكان (أيوب بن عمرو) من بيت الشرف والحب والجاه والنعمة والاتصال القديم بسلطان الجماعة » (١٠) . فعم البكريون في ظل العامرين بمكانة مميزة وأصبحوا محل ثقتهم فتولى أيوب بن عمرو ولاية ولبة وشلطيش في أخريات أيامه ، ولعل تقلده أمر هذه الولاية كان بعد سنة ٨٣٨٧ وهي التي تؤرخ انحياز البكريين وتأيدهم للمنصور ابن أبي عامر المستبد بأمر الخليفة هشام المؤيد في الأندلس .

وامارة ولبة وشلطيش تحتل جزءاً صغيراً في جنوب غرب الأندلس عند ملتقى الوادي الأحمر (نهر التنتو Rio Tinto) ووادي التناطير (نهر الأوديل Odiel) مكوناً مصباً متسعاً تنتهي في المحيط الأطلسي (١١) احتوى على بعض جزر صغيرة أكبرها جزيرة شلطيش Saltes وهي جزيرة صغيرة احترف أهلها صيد الأسماك وتمليحها وتصديرها إلى أشبيلية وغيرها من بلاد الأندلس ، وأهم مدن الجزيرة مدينة شلطيش في جنوبها وهي مدينة غير مسورة بنيانها متصل ببعضه ببعض ، ولها أرباض واسعة تضم البساتين والمراعي الحصبة ، ولها أسواق وبها دار صناعة انشاء السفن واشتهرت في الأندلس بصناعة الحديد الذي يعجز عن صنعه أهل البلاد

(١٠) ابن بام الشتريني (أبو الحسن علي) : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثاني ، المجلد الأول ، تحقيق احسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٨١ من ٢٣٤ ابن الأبار : الحلة السيراء ، القسم الثاني ، من ١٨٢ .

(١١) أنظر :

Lévi-Provençal : La description de L'Espagne D'Ahmad Al Razi, Al-Andalus Vol, XVII, 1953, P. 92.

حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، من ١١٢

لصلايته وأهمها صناعة مراصى السفن (١٢) ، وأما مدينة ولبه Huelva ، وبطلن عليها أيضاً أوتبه Onuba فهي مدينة صغيرة تقع بالقرب من ساحل المحيط الأطلسي ، ويدور حولها سور من الحجارة ، وتضم الأسواق ومختلف الصناعات (١٣) .

ظل أيوب بن عمرو واليا على ولبه وشلطيش إلى أن وافته المنية في شهر رمضان سنة ٣٩٨ هـ (مايو ١٠٠٨ م) ، ودفن بمقبرة الربض (١٤) ، وخلفه على ولايتها ابنه أبا زيد محمداً جد أبي عبيد البكري ، الذي دامت ولايته عليها خمس سنوات ، آلت بعدها إلى ابنه أبو المصعب عبد العزيز الذي بويع بها سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) (١٥) ، وهذا يعني أنه منذ ولاية الأخير استقل بولايته تماماً عن الحاضرة قرطبة التي كانت تشهد في ذلك الوقت صراعاً مريراً بعد أن سقطت الدولة العمارية بمصرع شنجول بن المنصور بن أبي عامر وعلى أثر ذلك وما ترتب عليه من بداية التصدع في هيئة الخلافة الأموية التي زالت تماماً بانتهاء رسم الخلافة الأموية في الأندلس وتعدد الحكومات في انحائها ، فانتزى الرؤساء والقواد والولاة على اختلاف أجناسهم في سائر الأندلس واقتسموا خططها ، لا تجمعهم مصلحة مشتركة ، ولا تربطهم رابطة ، بل تفرق بينهم ، المنافسات والأطباع الشخصية وتضطرم بينهم حروب أهلية صغيرة ، وتعرف هذه الدول الصغيرة التي قامت على انقاض

(١٢) الأدرسي (الشريف) : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، لندن ، ١٦٦٨ ، ص ١٧٨ ، الحميري : الروض المطار ، ص ١١١ والترجمة الفرنسية ، مخطوط جغرافية الأندلس لمؤلف مجهول ، رقم ٣٦ ، نسخة مصورة بالمعهد المصري للدراسات الإسلامية بميد ، لوحة ٦٦ .

(١٣) الأدرسي : نفس المصدر ، ص ١٧٨ ، الحميري : نفس المصدر ، ص ١٧٨

(١٤) ابن بشكوال : الصلة ، القسم الأول ، ص ١١٢

(١٥) ابن عذاري المراكشي : كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ،

الجزء الثالث تحقيق ليث برونتال ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ص ٢٩٩

الدولة الأموية بنول الطوائف ويعرف رؤساؤها بملوك الطوائف . وفي
نحضم هذا الصراع انتزى أبو المصعب عبد العزيز بولاية ولبة وشلطيش
وبويج بها كما سبق في سنة ٤٠٣ هـ .

وهكذا أصبح أبو المصعب أميراً مستقلاً على إحدى دويلات الطوائف
في ذلك العصر وتحتل المصادر العربية حيزاً كبيراً في سيرته في رعاياه ، فدامت
لذلك دولته مائة سنة طويلة ، واتسم عهده بالرخاء والسلام والأمن ، وكان
يمكن أن يستمر الحال كذلك لولا طمع بني عباد أصحاب أشيلية ، فلما قوى
سلطانهم تطلعوا إلى الاستحواذ على امارات غربي الأندلس كلها ومن بينها
ولبة وشلطيش (١٦) .

ونستشف من رواية لابن حيان أن المعتضد بن عباد أمير أشيلية ،
بعد أن فرغ من حربه مع المظفر بن الأفطس صاحب بطاليوس Badajoz
وعقد معه صلحاً أجراه بينهما الوزير أبو الوليد بن جهور رئيس الجماعة
في ربيع الأول سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١م) أخذ في تنفيذ مخططة بالاستيلاء على
امارات غربي الأندلس ، فبدأ بحصار لبله ، فاضطر أميرها أبي نصر فتح
ابن خلف اليحصبي إلى التسليم له ، وخرج فعلاً في أهله إلى قرطبة حيث
مات بها (١٧) . ويبدو أن عبد العزيز اليكربي أدرك - بعد سقوط لبله
في يد المعتضد بن عباد - أن الدور لا بد آت عليه ، فعمل على استمالة المعتضد
وتقوية الصلات بينهما ، فأرسل له يهنئه باستيلائه على لبله ، ويذكره
بالصلوات الوثيقة والمودة القديمة التي كانت بين أبيه وجده واسماعيل بن عباد
، آملاً في استمرار هذه المودة ، يقول ابن حيان : « فبادر (أي عبد العزيز)
البعثة إلى المعتضد ساعة دخل لبله يهنئه بما تم بها له منها ، وذكره بالذمام
الموصول بينهما » (١٨) .

(١٦) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٠٤

(١٧) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(١٨) في ، ابن هشام : الذخيرة ، القسم الثاني ، المجلد الأول ، تحقيق احسان عباس ص ٢٣٤

غير أن المعتضد لم يحفل كثيراً بما أظهره عبد العزيز البكري من مودة بل سار في تنفيذ مخططاته ، وتحقيق أطامعه في ضم أمانة ولبه وشلطيش ، فأرسل على الفور قواته لحصار مدينة ولبه ، حاضرة الامارة ، ولم يكتف بذلك بل أمر قواده باحكام الحصار حولها لسرعة الامتلاء عليها ، فانقطع كل اتصال بين المدينة وباقي المدن الأخرى ، وعانت كثيراً من الغارات المتتابعة التي شنتها قوات المعتضد بن عباد فاضطر عبد العزيز البكري إلى طلب المفاوضة وأرسل إلى المعتضد يعرض الصلح ، بل ويعترف بطاعته ، ويعرض عليه التخلي عن ولبه والاحتفاظ بشلطيش فقط ان شاء ، فوافق المعتضد بن عباد على ما اقترحه عبد العزيز على الفور « فوقع له ذلك من المعتضد موقع ارادة » (١٩) وأرسل المعتضد يبلغه بالموافقة على الاجتماع به وعلى ما اقترحه غير أن عبد العزيز لم يطمئن إلى لقائه ، وحل مآثقه وأمراله وأسرتهم في مراكبه إلى جزيرة شلطيش ، وتخلّى للمعتضد عن ولبه « فحازها حوزة للبله » (٢٠) ودخلت ولبه من ذلك الوقت في طاعة ابن عباد (٢١).

لكن المعتضد بن عباد لم يترك عبد العزيز يهنا بالملوء في جزيرته بل أخذ في مضايقته وفرض الحصار عليه ، ومنع الناس طرأ من الدخول اليه ، فتركه محصوراً وسط الماء ، إلى أن ألقى بيده من قرب ولم يغرب عنه الحزم (٢٢) وأرغمه على التفاوض معه مرة ثانية ، وفي هذه المرة تنازل عبد العزيز عن آخر أملاكه جزيرة شلطيش سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥١ م) بشروط

(١٩) في ، ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثاني المجلد الأول ، تحقيق احسان عباس ص ٢٢٤

(٢٠) نفس المصدر والقسم والمجلد والصفحة .

(٢١) أنظر : العذري (أحمد بن عمر بن أنس) : قصص من الأندلس من كتاب ترصيع الأغبار وتنويع الأثار والبهتان في غرائب البلدان والممالك إلى جميع الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهرار ، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٦٥ ص ١٠٧ .

(٢٢) ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني ، المجلد الأول ، ص ٢٣٤ .

منها : أن يشتري المعتضد بن عباد أملاكه وسننه وأثقاله ، فدفع له عشرة آلاف مثقال من الذهب (٢٣) ، يقول العذري : «وفي سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة اشترى (المعتضد بن عباد) جزيرة شلطيّش من البكري ، ودفع إليه ثمن كل ما كان له فيها من عدة وطعام وغير ذلك من المثلونات» (٢٤) وأن يتركه يغادر الجزيرة في أهله وأمواله في طريقة إلى قرطبة يقول ابن حبان «فسأل المعتضد أن ينطلق انطلاقاً صاحبه فأمنه ولحق بقرطبة» (٢٥). فلي المعتضد مطالبه وسمح له بذلك ، بل أعد له النزل والضيافة في طلياطه Tejada (٢٦) وهو في طريقه وأهله إلى قرطبة ، غير أن عبد العزيز البكري لم يأمن جانبه وارتاب فيما أعدّه له ، فأتصل بصاحب قرمونه محمد بن عبد الله البرزالي يطلب منه حمايته ، وأجابه ابن البرزالي إلى ما طلب وبعث إليه بفرقه من الخيل لقيته بموضع اتفقا عليه ، فغير طريقه بدلاً من أن ينزل في طلياطه التي أعدّها له المعتضد نزل بقرمونه (٢٧) ، ومنها توجه إلى قرطبة سالماً ليعيش بها في كنف رئيس الجماعة ابن جهور (٢٨)

وهكذا رحل أبو عبيد البكري في صحة والده إلى قرطبة لتعيش الأسرة في كنف ابن جهور بعد وقوع جزيرة شلطيّش في قبضة المعتضد بن عباد ٤٤٣ هـ (١٠٥١ - ١٠٥٢ م) ، وهذا يجعلنا نرفض الرواية التي تحدد مكان

(٢٣) نفس المصدر والنفس والمجلد ، ص ٢٢٥ .

(٢٤) العذري : المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

(٢٥) في ، ابن بسام : المصدر السابق ، ص ٢٣٤ .

(٢٦) طلياطه Tejada ، وتقع على بعد ثلاثين كيلومتراً شمال كيلومتر شمال غرب أشبيلية ، راجع وصفها في (الحميري : الروض المظفر ، ص ١٢٨ ، والترجمة الفرنسية ، الأديبي المصدر السابق ، ص ١٥٣ ، العذري : ترصيع الأخبار ، ص ١٧٤ - ص ١٧٥) .

(٢٧) قرمونه Carmona ، وهي الآن مركز إداري في مديرية أشبيلية ، راجع وصفها في (الحميري : الروض المظفر ، ص ١٥٨ ، والترجمة الفرنسية ، ص ١٩٠ ، الأديبي المصدر السابق ، ص ٢٠٦ وكذلك مادة Carmona في دائرة المعارف الإسلامية ، النسخة الفرنسية الجزء الأول ، ص ٨٤٩ .

(٢٨) ابن الأبار : الحلة الجراء ، الجزء الثاني ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

مولده في قرطبة (٢٩) وإن كانت هناك رواية أخرى تحدد مكان مولده في مدينة شلطيخ (٣٠) .

أما عن تاريخ مولده فغير معروف ، لم تورد المصادر التاريخية المعاصرة وإن كانت هناك رواية ذكرها جايانجوس Gayangos (٣١) في بعض تعليقاته على ما ترجمه من نفع الطيب للمعري أن أبا عبيد البكري ولد سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ - ١٠٤١ م) أي أن عمره عندما دخل قرطبة في صحة آله لاجئين إليها سنة ٤٤٣ هـ كانت إحدى عشرة سنة ، ومن الغريب أن جايانجوس لم يذكر المصادر الذي اعتمد عليه في تحديد هذا التاريخ ، مما جعل المشرق الهولندي رينهارت دوزي يرفض هذا التاريخ ، ويؤيد رواية لابن حيان يذكر فيها أن أبا عبيد البكري « بذ الاقران حملا ربهاء وسروا وأدبا ومعرفة » (٣٢) . ونستشف من هذه الرواية أن أبا عبيد كان في مقتبل شبابه ، يؤيد ذلك رواية الفتح بن خاقان في ترجمته له بقوله : « رأيت (أي أبو عبيد) وأنا غلام ما أقر هلالا ، ولانبغ في الذكاء كثرى ولا زلالا في مجلس ابن منظور ، في هيئة كأنما كبيت بالبهاء والنور ، وله سبلة كأنما يروق العين إيماضها ، ويفوق السواد بياضها وقد بلغ سن ابن محلم وهو يتكلم فيفوق كل متكلم » (٣٣) . وهذا يوضح أن أبا عبيد البكري كان في نحو

(٢٩) آنخل جبرنثالث بالشيا : تاريخ الكفر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٣٠٩ ، نفيس أحمد : جهود المسلمين في الجغرافيا ، ترجمة فتحي عثمان القاهرة (ألف كتاب ٢٧٢) ، ص ٧٥ .

(٣٠) الزركلي : الاعلام ، الجزء الرابع ، ص ٢٣٣ .

(٣١) في ، حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص ١١٥ ، وقارن مؤنس ، نفس المرجع والصفحة .

(٣٢) في ، ابن بام : اللخيرة ، أنقسم الثاني ، المجلد الأول ، ص ٢٣٤ ، مؤنس : نفس المرجع والصفحة .

(٣٣) ثلاثة العيان في محاسن الأعيان ، قدم له محمد العنان ، المكتبة العتيقة ، تونس ١٩٦٦ ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

الثمانين من عمره عندما كان ابن خاقان غلاماً وبلاسترشاد برواية ابن حيان نرى أنه كان شاباً يافعاً حين رحل إلى قرطبة في صحبة والده ، ونرجح أن يكون مولده في العقد الأول من القرن الخامس الهجري وليس سنة ٤٢٢ هـ كما ذكر جابا نجوس ، وأن مولده كان في مدينة ولبة التي كانت حاضرة امارة ولبة وشلطيش حتى سنة ٤٤٣ هـ .

على أية حال ، فإن أبا عبيد البكرى عاش طفولته وصنبر شبابه في مدينة ولبة ، وتلقى تعليمه الأول فيها ، ثم رحل مع أبيه وآله إلى مدينة شلطيش سنة ٤٤٣ هـ وأكمل تعليمه وتربيته فيها ، وارتحل بعدها إلى قرطبة وهو في ريعان شبابه ، ولا شك أن الفترة التي قضاها في ظل امارة أبيه لشلطيش أفادته كثيراً في تحصيل المعارف الاساسية ثم اكمل تعليمه في قرطبة ، ولحسن الحظ فقد احتفظت قرطبة بعد سقوط الخلافة الاموية بأهميتها حيناً من الدهر كمرکز ثقافي وكلاذ لأمرء الدويلات الذين فقدوا سلطانهم (٣٤) . وهناك أتم أبو عبيد البكرى دراسته بل وانتسب إلى المدينة فعرف أيضاً باسم أبو عبيد البكرى القرطبي .

ولسنا نعرف من أساتذة أبي عبيد البكرى - ممن نص عليهم ابن بشكوال أقدم مترجيه - الا ثلاثة سنعرض لهم بالتفصيل وهم أبو مروان بن حيان وأبو بكر المصحفي - لم اهتد إلى ترجمته - وأبو العباس العلوي سمع منه بالمرية ، وأجاز له أبو عمر بن عبد البر (٣٥) والواقع أن هذا العدد الذي حدده ابن بشكوال من الشيوخ قليل بالنسبة لسبيل أسرة عريقة في الأندلس كما أبي عبيد إذ كان بوسعه أن يتردد على مجالس كثير من العلماء الذين كانت تزخر بهم قرطبة في النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، على أن اقتصر ابن بشكوال على ذكر أولئك الشيوخ لا يمنع أن يكون أبو عبيد

(٣٤) كراشوفسكي : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .

(٣٥) ابن بشكوال : الصلاة ، القسم الأول ، ص ٢٨٧ ، ترجمة ٦٢٢ .

البكرى قد أخذ عن غيرهم ، وكما سنرى فإن جل اهتمامه كان منصباً على الاطلاع على المصنفات المتعددة التي كانت ما تزال تعج بها قرطبة في هذه الفترة .

أما شيخه الأول فهو المؤرخ القرطبي أبو مروان بن حيان (٣٧٧ - ٤٦٩ هـ / ٩٧٧ - ١٠٧١ م) الذي يعد من أعظم مؤرخي الاسلام ، وهو بلا جمدال شيخ مؤرخي الاندلس بوجه عام ، ولهذا العصر بوجه خاص (٣٦) فقد أنظم أبو مروان في سلك وظائف الدولة ، وصنف عدداً كبيراً من الكتب لا يقل عن خمسين (٣٧) ، ولكن للأسف لم يصل إلينا من هذه المؤلفات كلها الا أجزاء يسيرة وقد توسم ابن حيان في أبي عبيد البكرى الذكاء والتجاية منذ شبابه حينما قدم إلى قرطبة ، فقد أثنى عليه ابن حيان حينئذ قائلاً : «بذ الاقران جمالا وبهاء ومروراً وأدباً ومعرفة» (٣٨) .

ويحتمل أن أبا عبيد البكرى لازم ابن حيان خلال اقامته في قرطبة ، ويبدو أنه هو الذي وجهه إلى الاشتغال بعلم الجغرافية الذي كان وثيق الارتباط بكتابة التاريخ (٣٩) ، وبالرغم من أن ابن حيان قد اختص أبو عبيد بأخبار قاياة لا تغنى كثيراً في التعريف به ، فإننا لا نجد أى غرابة في ذلك إذ كان أبو عبيد ما يزال شاباً في بداية تكوينه العلمى مما لا يستحق معه أن يفرد له ابن حيان أكثر مما أفرد ، ولعل ثناء شيخه عليه وهو بعد فتى في سنى الشباب إنما يابل على بعد نظره وصواب حكمه على تلاميذه وتمييزه

(٣٦) أنظر البحث الذى أعده الدكتور محمود عل مكى في مقدمة المقتبس لابن حيان ، انقسم الخامس بعد الرحمن الأوسط من ص ٧ إلى ص ١٢٧ ، الناهرة ، ١٢٩٠ هـ - ١٩٧١ م وأنظر أيضاً

Pons Boigues : O.P. Cit, N. 114, Melchor . M. Antuna : Abenhayandede Cordoba y su Ohra historica Escorial, 1924.

(٣٧) ابن حيان : نفس المصدر ، ص ٥٤ من مقدمة المحقق

(٣٨) فى ، ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثانى ، المجلد الأول ، ص ٢٣٤ .

(٣٩) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق محمود عل مكى ، ص ٥٢ .

للتأبين منهم ، وعلى أية حال فإن تلمذة أبي عبيد على شيخ مؤرخى الاندلس حقيقه يؤكدها - فضلا عن رواية ابن بشكوال في ترخته تلك الاشارة الواردة في فهرسة ابن خير الاشبيل عن سند روايته لكتاب «اصلاح المنطق ليعقوب ابن الديكيت» إذا جاء فيها : « .. وقرأته أيضاً على الشيخ الوزير أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى ، قال : حدثني به الشيخ أبو مروان ابن حيان ابن خلف بن حيان .. » (٤٠) .

وثاني شيوخ أبي عبيد البكرى ، فهو الجغرافى أبو العباس أحمد بن عمر ابن أنس العذرى (٣٩٣ - ٤٧٨ هـ / ١٠٠٢ - ١٠٨٥ م) ، الذى ولد في أزمريه سنة ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢ م ورحل إلى المشرق لطلب العلم ثم عاد إلى الأندلس (٤١) . وللعزى مصنفاً جغرافياً بعنوان كتاب «ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبساتان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك» ، فقد معظمه ولم يبق منه الا جزء مخطوط عنوانه «السفر السابع من ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبساتان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك» (٤٢) والكتاب يعتبر من أهم ما صنف في الجغرافيه الاندلسية حتى الآن ، سواء من حيث المادة التى ضمنها اياه مؤلفه ، هذا بجانب دقته في التحديد وضبطه

(٤٠) ابن خير (أبو بكر عمه) : فهرسته ، تحقيق فرنيسكو كودير ، وغيليان ريبيرا ، سرقطة ١٨٩٣ ، ص ٢٢٠ - ٢٢٢

(٤١) رحل العذرى مع أبويه إلى المشرق سنة ٤٠٧ هـ ، ووصلوا إلى مكة في سنة ٤٠٨ هـ ١٠١٧ م ، وجاوروا أعراماً بها ، وسمع الكثير من شيوخها ومنهم الشيخ أبي العباس الرازى ، والشيخ أبي ذر عبد بن أحمد الهرمى وعليه سمع صحيح البخارى ، كما سمع على الكثير من القاديين اليها من أهل الرواية والحفظ من أهل العراق وخراسان والشام (راجع ، ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص ٦٧ ، ترجمة ١٤١) ورحل عن مكة في سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٥ م) ، وما لاشك فيه أن نشأة العذرى الدينية كان لها عظيم الأثر في اهتماماته العلمية ، فان كنا نعرف العذرى مؤلفاً جغرافياً ، فقد وجه جل اهتمامه إلى علم الحديث «بل أن عنايته بالحديث تفسد في المقام الأول كل اقراء أمهات كتب الحديث وخاصة الصحيحين» (أنظر : العذرى : المرجع السابق ، ص ٢ من مقدمة المحقق) .

(٤٢) بتحقيق عبد العزيز الأعوانى ، طرید ، ١٩٦٥ .

في رسم الاعلام (٤٣) ، وتوفي العذري في سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ودفن بمقبرة الخوض بالمريه (٤٤) . ويدل أن دراسة أبو عبيد البكري على يد شيخه العذري في المريه هو الذي حجب علم الجغرافيه اليه ورغبه في التأليف فيها لا سيما أن ابن حيان قد اكتشف بصيرته النافذه موهبته فوجهه إلى الاشتغال بعلم الجغرافيه الذي كان متين الصلة بعلم التاريخ كما سبق القول ، ويحتمل أن يكون هو الذي أشار عليه بالاتصال بالعذري في المريه والاستفادة من علمه في هذا المجال .

ويمكن أن نضيف اليهم الفقيه المحدث أبا عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي ، الذي أجاز لأبي عبيد البكري ، ولد في الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٣٦٨ هـ (نوفبر ٩٧٨ م) ، وتفقه في قرطبة ، وصار كما يقول ابن بشكوال امام عصره ، وواحد دهره (٤٥) . وكان أول أمره ظاهرياً ، واعتنق بعد ذلك مذهب المالكيه وان مال كثيراً إلى مذهب الشافعي ، وبعد أن جال في غرب الاندلس مدة سكن دانيه وبلنسية وشاطبه ، وتولى قضاء الاشبونه وشترين في عهد الملك المظفر بن الأفطس ، وتوفي بشاطبه في التاسع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٤٦٣ هـ (فبراير ١٠٧١ م) (٤٦) .

وإذا تأملنا معارف هؤلاء الشيوخ ، لاعطتنا فكرة عن ثقافة أبي عبيد البكري في دور تكوينه العلمي ، والتي ساعدت بلا شك على نضوج شخصيته

(٤٣) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص ٢٩٢ .

(٤٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ص ٦٧ ، الضبي بغية الملئس ، ص ١٩٧ .

(٤٥) راجع في ترجمته : الضبي : بغية الملئس ، ص ٤٨٩ ، ترجمة ١٤٤٣ ، ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ، ص ٦٧٧ ، ترجمة ١٥٠١ .

(٤٦) أنظر ، جوثالث بالسيا : المرجع السابق ، ص ٢٦٧ ، كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ، ج ٦ ، نقله إلى العربية السيد يعقوب بكر دارالمعارف، ١٩٧٧ ، ص ٢٦٠ وما بعدها .

Pons Boigues : Op. Cit, PP. 147—150.

وتحديد معالمها ، فجميعهم كانوا من أصحاب الثقافة الانسانية العامة وان مالوا الى علوم اللغة والأدب والأخبار والممالك ثم إلى علوم الحديث. وقد استفاد أبو عبيد لا شك من كل ذلك فوائد جمة ، وإذا أضفنا إلى ذلك نزعة البكرى الملموسة في الانكباب على قراءة المصنفات العلمية التي كانت تزخر بها قرطبة في ذلك الوقت والتي تجلت في اهتمامه وحبه الشديد للكتب فأولاهما اهتماماً متزايداً ، وكان يلقيها فوق الجلاءه بقطعة من النسيج «أكراماً لها» ، يقول ابن بشكوال مترجماً له معبراً عن اهتمامه بالكتب أنه «كان يحسبها في سباني الشرب وغيرها أكراماً لها وصيانته» (٤٧) . وقد أفادته دراسة هذه العلوم في مجال التأليف الجغرافي ، ذلك أن احصاء المواضع الجغرافية وضبط اسمائها يتطلب قراءة أصول الحديث والسيرة والشعر والنثر لتفصيل ما فيها من الاعلام الجغرافية مع ضبطها وما يرد عنها من التعريف في كل أصل من هذه الأصول ، فضلاً عن ضرورة وجود منهج مقرر في القراءة والتفصيل والمقارنة وهو ما تميز به البكرى .

أما تلاميذ البكرى فاننا نعرف منهم عدداً غير قليل ، وأهم ثبت بأسمائهم وتراجمهم تمكننا من استخراجهم من «صلة» ابن بشكوال ، وتكلمة الصلة لابن الأبار وهم : أبو بكر محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز اللخمي (٤٨) (ت ٥٣٦ هـ) ، الشبلي المولد سكن قرطبة ، وفيه يقول ابن دحية «انه بذأهل وقته في الكتابة والأدب واللغة وأنساب العرب ، وكان وزيراً جليلاً بوزارة السلاطين بقرطبة» (٤٩) . وأبو طالب عبد الجبار بن عبد الله بن أحمد

(٤٧) ابن بشكوال : الصلة ، التتم الأول ، ص ٢٨٧ ، وراجع أيضاً : ابن الأبار : انصلة ، ج ٢ ، ص ١٨٥ وسباني جمع سبنيه وهي المتعدي الكبير أو الملازمة البيضاء ، راجع شرح هذه النقطه في نفس المصدر والجزء والصفحة ٤٥ .

(٤٨) ابن بشكوال : الصلة : ج ٢ ، ص ٥٨٧ ، ترجمة رقم ١٢٨٩ .

(٤٩) المغرب في أعلام أهل المغرب ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٢٠٨ -

ابن أصبغ القرشي من أهل قرطبة (٥٠). وأبو جعفر محمد بن حكيم ابن باق من سرقسطة ، وهو من بيت شرف إذ كان جده محمد بن أحمد ذا الوزارتين حاكماً لمدينة سالم (٥١). وسعد بن أحمد بن سعيد بن عبد البر المتوفى في حدود سنة ٥٢٠ هـ (٥٢). وآخر من نذكره من هؤلاء حفيد للبكري له نفس كنيته واسمه (٥٠٧ - ٥٨١ هـ) ، قال عنه ابن الأبار أنه كان من أهل المعرفة بالغريب واللغة والآداب حدث بمصنفات جده كلها أخذها عن أبي بكر بن عبد العزيز عنه (٥٣).

وكان الفضل في تنمية هواية أبي عبيد البكري للقراءة والاطلاع ، للحركة الأدبية التي شملت الأندلس في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، فعل الرغم من التفكك السياسي الذي طرأ على الأندلس في عصر ملوك الطوائف ، وما ترقب على ذلك من فتن واضطرابات وحروب أهلية ومنازعات بين مختلف دويلات الأندلس ، فقد نشطت الحركة الأدبية وبلغ النشاط الأدبي مداه ، وتنافس ملوك الطوائف في تزيين فحول الشعراء والكتاب والمبالغة في اجتذابهم إلى حواضرهم بالهبات القيمة (٥٤) ، فارتقى الأدب في الأندلس وازدهر ازدهاراً لم تشهده من قبل وأصبحت قصور قرطبة وإشبيلية والمرية وبطليوس منتديات لأهل الشعر والأدب (٥٥).

ونضيف إلى ذلك عاملاً هاماً ساعد على تفرغ أبي عبيد لتحقيق هوايته ذلك أن أبا عبيد كان أسعد حفظاً من الكثيرين من أمثاله في ذلك العصر ،

(٥٠) ابن الأبار : تكملة الصلة ، نشر عزت المطار ، ترجمة رقم ٨١١ .

(٥١) نفس المصدر ، ترجمة ١٢٦١ .

(٥٢) ابن عبد الملك الانصاري (أبو عبد الله محمد بن محمد) : بقية السفر الرابع من كتاب التذيل والتكملة لتحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٢٣ .

(٥٣) ابن الأبار : تكملة الصلة ، ص ٨٦٠ - ٨٦١ .

(٥٤) جوثالث بالشيا : المرجع السابق ، ص ١٣ .

(٥٥) السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، ج ٢ ، ص ١٠٠ .

فلا نعلم أنه تولى أى منصب من المناصب بل اعتمد على مال مدخر تركه له أبوه أستعان به على معيشته ، وبذلك توفر على تحقيق آماله الأدبية والعلمية ، فعاش عيشة كريمة ، وحظى بكل تقدير وترحيب ، واندمج في مجتمع الطبقة الخاصة ، ولم يكتف بما حصل عليه من معارف في قرطبة ، بل ارتحل إلى بلاط المرية وعاش حيناً في كنف المعتصم بن صبادح ، وكان صديقه الأثير ، وأغلق عليه المعتصم فيض رعايته وصلاته (٥٦) ، وفيها اتصل بالجغرافي المشهور العلوي الذي شجع فيه الاتجاه إلى دراسة علم الجغرافية . ثم ارتحل إلى بلاط المعتصم بن عباد ، فوصل إلى اشبيلية في سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، وكان ضمن الوفد الذي خرج في وداع المعتصم ابن عباد حين عبر إلى المغرب لاقتناع يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين بضرورة العبور إلى الأندلس بجيوشه مرة ثانية أوائل ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، أى قبل وفاة البكري بتسع سنوات (٥٧) .

ومن الغريب أن أبا عبيد البكري الذي كتب في علم الجغرافيا ، لم يغادر الأندلس أبداً حتى وفاته ، فلمنا نعلم له رحلة عن بلدة ولا مقاماً في أى قطر آخر من المغرب أو المشرق العربي ، وهذا شيء غريب حقاً ، فالتأليف الجغرافي يتطلب بجانب قراءة الأصول الجغرافية المشاهدة والتنقل في الأماكن المراد الكتابة عنها ، ورغم هذا جاءت مؤلفاته الجغرافية غاية في دقة الملاحظة والموضوعية ، ذلك أنه اعتمد في كتاباته في المقام الأول في القراءة والتصنيف والتصوير وبذلك فاق فيها وصل إليه من النتائج أهل الرحلة والمشاهدة ويطلق على هذا العمل — بلغة العصر — الجغرافية المكتنية

(٥٦) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، الطبعة الثانية ، مكتبة المنهج ، القاهرة

١٩٦٩ ، ص ١٧٠ .

(٥٧) أنظر

Pons Boigues : op. Cit, P. 161.

(Arm Chair Geography) (٥٨) . وهذا يدل دلالة خاصة على أن أبا عبيد كان على سعة ثقافته ، واستفادته الجمة من محصول قراءاته ، عميق الإدراك لما هو مقدم عليه ، فترى له مصنفان جغرافيان ، حازا إعجاب معاصريه ، وتمتعا بشهرة عريضة وهما «معجم ما استعجم» ، «المسالك والممالك» .

ولم يأت جانب اهتمام البكرى بعلم الجغرافيا ، فلتد كان مهتما أيضاً بالشعر والأدب اللذين أفرد لهما بعض المؤلفات اللغوية والأدبية التي تنعكس فيها فيها مجادلاته مع اللغوي الشهير أبي علي الفارسي الذي نقل ثقافة بغداد الأدبية إلى الأندلس ، فن مصنفات البكرى كتاب «الاحصاء لطبقات الشعراء» (مفقود) (٥٩) ، وكتاب «اشتقاق الاسماء» (مفقود) ، (٦٠) ، وكتاب التنبيه على اغلاط أبي علي في أماليه « (مطبوع) (٦١) «شثناء عليل العربية» (مفقود) (٦٢) ، وكتاب «صلة المفصول في شرح أبيات الغريب المصنف» (مفقود) (٦٣) ، وكتاب «فصل المثال في شرح الامثال» (مطبوع) (٦٤) «وسمط اللالي» في شرح أمالي الفارسي «(مطبوع) (٦٥) و«اعلام نبوة نبينا محمد» (مفقود) (٦٦) ، «والتدريب والتهذيب في ضروب أحوال الحروب» (مفقود) (٦٧)

(٥٨) أنظر : عبد الله يوسف النديم : مصادر البكرى وشبهه الجغرافيا ، مطبعة المدف ، القاهرة ، ١٩٧٤ ص ١٥٠ .
(٥٩) في البكرى : سمط اللالي ، بتحقيق عبد العزيز الميمني ، ج١ القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٧٧ ، ٢٣١ .

(٦٠) في ، السيوطي : بنية الرماء ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .
(٦١) طبع في القاهرة : ١٩٢٦ .
(٦٢) في ، حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .
(٦٣) في ، ابن خير ، فهرسته ، ص ٣٤٣ .
(٦٤) طبع هذا الكتاب في الخرطوم بتحقيق عبد المجيد عابدين واحسان عباس ، ١٩٥٨ .
(٦٥) نشره عبد العزيز الميمني في مجلدين ، القاهرة ، ١٩٣٦ .
(٦٦) في ، ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٢٨٧ ، ترجمة ٦٣٣ .
(٦٧) البكرى : معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، ج ٢ القاهرة ، ١٩٤٥ ، ص ٣٩٨

ولا يبقى علينا بعد ذلك في معالجة اسماء البكرى في غير ميدان التأليف الجغرافي الا ما نسب اليه من الضرب بسهم في قول الشعر ، وهناك اشارات وردت في ذخيرة ابن بسام (٦٩) منها : قول أبي عبيد البكري مخاطب أبا الحسن ابراهيم بن محمد المعروف بأبن السقاء وزير ابن جهور ، وقد خرج رسولا إلى باديس بن حبوس بغرناطة نورد أبيات منها :

كذا في بروج السعد ينتقل البدر ويحسن حيث احتل آثاره القطار
وتنقسم الأرض الخطوط فبقعة لها وافر منها وأخرى لها نزر
وله في المعتضد عندما أجاز البحر مستجيراً بأمر المسلمين وناصر
المسلمين يوسف بن تاشفين :

يهون علينا مركب الفلك أن يرى يحيا العلا لما بنا مركب الجرد
فجزنا أجاج البحر نبغى زلاله وذقنا جنى الشريان نبغى جنى الشهد
وله ، وكان مولعاً بالخمير :

خليلي انى قد طربت إلى الكاس ونقت إلى شم البنفسج والاس
فقوماً بنا نلهو ونستمع الغنا ونسرق هذا اليوم سرّاً من الناس
فليس علينا ، في التعلل ساعة وان وقعت في عقب شعبان من باس

وقد أثارت هذه الآيات التي نظمها البكري في الخمير ، البعض من معاصريه الذين توهموا أن رأسه لم تسلم من أن يلعب بها الخمير ، يقول الفتح

(٦٨) في ، ابن خير : فهرسته ، ص ٣٧٧ ، ذكره أيضاً ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ٢ ، ص ٥٢ سام أعيان النباتات والشجريات الأندلسية .

(٦٩) في ، ابن بسام : الذخيرة ، النعم الثاني ، المجلد الأول ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨

ابن خاقان : .. فانه رحمه الله مباكر للراح ولا يصحو من نهارها ، ولا يحجو
 رسم ادمانه من مضمارها ، ولا يربح إلا على تعاطيها ولا يستريح إلا إلى
 معاطيها (٧٠) ، مما جعل المشرق الهولندي دوزي يستعدها ولا ينفيها
 مدافعا عن أبي عبيد البكري من أجل أعماله المتعددة التي تركها والتي لا تحمل
 أي آثار تبين أنها كتبت وهو في حالة سكر ، ويبرر ذلك بأن البكري
 كعاصريه ، كان صديق الولايم بما تحفل به من مأكّل ومشرب (٧١) .
 ويعزو مؤرخ محدث اقباله على الشراب إلى ما أصابه في الماضي من ضياع
 ملك أبيه والاضطرار إلى مغادرة وطنه واللجوء إلى قرطبة هارباً مع أبيه
 وهو بعد في شبابه ، وما حاق بالاندلس من الفتن والاضطرابات والنكبات ،
 مما أثر في نفسية البكري وفي مزاجه ، لاسيما أنه كان بطبعه رجلا مرهف
 الحس رقيق الحاشية ، لا يستطيع أن يفصل نفسه عن مأساة وطنه وعصره ،
 فرأى إلى شيء من الخمر يتسلى به ، ويغرق فيه همومة إذا شئت نفسه
 القراءة والكتابة (٧٢) ، وإذا أضفنا إلى ذلك طبيعة حياة مجتمع الخواص
 في ذلك العصر ، والتي كانت تفرض على أعضائها حضور الولايم والحفلات
 بما تحتويه من مآدب الطعام والشراب فلا نستغرب في البكري وهو من هذه
 الطبقة أن يسايرها ويحاربها في طبيعتها مع تناول القدر من الشراب الذي
 يحس فيه بالانتشاء والسعادة .

أما مصنف أبي عبيد البكري في التأليف الجغرافي ونالا شهرة عريضة ،
 أحدهما بعنوان «معجم ما استعجم» وضمفه البعض بأنه وسط بين اللغة والجغرافية

(٧٠) ثلاثة المقيان ، ص ٢١٨

(٧١) أنظر

Dozy : Op Cit, t. I, P 297

Pons Boigues : Op. Cit, PP. 161—167.

(٧٢) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص ١٢٠ ، ص ١٢١ .

أو خطوة انتقال بينهما (٧٣) فهو إذن كان أحياءاً للمنهج القديم في المعالم الجغرافية الذي يرتفع إلى القرن الثالث الهجري وهي المعاجم التي وضعها اللغويون ، والتي اضمحلت بعد ذلك خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين حتى ظهر معجم البكري الذي كان ابتدائاً بقاتمة عهد جديد لازدهار هذا النمط الأدبي (٧٤) ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه الأدب الجغرافي .

وكان الغرض الذي دفع البكري إلى تأليف معجمة هو شيوع التصحيف في أسماء المواضع بين الناس ، فلما رأى أن ذلك قد استعجم على الناس ، أراد أن يفصح عنه بأن يذكر كل موضع مبين البناء ، معجم الحروف ، حتى لا يدرك فيه لبس أو تحريف (٧٥) .

مهّد البكري لمعجمه بدراسة وافية لجغرافية شبه الجزيرة تبحث في حدودها ومناطقها ونواحيها كالحجاز ونهامه واليمن ، اتسمت بالدقة والشمولية ، ثم تكلم عن القبايل المستوطنة بها وعن هجراتها .

والبكري هو أول من استخدم الترتيب «الألف بآء» الحديث في معجمه فهو أول معجم غير لغوي يبنى على الترتيب المعجمي (٧٦) . رتب البكري معجمه على حروف المعجم حسب ترتيبها عند الاندلسيين في عصره (وهو أ ب ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق م ش ه و ي) وجعل ترتيب الكلمات في كل باب على ترتيب الحرفين الأول والثاني الأصليين من الكلمة دون نظر إلى ترتيب ما بعدها من الحروف ، وإذ كان الحرف الثاني ألف زائدة ، كألف صاحب وفاضل ، أهمله ولم ينظر إليه ، واعتبر الحرف الثاني ما بعد الألف وفي هذا ما فيه من العسر

(٧٣) نفس المرجع ، ص ١٢٣ .

(٧٤) كراتشوفسكي : المرجع السابق ، ص ٢٧٦ .

(٧٥) البكري : معجم ما استعجم ، ج ١ ص ١ .

(٧٦) عبد الله يوسف الخنيم : المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

هذا وقد لاحظ فرد بناند فستيفاند هذه الصعوبة عندما شرع في نشر هذا المعجم لأول مرة فأورد في نهايته ثبناً أجمدياً للإعلام مع ذكر أرقام الصفحات تيسيراً على الباحث .

وعندما قام الأستاذ مصطفى السقا بنشرة مرة أخرى بالقاهرة أعاد ترتيب الاعلام الجغرافية خيماً ترتيباً أجمدياً حديثاً .

أما عن منهج البكرى في تأليف معجمه ، الذى يتألف من سبعائة وأربعة وعشرين باباً ، فقد التزم بمصادر معينة في دراسته لبعض أقدام شبه الجزيرة العربية ، واعتمد على ما كتبه عرام ابن الأصبغ السلمى في دراسة المواضع الواقعة في تهامة والحجاز ، وعلى ما كتبه السكونى في وصف الاخاء في نجد ، كما اعتمد على مصنفات الهمداني في دراسة للمواضع الواقعة في اليمن وحضرموت .

وقد حرص البكرى على ذكر مصادره وأصوله بدقة ، فمن مصادره الفقهية والتاريخية كتب الحديث والسيرة النبوية والسير والانساب والتاريخ ، فنقل من كتب الحديث ما رواه محمد بن السائب الكلبي (ت : ١٤٦ هـ) وابنه هشام (ت : ٢٠٤ هـ) ، ونقل من كتاب السيرة «لابن اسحاق» وسمى كتابه «المغازى» في موضعين (٧٨) وسماه «السيرة» في موضع آخر (٧٩) مما يرجح أن البكرى كانت لديه أكثر من نسخة من هذا الكتاب ، فقد بين ذلك أكثر من مرة (٨٠) . كما اعتمد البكرى على عدد آخر من رواة الأخبار مثل الزبير بن بكار (ت : ٢٥٦ هـ) ، الذى ألف أكثر من ثلاثين

(٧٧) البكرى : معجم ما استمع ، ج ١ ، ص ٤ حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ١٢٥

(٧٨) معجم ما استمع ، ج ١ ، ص ٣١٩ ، ج ٢ ، ص ٦٦٦ .

(٧٩) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٥٤٦

(٨٠) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٥٢٣ ، ج ٢ ، ص ٦٩٨

كتاباً ووصفه الخطيب البغدادي بأنه «كان ثقة ثباً عالماً بالنسب عارفاً بأخبار المتقدمين وسائر الماضيين»، وله الكتاب المصنف في نسب قريش وأخبارها» (٨١) كذلك اعتمد البكري على مصادر جغرافية نقل عنها وذكرها، فرجع مثلاً إلى أبي عبيد عبد الله بن بشر الكوفي ونقل عنه ما جاء في رسالة عرام ابن الأصبح السلمي ونقل عن إبراهيم بن اسحق بن إبراهيم بن بشير، أبو اسحق الحرابي (ت: ٢٨٥ هـ) ومن أهم معصفاته كتابه «غريب الحديث» والمناسك ونقل عن أبي علي هارون بن زكريا من كتابة «التعليقات والنوادر»، والذي تأتي أهميته من تحديده الدقيق الكثير من المواضع التي تعرض لها، فهو يصف مياهها وجبالها وقبائلها وما ينبت فيها من ضروب الثبت والشجر يبيء كل ذلك ل تفسيره لغريب الشعر وما فيه من مفردات لغوية عربية (٨٢). ونتيجة لذلك خرج المعجم في صورة طيبة نال ثناء الباحثين، يقول هوزي: «أنا بينما نجد غيره من الجغرافيين يقعون في خطأ بعد خطأ ويناقدون أنفسهم بين موضع وموضع، اذ بنا نجد معلومات البكري واضحة ناصعة، وكتاباتة توصف بعبارة واحدة أنها صادقة» (٨٣). ولذلك فإن هوزي اعتبره فريداً لا يمكن معارنته بأحد آخر (٨٤). ولا شك اننا نوافقه فيما ذهب اليه في انه يعتبر مصدراً هاماً لا غنى عنه بالنسبة للباحثين، بالرغم من ظهور معجم ياقوت الذي يفوقه بشكل ملحوظ سواء في اهتمامه بجميع البلدان، وثراء ملاحظاته، وضخامة مادته، ومن الطريف أن ياقوت كان على علم بهذا المعجم، ولكنه لم يستطع الاستفادة منه مباشرة فيقول: «ولم أره بعد البحث عنه والتطلب له» (٨٥).

(٨١) الخطيب البغدادي (أحمد بن علي): تاريخ بغداد، ج ٨، القاهرة، ١٣٤٩ هـ.

ص ٤٦٧ - ٤٧١

(٨٢) عبد الله يوسف النديم: المرجع السابق، ص ٨٤ - ٨٥.

(٨٣) أنظر

Dozy: Op. Cit., t. I, PP. 303-305

Ibid, P. 305.

(٨٤)

(٨٥) ياقوت: المعجم، ج ١، ص ٧، ٨.

على أية حال فإن رأى دوزى ومن تابعه من الباحثين يكفى لافساح مكان
ممتاز للبكرى بين الجغرافيين :

أما مصنف البكرى الثانى فى الجغرافيا فهو بعنوان : «الممالك والممالك»
الذى صنفه فى سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧-١٠٦٨ م) ، فهو كتاب جغرافية العالم
المعروف يومها ، ويحتوى على كثير من المعلومات التاريخية (٨٦) .

الزم البكرى نفس المنهج الذى سار عليه فى تأليفه المعجم ، فعلى سبيل
المثال اعتمد على كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر لعلى بن الحسين
المسعودى (ت: ٣٤٦هـ) فى دراسته للقسم الخاص بالبحار والانهار وذكر
الممالك وعلى كتاب ممالك افريقية وممالكها للوراق القيروانى (٢٩١-٣٦٢هـ)
فى القسم الخاص ببلاد افريقية ، كما اعتمد على كتاب «الممالك والممالك»
للجيهانى فى دراسته لممالك الهند ومدن الصين ، وتأثر بالعبرى ونقل عنه
نقولا من مصنفه «ترصيع الأخبار» وتنويع الاثار والبلدان فى غرائب
البلدان والممالك إلى جميع الممالك ، كما استفاد البكرى استفادة كبيرة
من رحلة ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى عند كلامه عن الصقالبة ، وما
لا شك فيه أن البكرى له الفضل الأكبر فى وصول أجزاء كبيرة من رحلة
الطرطوشى إلينا ، فقد فقدت أصولها ، ولم تبق الا بعض النقول التى تضمنتها
كتب البكرى والقزوينى وأبى الفدا ، غير أن أكبر قطعة من هذه الرحلة
وصلت إلينا عن طريق كتاب الممالك والممالك للبكرى .

إلى جانب مصادرة الجغرافية ، اعتمد البكرى على مصادر أخرى دينية
وهى الكتب السماوية كالتوراه والانجيل والقرآن ، ونقل عن كتب الحديث

(٨٦) أنظر :

Dubler (César) : Abu Hamid El Granadino, Madrid, 1953, P. 167.

ولما كانت كتابات البكري جغرافية تاريخية ، فقد اعتمد على مصادر تاريخية على قدر كبير من الأهمية وهو تاريخ الرسل والملوكة لابن جرير الطبري .

وان كان يعيب منهج البكري أنه رغم اعتماده على مصادر جغرافية سابقة عليه أو معاصرة له على قدر من الأهمية ، ورغم اطلاعه على كتابي الاصطخرى وابن حوقل الا أنه لم يأخذ عنهم الخرائط ، فجاء كتابه خالياً منها ، ذلك على الرغم مما وصلت اليه الخرائط والأشكال التوضيحية من أهمية في هذا العصر باعتبارها أساساً من أسس الدراسة الجغرافية (٨٧) .

وللاسف لم يصلنا كتاب المسالك والممالك كله ، فقد فقد معظمه ولم يبق منه الا قطاع متفرقة عن افريقيا الشمالية ومصر والعراق وسكان واهي بحر قزوين وبعض أجزاء أسبانيا وأوربا .

ومن أكبر القطع تلك التي تصف افريقيا الشمالية والتي قام بنشرها البارون دي سلان De Slane (٨٨) ، وقد اعتمد البكري في كتابته عنها اعتماداً كبيراً على ما كتبه محمد بن يوسف الوراق القروي الذي ياقب بالتاريخي (٢٩١ هـ - ٣٦٢ هـ / ٩٠٤ - ٩٧٤ م) في مؤلفه بعنوان «مسالك افريقية وممالكها» ، إذ يقرر البكري ذلك في مواضع متعددة في كتابه غير أننا نلمح في كل فترة أثر البكري ومنهجه ودقته (٨٩) ، والتي يتضح منها معرفته العميقة بالطرق وبكل الساحل بمرافته وخلجانه العديدة (٩٠) .

(٨٧) عبد الله يوسف النسيم : المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

(٨٨)

Desri pti on de l'Afrique Septentrional por Abu Obeid el Bakri,
Paris, 1873.

وأعيد طبعه في سنة ١٩١١ .

(٨٩) حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص ١٣١ .

(٩٠) كراتشوفسكي : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .

وهناك قائمة أخرى من كتاب الممالك والممالك نشرها الأستاذ عبد الرحمن الحججي بعنوان جغرافية الأندلس وأوروبا ، تحتوي على بعض النصوص الجغرافية عن شبه الجزيرة الأيبيرية فضلاً عن المعلومات التاريخية المتناثرة فيها ، كما أنها تحتوي أيضاً على وصف لبعض الأقطار الأوربية وشموعها تعتبر من أقدم وأدق المعلومات عن هذه الأقطار ، وقد اعتمد البكري على الجغرافيين الرحالة أمثال إبراهيم بن يعقوب الأسراني الطرطوشي ، وكان رحالة أندلسياً ينتسب إلى مدينة طرطوشة من رجال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وكان يهودياً أو مسلماً من أصل يهودي ، وزار مناطق أوربية كثيرة ، ووصفها وصفاً قياً (٩١) . ولا نستبعد أن يكون البكري قد استفاد الوصول إلى كتابات ووثائق جغرافية ربما لم تصل إلينا يد الآخرين بل لعله استفاد الوصول إلى الوثائق الرسمية المحفوظة في قرطبة (٩٢).

ظل البكري متبهاً بأشيبليه حتى سنة ٤٨٤هـ ، عندما استولى عليها المرابطون واعتزلوا المتمد بن عباد ، فلم يجد أبو عبيد البكري مخرجاً سوى العودة إلى قرطبة فارتحل إليها وأقام بها إلى أن وافته المنية في شوال سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤ / ١٠٩٥) ودفن بمقبرة أم سلمه (٩٣) .

(٩١) عن رحلة إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي طه ، أنظر

EL-Hajji : Andalusian Diplomatic relations with western Europe during the Umayyad period, Beirut, 1970

محمد محمد مرسى الشيخ : دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨١ ، ص ٢٨١ وما بعدها .

(٩٢) نفس المرجع ، ص ٢٧٦ ، وأنظر أيضاً ، مادة أبو عبيد البكري بقلم لين برونسفال بدائرة المعارف الإسلامية .

(٩٣) ابن يشكوال : الصلة ، القسم الأول ، ص ٢٨٨ ، وتقع مقبرة أم سلمة في غافر مدينة قرطبة من جهتها الشمالية خارج باب اليهود ، أنظر : السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة ، ١٦ ، ص ٢٦٦ .

Torres Balbas : Ciudades musulmanas Madrid, P. 239.

نستدل من هذا العرض السريع أن أبا عبيد البكري كان احدى سليل
البيوتات الاندلسية العريقة التي تقلدت مناصب هامة في الاندلس في القرن
الخامس الهجري ، فنشأ أبو عبيد في ظلها نشأة طيبة ، وتلقى معارفه الثقافية
العامية بما وفرته له من الاسم والمجد والمال ، فلم يضطر إلى تقلد أى من الوظائف
العامية بما وفرته له من الاسم والمجد والمال ، فلم يضطر إلى تقلد أى من
الوظائف ، بل توفّر على البحث والدراسة ، فخلقت منه عالما جليلا بذ
أقرانه في مجال العلوم الأدبية بصفة عامة ، والتأليف الجغرافى بصفة خاصة
فجنت أسرته ثمرة كفاحه إذ عرفت به ، وانتسبت إليه .

مصادر ومراجع البحث

(أولا) مصادر عربية قديمة :

ابن الأبار : (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر) ت : ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م

— الحلة الديراء ، الجزء الثاني ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس الطبعة الأولى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ١٩٦٣)

— التكملة لكتاب الصلة ، جزءان ، نشر الأستاذ عزت العطار الحسني (القاهرة ١٩٥٦) .

الأديبسي : (أبو عبد الله محمد الشريف الديبسي) ت : حوالى ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م

— المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس ، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، لندن ، ١٦٦٨ .

ابن بسام الشنتريني (أبو الحسن علي) :

— الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثاني ، المجلد الأول تحقيق الدكتور احسان عباس ، الدار العربية للكتاب (تونس ١٩٨١)

ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) :

— كتاب الصلة ، جزءان ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة (١٩٦٦) .

البكري (أبو عبيد عبد الله عبد العزيز) ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م

— صحت اللالي ، تحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمني ، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٦) .

— معجم ما استعجم ، تحقيق الأستاذ مصطفى الدقا ، أربع أجزاء (القاهرة ١٩٤٥) .

— المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشر البارون دي سلان
(الجزائر ١٩١١)

— جغرافية الاندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق
الدكتور عبد الرحمن علي الحجي ، دار الارشاد (بيروت ١٩٦٨)
ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد) :

— جمهرة أنساب العرب ، تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون
الطبعة الرابعة ، دار المعارف (القاهرة ١٩٧٧) .

الحميري (أبو عبيد الله محمد بن عبد الله) ت : أواخر القرن التاسع الهجري
— كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق ليفي بروفنسال
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ، ١٩٣٧) .

ابن حيان (أبو مروان) ت : ٤٦٩ هـ / ١٠٧٩ م

— المتقبس من أنباء أهل الاندلس ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي
لجنة احياء التراث الاسلامي (القاهرة ١٩٧١) .

— المتقبس في أخبار بلاد الاندلس ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن علي
الحجي ، دار الثقافة بيروت (لبنان ١٩٦٥) .

ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسی) ت : حوال ٥٢٩ هـ
— قلانة العقيان في محاسن الاعيان ، قدم له الأستاذ محمد العناني ،
المكتبة العتيقة (تونس ، ١٩٦٦) .

الخطيب البغدادي (أحمد بن علي) :

— تاريخ بغداد ، الجزء الثامن ، (القاهرة ١٣٤٩ هـ)

ابن خير (أبو بكر محمد) :

— فهرسته ، تحقيق قرانديسكو كودبره وخوليان ريبرا (سرقسطه
سنة ١٨٩٣) .

ابن أبي جبه (أبو الخطاب السبتي) ت : ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ هـ

- المطرب في أشعار أهل المغرب ، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري
وآخرون المطبعة الأميرية (القاهرة ١٩٥٤) .

المضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) ت : ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م

- بغية المنتم في تاريخ رجال الاندلس (القاهرة ١٩٦٧) .

ابن عبد الملك الانصاري المراكشي (أبو عبد الله محمد بن محمد) ت :
٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م

- بقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة ، تحقيق الدكتور احسان
عباس (بيروت ١٩٦٤) .

ابن عذاري (أبو العباس أحمد بن محمد) ، كان حيا عام ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م

- البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ، الجزء الثالث ، تحقيق
لغني بروفندال دار الثقافة ، بيروت ، لبنان :

العذري (أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائل) ت : ٤٧٨ هـ / ٩٨٨ م

- نصوص عن الاندلس من كتاب ترضيع الاخبار وتوزيع الآثار
والبستان في غرائب البلدان والممالك إلى جميع الممالك ، تحقيق الدكتور
عبد العزيز الاهواني ، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية (مدريد ١٩٦٥) .
مؤلف مجهول :

- جغرافية الاندلس ، مخطوط مصور بالمعهد المصري للدراسات
الاسلامية ، بمدريد ، تحت رقم م ٣٦ ، عن الأصل الموجود
بالخزانة العامة بالرباط .

ياقوت الحموي الرومي (شهاب الدين أبي عبد الله) ت : ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م

- معجم البلدان ، الطبعة الأولى ، المجلد الأول (القاهرة ١٩٠٦) .
(ثانياً) مراجع عربية حديثة وأوربية وعربية :

أحمد (الأستاذ نفيس) :

— جهود المسلمين في الجغرافيا ، ترجمة الدكتور فتحى عثمان ، القاهرة
(ألف كتاب ٢٧٢) .

— الشيخ (دكتور محمد محمد مرسى) .

— دولة الفرنجة وعلاقتها بالامويين في الاندلس حتى أواخر القرن

العاشر الميلادى ، مؤسسة الثقافة الجامعية (الاسكندرية ١٩٨١)

الغنىم (الأستاذ عبد الله يوسف) :

— مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى ، مطبعة المدنى (القاهرة ١٩٧٤)

بالنشا (جورثالث) :

— تاريخ الفكر الاندلسى ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، الطبعة

الأولى ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ١٩٥٥) .

يروكلمان (كارل)

— تاريخ الأدب العربى ، الجزء السادس ، نقله إلى العربية الأستاذ

السيد يعقوب بكر (دار المعارف ١٩٧٧)

سالم (دكتور السيد عبد العزيز) :

— التاريخ والمؤرخون العرب ، مؤسسة شباب الجامعة (الاسكندرية

١٩٨١) .

صنان (الأستاذ محمد عبد الله)

— دول الطوائف ، الطبعة الثانية ، مكتبة الخانجي (القاهرة ١٩٦٩)

كراتشكوفسكى (أغناطيوس يوليا نوفنشى)

— تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، نقله إلى العربية الأستاذ صلاح الدين

عثمان هاشم ، القسم الأول ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

(القاهرة ١٩٦٣) .

مؤنس (دكتور حسين) :

— تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ، طبعة معهد الدراسات

الاسلامية (مريد ١٩٦٧) .

Antuna (Melchor) :

- Abnhayan de cordoba Y Su obra historica & (Escorial 1924).

De Slane :

- Description de L'AF rique septentri onal por Abu ocheid El Bakri, (Paris 1873).

Dozy (R

- Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le Mo yen Age, t. I, (leyde 1849).

Dubler (César) :

- Abu Hamid El Granadino, (Madrid 1953).

Encyclopaedia of Islam.

Hajji (A.A) :

- Andalusian Diphomatic relations with westean Europe during the Umayed period, (Beirut 1970).

Levi³provençal :

- La description de L'Espagne D'Ahmad AL-Razi, AL-Andalus, Vol. XVII, (1953)

Pons Boigues :

- Ensayo Bio-bibliografico sobre los historiadores Y Geografos Arabigo Espanoles, (Madrid1898).

Torres Balbas (L) :

- Ciudades musulmanas, T.I. Madrid.



قاضى القضاء فى مصر

على عصر الأيوبيين والمماليك

دكتور جابر سلامة المصرى

المدرس بكلية التربية

للمؤرخ المصرى الكبير أبى العباس أحمد القلقشندى تعريف لوظيفة تعريف لوظيفة قاضى القضاء إذ يقول أنه «من أرباب الوظائف الدينية ومن له مجلس بالحضرة السلطانية بإدار العدل الشريف وموضوعها التحدث فى الأحكام الشرعية وتنفيذ قضاياها ، والقيام بالأوامر الشرعية ، والفصل بين الخصوم وتنصيب النواب للتحدث فيما عسر عليه مباشرة بنفسه ، وهى أرفع الوظائف الدينية وأعلاها قدراً وأجلها رتبة» (١)

ولم يعرف الحكم أو القضاء فى مصر على عصر الأيوبيين والمماليك دستوراً غير القرآن الكريم وسنة النبى صلى الله عليه وسلم . وبذا أصبحت الشريعة الإسلامية الأساس لقانون الحكم وفق مذاهب أهل السنة الأربعة ، وإن كان المذهب الغالب هو المذهب الشافعى . ومن هنا جعل المملوك والملوك والأمراء أمر القضاء بين الناس والفصل فيما ينشأ بينهم من خصومات ومنازعات إلى رجال الدين . ويلقب من يتولى منصب القضاء باسم «قاضى القضاء» .

والواقع أن هؤلاء قاموا بدور هام فى المجتمع أملت كثرة اختصاصاتهم وتنوع مسؤولياتهم التى لم تقف عند حد الفصل فى قضايا الأحوال الشخصية وإنما امتدت إلى جميع أنواع القضايا من مدنية وجنائية ، هذا فضلاً عن إمامة المسلمين ونظر الوصايا والاحكام وشئون النياى والمهجور عليهم والتدريس

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤

ووظيفة قاضي القضاة لم تكن معروفة قبل العصر الفاطمي ، حيث لم يدع بذلك اللقب الا ببغداد ، وأول ما نعت به هو أبو الحسن علي بن النعمان الشيعي المذهب صاحب المكانة المرموقة في العصر الفاطمي ، ووافق ذلك استحقاقاً لما فيه من العلم والصيانة والهيبة واقامة الحق ، لأن العزيز بالله أجلسه معه يوم العيد على المنبر ، وزادت عظمته في دولة الحاكم (٢)

وكان من عادة الدولة في العصر الفاطمي انه إذا كان الوزير رب سيف فانه يقلد القضاء رجلاً نيابة عنه ، كما حدث في عهد أمير الجيوش بدر الجهمي وإذا كان الخليفة مستبدلاً قلد القضاء رجلاً ، فيقال له حينئذ قاضي القضاة وداعى الدعاه . (٣)

والمعروف أن جوهر الصقلي قائد الفتح الفاطمي لمصر عمل على نشر مذهب الشيعة في الديار المصرية ، وأمر العمل به في القضاء والفتيا . ومع هذا كانوا لا يمنعون أهل السنة من اقامة شعائرهم الدينية وفق مذاهبهم حفظاً لودهم واكتساباً لتأييدهم . فاستمرت مذاهب الاثنية مالك والشافعي وابن حنبل قائمة في صورة أو أخرى . وأوقف الفاطميون العمل بمذهب أبي حنيفة لأنه كان مذهب منافسيهم من العباسيين . وتعين قضاة على مذهب الشافعية

والمالكية زمن الفاطميين ، فان الوزير علي بن الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجهمي أقام في سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م أربعة من القضاة اثنين من الشيعة واخران من السنيين شافعيًا ومالكيًا (٤)

(١) د. سيد عاشور : العصر المالكي في مصر والشام ص ٣٦٧

(٢) السيوطي : سنن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٠-١٢١

(٣) المقرئ : المواقف والاعتبار ج ٢ ص ٢٤٦

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ١٩١

ولم يقتصر نفوذ قاضى القضاة في ذلك العصر على الاقليم المصرى ، بل تعداه إلى الولايات التابعة للدولة «وأعلم أن الأمر في الزمن الأول كان قاصراً على قاضى واحد بالديار المصرية ، بل كان في الدولة الفاطمية قاضى واحد بالديار المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب (١)

وظل الحال على ذلك حتى زالت الدولة الفاطمية ، وتأسست دولة الأيوبيين . ولم يكن بمصر مدارس للتثقيف والتعليم وقراءة الحديث اللهم الا تلك المدرسة التي أقام بها عالم الاسكندرية ومعلمها الأكبر أبا الطاهر أحمد بن محمد الدلفى منذ سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م يدرس ويحادث (٢) وانما كانت الدراسات الدينية المختلفة في المذاهب والجوامع وفي دار العلم التي أنشأها الحاكم بأمر الله وجمع فيها بالمجاذلات الدينية والمناظرات في المذاهب الاسلامية المختلفة . وبالرغم من أن الفاطميين أهتموا اهتماماً كبيراً بصنع البلاد بصيغتهم المذهبية الشيعية ، فان الدراسات الفقهية على مذهب الشافعى ومالك أستمرت في كل البلاد المصرية ، كما كثرت رواية الحديث ودراسه . (٣)

ومهما يكن من أمر فان مؤسس الدولة الأيوبية وهو صلاح الدين يوسف بن أيوب كان سنياً شافعيًا ، فأراد أن ينشر مذهب أهل السنة وبالتالي يقاوم مذهب الشيعة الإسماعيلية . فأنشأ أول مدرسة بمصر عرفت بالمدرسة الناصرية أو الصلاحية نسبة إلى الملك الناصر صلاح الدين لتدريس الفقه على مذهب الامام الشافعى ، وانتشر مذهب الشافعى في مصر وما يتبعها من الأقاليم . (٤)

(١) القلقشنلى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥

(٢) د. جمال الدين الشيال : تاريخ مدينة الاسكندرية في العصر الاسلامى ص ٧٥

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٧

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ج ١ ص ١٩١

وقد عرفت مصر زمن الأيوبيين والمماليك قضاء تفقهوا في الدين ، فكان لعلمهم العزيز وإطلاعهم الواسع وإيمانهم القوي وحججهم البالغة وحجهم للحق ما أعانهم على اتباع طريق الحق ومجانبة الباطل ومعارضة الانحراف وأضطاعوا بمهام عظيمة وأعباء جسيمة كان لها أثرها الواضح في تقويم المجتمع .

والمعروف أن صلاح الدين الأيوبي عندما أسقط الخلافة الفاطمية في مصر سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م بناء على تعليمات مشددة من سيدة نور الدين محمود ، فإنه اتخذ عدة إجراءات للقضاء على آثار المذهب الفاطمي في البلاد وجاء ذلك مصحوباً بتطبيق تقاليد المذهب السني وفقاً لما كان معمولاً به في الخلافة العباسية في بغداد . ومن هذه التقاليد وجود قاضي للقضاء ، إذ نسمع أن صلاح الدين عين صابر الدين عبد الملك بن درباس الكردي الشافعي قاضياً للقضاة في مصر بعد أن كان وزيراً في أواخر أيام الخليفة الفاطمي العاضد . (١) وهو الذي خرج مع اليهود والمقرئون والخطباء لاستقبال رسول نور الدين محمود صاحب حلب ومعه خلع الخليفة العباسي العباس ببغداد الذي أهدها لنور الدين ليلبسها صلاح الدين . وكانت عبارة عن فرجيه سوداء وطوق من ذهب (٢) . واستمر بن درباس في هذا المنصب حتى وفاه صلاح الدين سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م .

وتملك البلاد الملك العزيز وولى محي الدين محمد أبو حامد بن شرف الدين عبد الله بن هبة الله بن أبي عصرون قضاء الديار المصرية وضم إليه نظر الأوتاف (٣) ، وهو الذي تولى عقد قران العزيز بأبنة عمه العادل (٤) .

(١) السيوطي : حش المحاضرة ج ٢ ص ١٢٤

(٢) المنريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ٤٦

(٣) المنريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ١١٨

(٤) المنريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ١١٧

ولم تدم ولايته في القضاء كثيراً فصرف عنه سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٤ م ، وتولى زين الدين على بن يوسف بن عبد الله بن بندار الدمشقي : (١) وعزم السلطان على التوجه إلى بليس لمواجهة أطاع عمه العادل وأخيه الأفضل حيث أغاروا على البلاد من جهة الشرق وذلك في إطار النزاع الذي نشأ بين أفراد البيت الأيوبي على أثر وفاة مؤسس الدولة ، ولما اشتد الحصار على بليس وقلت الأموال عنده طلب من قاضي القضاة زين الدين أن يقرضه مال الأيتام وكان مبلغ أربعة عشر ألف دينار ، وكتب السلطان ذلك على نفسه وأشهد عليه وأحاله إلى بيت المال للاتفاق منه ، ورفض ما عرضه الأغنياء من الأموال لمواجهة الأحوال الطارئة : (٢)

وأنفق في ذلك الوقت أن عبد الكريم بن علي البيهقي كان يتولى مهمة الحكم والإشراف (٣) في البحيرة مدة طويلة فجنى من وراء ذلك مالا كثيراً وكان متزوجاً بأمرأة موسرة وأقامته بالاسكندرية وحدث أنه أساء عشرتها لسوء خلقه ، فمار أبوها إلى قاضي الاسكندرية وأثبت عنده ما لحق بأبنته من ضرر ، فحضر القاضي بنفسه إلى الدار ولم يتمكن من فتح الباب ، فأمر بنقب الدار وأخرج المرأة وسلمها لأبيها وأعاد بناء النقب ، فغضب عبد الكريم وتوجه إلى القاهرة وبذل للأمير فخر الدين جهاز كس خدنة آلاف دينار لمساعدته لدى السلطان على ولاية قضاء الاسكندرية ، ووعد خزانة الملك الملك العزيز بأربعين ألف دينار . واخل ذلك كله إلى الأمير فخر الدين ، فأحضره الأخير إلى العزيز وهو حينئذ في غاية الحاجة إلى المال وقال : هذه خزانة مال قد أثبتك بها من غير طلب ولا تعب ، وعرفه الخبر . فأطرق العزيز ملياً ثم رفع رأسه وقال لفخر الدين وأعد المال إلى صاحبه وقل له

(١) السيوطي : حسن المباشرة ج ٢ ص ١٢٤

(٢) القرينى : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٣٦

(٣) الإشراف هنا المقصود به مراقبة الأمور المالية عامة في جهة معينة من قبل سلطان أو أمير وليس متولياً للشرف .

القرينى : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٢٧

إياك والعود إلى مثلها وعرفه أنى إذا قبلت هذا منه أكون قد بعث به أهل الاسكندرية وهذا الأفعلة أبداً (١) . وهذا يدل دلالة واضحة على ما كان يتمتع به العزيز من حسن السيرة وكثرة الكرم والرفق وحين رعايته للرعية علاوة على ادراكه الكامل فى عدم صلاحية وجدارة مثل هذا الشخص لتولى المنصب الهام لعدم توافر الشروط اللازمة فيه .

والتقى العزيز بعمه وأخيه وتم الصلح بينهم ، وعاد العزيز إلى القاهرة وصحبته عمه العادل الذى أخذ فى إصلاح أمور وأظهر من محبة العزيز الكثير وصار إليه الأمر والنهى والتصرف فى سائر أمور الدولة ، ومن أعماله أنه عزل قاضى القضاة زين الدين على وأعاد ابن أبى عسرونه (٢) .

والجدير بالذكر هنا أن هذه الفترة من الحكم الأيوبي وما تلاه فى العصر المملوكى - ذلك العصر الذى يعتبر امتداداً لعصر الأيوبيين فى كثير من نواحي الحياة والنظم - أتمت بكثرة تغيير القضاة واستبدالهم وتعيين قضاة جدد لأسباب مختلفة منها صلاحهم بالحكام لمواقفهم المعروفة أو عزل أنفسهم أو الرغبة فى الحصول منهم على فتاوى لا تتفق مع مبادئ الشرع أو بسبب وفاتهم . كما أنه تم تقسيم الديار المصرية إلى أقسام قضائية ثلاث هى : القاهرة ولوجه البحرى ، ومصر والوجه القبلى ، وقرر الاسكندرية إلى جانب الحكم بالأقاليم . وهؤلاء يعينوا بوامطة قاضى القضاة . وتولى قضاة القضاة مباشرة أعمال جديدة بحكم هذا المنصب الدينى كما سيتضح ذلك بعد .

وبعد استيلاء الملك الأفضل بن صلاح الدين على مصر بعد انزعاجها من ابن أخيه العزيز أعاد زين الدين بن بشار الدمشقى وكتب له ضياء الدين

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٢٩ .

السيوطى : حن الحاضرة ج ٢ ص ١٢٤ .

ابن الأثير تقليداً بمناسبة توليه القضاء ، من ضمن ما جاء به وفان منصب القضاء في المناصب بمنزلة الصباح الذي به يستضاء أو بمنزلة العين التي تعتمد عليها الأعضاء وقد جعله الله ثاني النبوة حكماً ووارثها علماً والقائم بتنفيذ شرعها . وقد قلدناك هذا المنصب بمدينة مصر وأعمالها وأن ولايته نطت منك بكفء فهي بك حره وأنت بها حري ، وما أردت بها شيئاً سوى تحمل الانتقال لكن عندنا أربع من الوصايا لا بد من الوقوف فيها وإبرازها وإبرازها إلى الأسماع ، فالأولى هو التسوية في الحكم بين أقوالك وأفعالك ، والأخذ من صديقك لعدوك . والثانية النظر في أمر الوكلاء القائمين بمجلس الحكم تم الشهداء فانهم قد تكاثرت أعدادهم وأهل انتقادهم ، والشاهد دليل يسير القضاء على منهجه ، أما الوصية الرابعة فانها مقصوده على كاتب الحكم الذي إليه الإرادة والإصدار . ومنصب التأسيس كنصب القضاء أخ يشد من عضده ويكثر من عده ، ونحن نوصيك بطلبه العلم وصيتين أحدهما أعظم من الأخرى .. والله يأخذ بناصية كل منا . (١)

ويلقى هذا التقليد أضواء على وضع القضاء في ذلك العصر ، ونظرة ونظرة الدولة اليهم والقضاء . إذ يشير إلى أهمية منصب القضاء وعظم قدره وارتفاع منزلة من يتولاه ، وما يجب أن يكون عليه القاضي من نقاء السريرة وطهارة الذمة وحسن السيرة والتفقه في الدين ومعرفة العلوم ، وعدم التفرقة بين الناس أو التأثر في أحكامهم بواسطة ذوى النفوذ والجاه ، والحفاظة على هيئة ذلك المنصب الخطير . والعمل على تطهير مجلس القضاء من الوكلاء القائمين به حتى لا يتأثر أمر القضاء من حيلهم وأهوائهم ويكون بعيداً عن زورهم وبهتانهم . كما وضع أن الشاهد هو دليل القاضي وبه تقوم الحجة فيجب أن تتوفر فيهم التقوى والورع وخشية الله تعالى . أما عن كاتب الحكم فيحسن اختياره من حيث معرفته بالحلال والحرام ، فقها في البيوع

(١) أنظر نص التقليد في

السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٤ - ١٢٨

والمعاملات حافظاً للأحكام حاذقاً بالشروط . وأخيراً طالب القاضى بمزاولة التدريس فهو قرين للقضاء ينتفع به طلبية العلم وتتسع به دائرة ممارفهم ونهاية الأمر أن يخشى الله فى أموال المملعين فهو مال الله ورسوله فلا يتخوض فيه فتنتطى الجوارح بالشهادة على أربابها ولا ينجو الا من أتى الله بقلب سليم ،

ثم تولى عماد الدين عبد الرحمن بن عبد العلى بن السكرى ، وطلب منه السلطان مبلغ من مال الأيتام فامتنع القاضى عن الاستجابة ، فصرفه السلطان عن القضاء . (١)

وولى بعده شرف الدين محمد بن عبد الله الاسكندراني المعروف بأبن عين الدولة قضاء القاهرة والوجه البحرى ، وتولى تاج الدين عبد السلام ابن الخراط قضاء مصر والوجه القبلى ، ثم صرف بن الخراط وتولى ابن عين الدولة مباشرة القضاء بمفرده . (٢)

وقد حضر إلى مصر بدر الدين أبو الحاسن يوسف السنجارى - قاضى سنجار ، فاستقبله السلطان بالحفاوة والتكريم وقلده قضاء مصر والوجه القبلى وبقي مع ابن عين الدولة قضاء القاهرة والوجه البحرى (٣)

مكانة قاضى القضاء فى العصر الأيوبي وصلاتهم بالسلطين والأمراء

من المراقف المشرفة لقضاة ذلك العصر ، موقف قاضى القضاء شرف الدين محمد بن عين الدولة ، فقد تقدمت اليه احايى القضايا ليشهد فيها السلطان الكامل محمد ، فلم يقبل شرف الدين شهادته وامتنع مراراً بسبب

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٨

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٩

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٠٧

عمود فرنوس : تاريخ القضاء فى الاسلام ص ١٠٥

وبآخر ، فلما رأى السلطان اصراره على عدم قبول شهادته بادرة بقوله
«أنا أشهد تقبلي أم لا» ، فقال القاضي «لا ما أقبلك وكيف أقبلك وصحبه (١)
تطاع اليك بمنحكها (٢) كل ليلة وتنزل في صبيحة اليوم التالي وهي تمايل
سكري على أيدي الجوارى ويزل ابن الشيخ من عندك ، أحسن ذلك»
فقال له السلطان : «يا كيواج» - وهي كلمة شتم فارسية - فقال القاضي
«ما في الشرع يا كيواج ، أذهبوا أنى قد عزلت نفسي» ، فقال ابن الشيخ
للسلطان : «المصلحة اعادته لئلا يقال لأى شيء عزل القاضي نفسه وتطير
الأخبار إلى بغداد ويشيع أمر عجيبة وينتشر» فنهض الكامل إلى القاضي
وأسترضاه وعاد إلى مباشرة عمله ، ومن شعره :

وليت القضاء وليت القضاء لم يكن شيئاً توليته

وقد صافني للقضاء القضاء وما كنت قد تمنيته (٣)

وفي تلك الفترة قدم الشيخ عز الدين بن عبد السلام (٤) إلى مصر بعد أن
أنكر على الصالح اسماعيل صاحب دمشق استعانته بالقرنجة على منازعته

(١) منية بمصر أرفع بها الملك الكامل فكانت تحضر اليه ليلا وتثنى له بالجنك على الدف في
جلس محضرة ابن شيخ الشيوخ وغيره السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٩

(٢) جنك : آلة من آلات الطرب ، والجنكيات الجوارى اللاتي يلعبن على الجنك
د. سعيد عاشور : العصر المالكي في مصر والشام ص ٤٠٦

(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٩

(٤) هو الإمام المجتهد القدوة عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسين بن محمد
ابن مهذب السلسي سلطان العلماء ، كانت ولادته في بلاد أنشام سنة ٥٧٧ هـ ومات بالقاهرة سنة
٦٦٠ هـ ، أى أنه عمر نحو ٨٣ سنة . ومعنى هذا أنه حاصر الدولتين الأيوبية والمملوكية .
أمضى في مصر نحواً من إحدى وعشرين سنة وله خلالها مناصب هامة منها القضاء وكان إليه أمر الإفتاء
فلا يميز أحد من العلماء على الالتئام مع وجود ابن عبد السلام في مصر والقاهرة محافظاً على الشريعة
والتعصب في الدين والتشدد في الحق .

السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ٨٠

إبن شاكر : نوات الوفيات ج ١ ص ٢٦٦

من الأيوبيين وتسليمهم مدينة صيدا وقلعة الشقيف ، فشق ذلك على ابن عبد السلام وحز في نفسه أن يتعاون ملك دمشق مع الفرنجة ضد المسلمين فامتنع عز الدين عن الدعاء له في الخطبة . وكان معنى هذا التصرف الذي فعله الشيخ هو الثورة على الصالح اسماعيل وتحريض الناس على عصيانه والخروج عليه ، فغضب الصالح منه ومن رفيقه الشيخ جمال الدين أبو عمرو ابن الحاجب المالكي الذي ساعده على الخروج إلى الديار المصرية ، فأرسل الصالح إليه وهو في الطريق رسولا يثلطف به في العودة إلى دمشق ، فاجتمع به وأسترخاه وقال له : « ما تريد منك شيئاً إلا أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير » ، فقال الشيخ له : « يامسكين ، ما أَرْضَاه يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده ، يا قوم أنتم في راد وأنا في راد ، الحمد لله الذي عافانا مما أبتلاكُم » (١)

وبعد وصوله أكرم وفادته الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر في ذلك الوقت وولاه خطابه جامع عمرو بن العاص وقلعه قضاء مصر والوجه القبل عرضاً عن شرف الدين بن عين الدولة بعد ما كتب السلطان مخطه إليه ما نصه « إن القاهرة لما كانت دار المملكة وأمراء الدولة وأجنادها مقيمون بها وحاكمها مختص بحضور دار العدل ، تقدمنا أن يتوفر القاضي على القاهرة وعملها لا غير » (٢)

ومن المواقف المشهود بها لقاضي القضاء عز الدين بن عبد السلام إصراره على الحق ولو أدى ذلك إلى معارضة السلاطين والمقربين إليهم من الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة : من ذلك موقفه من معين الدين ابن شيخ الشيوخ وزير الصالح نجم الدين أيوب ، فقد قام الأخير بواسطة رجاله بتشيد بناء على سطح مسجد بمصر لتكون طبلخاناه لأمرها (٣)

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٠

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٠٩

(٣) أمير طبلخاناه : مرتبة حربية من مراتب أرباب السيف في مصر المملوكية ، صاحبها يل أمير مائة مقدم ألف في الدرجة . وسمى أمير طبلخاناه لأحقاقه في دفع الطبول على أبوابه كما يفعل

عماد الدين ابن شيخ الشيوخ ، فلما ثبت ذلك عند الشيخ أنكر ذلك ومضى بنفسه وأولاده حتى هدم البناء ونقل أنقاضه من أعلى سطح المسجد ، ثم أشهد على نفسه أنه قد أستمط شهادة الوزير معين الدين وأنه قد عزل نفسه من القضاء (١)

ولم يؤثر هذا التصرف من جانب قاضي القضاة في مكانته لدى السلطان بل سقطت مكانة الوزير عنده ، وأتفق أن جهز السلطان رسولا إلى الخليفة العباسي ببغداد ، فلما وصل الرسول إلى ممر الخلافة ووقف بين يدي الخليفة وأدى الرسالة إليه سأله : «هل سمعت هذه الرسالة من السلطان » . فقال : «لا ولكن حملني أباه عن السلطان معين الدين بن شيخ الشيوخ الوزير » ، فقال الخليفة على الفور «إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام فنحن لا نقبل روايته » . (٢)

ومع بداية عهد السلطان الملك المعظم غياث الدين تورانشاه سنة ٦٤٧ هـ ١٢٥٠ م كانت البلاد معرضة لحملة لويس التاسع ملك فرنسا ، وقد رجحت كفة النصر إلى جانب المسلمين بينما اشتدت الوطأة على الجانب الصليبي لنفاذ المؤونة لديهم وارتفاع أسعار الحاجيات ارتفاعاً فاحشاً ، وقت ذلك في عضد الفرنج ، فطلب الملك الفرنسي فتح باب المفاوضات مع السلطان وأرسل يطلب الصلح وكان يمثلّه جوفروا دى سارجين ، وينوب عن السلطان الأمير زين الدين أمير جانداد (٣) وقاضي القضاة بدر الدين السلاطين وأمرأه المنتين ، ويطلق عل أمير طبلخاناه أيضاً أمير أربعين ، بمعنى أن يكون في خدمته أربعين ملوكاً وقد يزيد هذا العدد إلى سبعين أو ثمانين .

د. سعيد عاشور : العصر المالكي في مصر والثام ص ٣٩٢

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣١٢

السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٠

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٠

(٣) الجانداد : الأمير الذى يتأذن عل دخول الأمراء الخدمة السلطانية ويدخل أمامهم

إلى الديوان .

د. سعيد عاشور : العصر المالكي في مصر والثام ص ٤٠٤

السنجاري (١) لما له من مكانة عظيمة عند السلطان .

ومما ينبغي الإشارة إليه في صدد الكلام عن وقوع الأسطول الاسلامي على سفن الفرنج أن بعض المراجع الشرقية روت قصة غريبة مؤداها أنه كان يوجد في معسكر المسلمين شيخ يدعى عز الدين بن عبد السلام صخر الله له الريح فوجهها ضد سفن الصليبيين الهاربة إلى دمياط فحطمتها جميعاً وغرق من كان فيها . (٢) ولعل هذه الأسطورة توضح ما كان يعتقد الناس في شيوخ عصرهم من بركة و مكانة ، وما كان لهم من كرامات .

ومما يدل على مكانة قضية القضية تلك المجالس التي كان يعقدها السلطان ويحضرها العلماء والفقهاء من الشيخ عز الدين بن عبد السلام والقاضي عماد الدين القاسم بن ابراهيم بن هبة الله بن يهنا بن القطب الحموي الذي تولى قضاء القاهرة بعد موت جمال الدين يحيى . وقد حضر المؤرخ جمال الدين واصل هذه المجالس ، وكان موضوع النقاش هو الحديث النبوي (نعم العبد صيب لو لم يخف الله لم يعصه) (٣)

وكان أول من رتب مجالس للنظر في المظالم هو السلطان الصالح نجم الدين فحضر نواباً عند بدار العدل هم انتخاب الدين ياقوت الجمالي ، ومن الفقهاء الشريف شمس الدين الأدموي نقيب الأشراف وقاضي العسكر (٤) ، وعز الدين عباس والقاضي فخر الدين بن الكرى وشاهدان عدلان : (٥)

(١) د. جوزيف نسيم : العنوان الصليبي على مصر ص ١٩٣

(٢) د. جوزيف نسيم : العنوان الصليبي على مصر ص ٢٠٦

(٣) المقرئ : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٢٥٤

(٤) قاضي العسكر : وظيفة جلية قديمة كانت في زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وموضوعها أن صاحبها يحضر بدار العدل مع القضاء وله الفصل في القضايا الخاصة بالعسكر أو التي تقوم بين العسكر والمدنيين .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦

(٥) العنوان : جمع عدل في مصطلح الفقهاء والمحدثين الرجل الصحيح الرواية

فهرع الناس لدار العدل من كل جانب ورفعوا ظلاماتهم حيث نال كل ذي حق حقه ، وأستمر ذلك بمصر في العهود اللاحقة . (١)

هذا وقد تماقب على قضاء مصر في هذا العصر كثيرين منهم صدر الدين أبا منصور موهوب بن عمر الجزري الفقيه الشافعي الذي ولي القضاء بعد اعتزال عز الدين عبد السلام وكان ينوب عنه في الحكم ، ثم الأفضل الخوئي (٢) ، وبعد وفاته في سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م تولى ابنه قاضي القضاة جمال الدين يحيى . (٣)

قضاة القضاء العصر الأيوبي

- صدر الدين عبد الملك بن درباس
- يحيى الدين محمد أبو حامد بن شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون
- زين الدين علي بن يوسف بن عبد الله بن بندار الدمشقي
- عماد الدين عبد الرحمن بن عبد العلي بن السكري
- شرف الدين محمد بن عبد الله الاسكندراني المعروف بأبن عين الدولة .

- تاج الدين عبد السلام بن الخراط .
- بدر الدين أبو المحاسن يوسف المنجاري
- عز الدين بن عبد السلام
- صدر الدين أبا منصور موهوب بن عمر بن موهوب بن الجزري
- الأفضل الخوئي
- جمال الدين يحيى
- عماد الدين القاسم بن إبراهيم بن هبة الله بن بهان بن القطب الحموي

(١) المقرئ : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٧

(٢) الخوئي : نسبة إلى خرج أو غوثا وهي بلدة من أعمال أذربيجان بين مراغة وزنجان في طريق الري .

المقرئ : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣١٥

(٣) المقرئ : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٣٢

يقول المقرئى شيخ مؤرخى عصر المماليك فى مصر الاسلامية «وفوضوا - يعنى المماليك - لتقاضى القضاء كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام وجعلوا اليه النظر فى الأقضية الشرعية كتناعى الزوجين وأرباب الديون ونحو ذلك (١)

واستمر القضاء حتى أوائل حكم المماليك كعهده على أيام أساتذتهم من الأيوبيين منوطاً بالشافعية لا يشركهم فيه أى من المذاهب الأخرى (٢)

وأهم التغيرات التى تمت فى عهد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس وكان يلى قضاء مصر كلها تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب بن خلف ابن أبي القاسم بن بنت الأعز (٣) . عوضاً عن بدر الدين يوسف النجارى بعدة شروط أشترطها على السلطان (٤) . ثم أشرك معه قاضى القضاة برهان الدين النجارى ، فكان للأخير قضاء مصر والوجه القبلى ، وبقي قضاء القاهرة والوجه البحرى بيد ابن بنت الأعز . وفى سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م عزل السلطان برهان الدين النجارى عن قضاء مصر والوجه القبلى (٥) وأعاد تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز فصار بيده قضاء القضاء بديار مصر كلها . وكان متشدداً فى أحكامه ، فأمره السلطان أن ينب عنه فى الحكم

(١) المقرئى : المراعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٢١

(٢) البكى : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٣٤

(٣) عرف بهذا القلق نسبة إلى جده لأنه ، وهو صاحب الأعز فخر الدين أبو الفوارس مقدم بن القاضي كمال الدين أبي السادات أحمد بن شكر أحد وزراء السلطان الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب .

المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ حاشية ١ ص ٥٦٢

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٤٨

(٥) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٦٥

مدرسى المدرسة الصالحية من الحنفية والمالكية والحنابلة ، ولم يكن ذلك معروفاً بمصر ، فجلس القاضى صابر الدين سليمان الحنفى والقاضى شرف الدين عمر الديكى المالكى ، والقاضى شمس الدين محمد بن ابراهيم الحنبلى وحكموا بين الناس وفق مذاهبهم (١) .

ومازال يبرز يعطى نظام القضاء اهتمامه وعنايته ، ولم يشأ أن يترك قاضى القضاء الشافعية يتحكم وحده فى جميع الشئون القضائية لما فى ذلك من اجحاف ببقية المذاهب . (٢)

فلما كانت السنة الخامسة من ولاية السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ هـ ١٢٦٥ م أمر بتعدد منصب قاضى القضاء فى مصر والقاهرة ونقى تعدد مذاهب أهل السنة وهى أربعة شافعى وحنفى ومالكى وحنبل . ويرجع ذلك إلى أن الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى كان يكره قاضى القضاء تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز ويضع من قدرة ويحط عليه عند السلطان بسبب تشدده فى الأحكام وتوقفه فى القضايا التى لا توافق مذهبه فاتفق جلوس السلطان بدار العدل فى يوم الاثنين ثانى عشر ذى الحجة ، فرفع اليه بنات الملك الناصر الأيوبنى صاحب الكرك ودمشق قصة فيها أن ورثة الناصر أشترؤا دار قاضى القضاء بدر الدين المنجارى فى حياته ، فلما مات ذكر ورثته أنها وقف . فعندما قرئت أخذ الأمير أيدغدى يحط على الفقهاء وينقصهم . فقال السلطان للقاضى تاج الدين «يا قاضى هكذا تكون القضاء» فقال تاج الدين : «يا مولانا كل شاه معلقة بعرقوبها» ، قال «فكيف الحال فى هذا» قال : «إذا ثبت الوقف يعاد الثمن من الورثة» . فقال السلطان «فاذا لم يكن مع الورثة شىء» قال القاضى : «يرجع الوقف إلى أهله ولا يستعاد الثمن» فغضب السلطان من ذلك . وما تم الكلام حتى تقدم رسول أمير

(١) المفريزى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤٧٢

(٢) د. سيد عاشور : المصر المالكي فى مصر والناس ص ٣٦٦

المدينة المنورة وقال : «يا مولانا السلطان ، سألت هذا القاضي أن يسلم إلى مبلغ ريع الوقف الذى تحت يده لينفقه صاحب المدينة فى فقراء أهلها فلم يفعل» . فدأل السلطان القاضي عما قاله ، فقال «نعم» . قال السلطان : «أنا أمرته بذلك فكيف رددت أمرى» . قال : يا مولانا هذا المال أنا متسلمه وهذا الرجل لا أعرفه ولا يمكننى أن أسأله لمن لا أعرفه ولا يتسلمه الا من أعرف أنه موثوق بدينه وأمانته ، فان كان السلطان يتسلمه منى أحضرته اليه فقال السلطان «تزرعه من عتقك وتجعله فى عتقي» قال : «نعم» ، قال السلطان «لا تدفعه الا لمن تختاره» . ثم تقدم بعض الأمراء وقال : «شهادت عند القاضي فلم تسمع شهادتى فى ثبوت الملك وصحته» . فدأل السلطان القاضي عن ذلك فقال : «ما شهد أحد عندى حتى أثبت» ، فقال الأمير : «إذا لم تسمع قولى فن تريده» . قال السلطان «لم لا سمعت قوله» فقال : «لا حاجة فى ذكر ذلك» فقال الأمير أيدغدى : «يا قاضى مذهب الشافعى لك وتولى من كل مذهب قاضياً» ، فصنى السلطان لقول أيدغدى ، وأنفض المجلس إلى أن كان يوم الاثنين تاسع عشرة ، ولى السلطان القاضي صدر الدين سليمان بن أبى العز ابن وهيب الأذرى الحنفى مدرس المدرسة الصالحية ، والقاضى شرف الدين عمر ابن عبد الله بن صالح بن عيسى البكى المالكى ، والقاضى شمس الدين محمد بن ابراهيم الحنبلى ليكرنوا قضية القضاة مضافاً للقاضى القضاء تاج الدين ابن بنت الأعز ، ووجد السلطان لهم حق توليه نواب لهم بأعمال الديار المصرية وأبقى على ابن بنت الأعز النظر فى مال الأيتام والمحاكمات المختصة ببيت المال (١) ويؤدى ما ذكرنا إلى أن تدخل عدة أمور تلقى الضوء على بعض الحقائق أولها :

أن السلطان يبرز إلى جانب رغبته الأكيدة فى اصلاح النظام القضائى

(١) انقريزى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٣٨ - ٥٤٠

القلقى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥

السيرى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٣

والنحوض به ، إلا أنه يتضح تلخذه وأمراده في شئون القضاء باعتراضهم على أحكام القاضى التى تصدر على غير هواهم :

(ثانياً) ازجراء القضاة لبعض طوائف المدايلك وعدم قبولهم شهادتهم ربما لأنهم فى رأيهم غير عدول .

(ثالثاً) شجاعة القاضى وصلابته فى الحق ، وقد حكى عن تاج الدين أنه ركب مرة وتوجه إلى القرافة ودخل على الفقيه منضل حتى تولى عنه قضاء الشرقية ، فقبل له : « تذهب إلى شخصى حتى توليه » ، فقال « لو لم يفعل لقبلت رجله حتى يقبل فانه يمد عنى ثلثه من جهنم » (١)

(رابعاً) كون تعدد القضاة إنما حدث على عهد الظاهر ببرس وأنه قرر ذلك سنة ٦٦٣ هـ ، فى حين ذكر السيوطى من أن القضاء تعدد سنة ٥٢٥ هـ زمن الدولة الفاطمية عندما تم تعيين قاضى شافعى ، وقاضى مالكى ، وقاضى للاسماعيلية ، ورابع للامامية . (٢)

وفى رأى أن رواية السيوطى هذه غير صحيحة لأنه لم يكن فى مصر أيام الفاطميين أى شأن للشيعنة الأمامية وإنما ساد مذهب واحد فقط وهو مذهب الأمامية الاسماعيلية . ومن جهة أخرى فان الفاطميين كانوا قد أبطلوا (٣) حين أستتب لهم الأمر فى مصر العمل بالمذاهب الأخرى وجعلوا القضاء مقصوراً على مذهبهم . أما ابن اياس فقد خالف كل من المتريزى والقلقشندى والسيوطى ، إذ يذكر أن تعدد القضاء حدث سنة ٦٦٠ هـ (٤) وأرى أنه لا تعارض بين الروايتين إذ يصح أن يفهم كلام ابن اياس على أن

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٢

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٢

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٢٢

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ص ٨٥

المقصود من نظام التعدد في القضاء هو ما كان عليه الحال في تلك السنة من أن قاضي القضاة ابن بنت الأعز كان قد أناب عنه القضاة الثلاثة الحنفى والمالكي والحنبل يحكم كل بمذهبه ، ويؤيد ذلك عندما مثل تاج الدين في أمر فامتنع من الدخول فيه ، فقيل له : «مر نائبك الحنفى» . وكان القاضي وهو الشافعى يدتنب من شاء من المذاهب الثلاثة الأخرى فامتنع عن ذلك (١)

ومن الأهمية أن نبين في معرض قصة التعدد وأسبابه ما أورده المقرئى أنفأ أن قضاة الحنفية والمالكية والحنبلية كانوا يولون نواباً عنهم في مذاهبهم في الوجهين القبلى والبحرى كالشافعى سواء بسواء ، في حين يقول عبد الوهاب السبكي : أنه لم يكن من حق أى قاضى أن يتنب نواباً سوى قاضى قضاة الشافعية ، إذ يقول في ترجمته لتاج الدين بن بنت الأعز «ثم لما ضم الظاهر يبرس القضاة إلى الشافعية أستثنى لهم الأوقاف وبيت المال والنواب (٢) . أما التلقشندى فإنه جاء وسطاً بين ما قاله المقرئى والسبكي فيقول «ثم كل من الأربعة له التحدث فيما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفسطاط ونصب النواب واجلاس الشهود ويستقل الشافعى منهم بتولية النواب في الوجهين القبلى والبحرى لا يشاركه فيه أحد . (٣)

هذا ولم يستمر النظام القضائى على حاله من الاستقرار ، بل اعتراه بعض بعض التغييرات وأدخلت عليه بعض التعديلات كنتيجة لتدخل السلاطين سواء بدافع محافظتهم على قواعد الدين والشرع ، أو لما وجدوه في ذلك من تحقيق مصالح شخصية أقتضها طبيعة المرحلة التى يعاصرونها . وكان لبعض هذه التغييرات والتطورات أثرها الواضح والخطير على المجتمع

(١) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٣٤

السيرملى : سنن الحاضرة ج ٢ ص ١٣٢

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٣٥

(٣) التلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦

المصري في عصر سلاطين المماليك . ولا يوضح ذلك نذكر أنه بعد وفاة تاج الدين بن بنت الأعز ولى قضاء القاهرة والوجه البحري تقي الدين محمد ابن الحسين بن رزين الشافعي ، وولى قضاء مصر والوجه القبلي محي الدين عبد الله بن شرف الدين المعروف بأبن عين الدولة (١) . وفي سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م ومع بداية عهد السلطان الملك الناصر الدين بن الملك الظاهر بيبرس صرف قاضي القضاة ابن عين الدولة عن قضاء مصر والوجه القبلي وأضيف إلى قاضي القضاة تقي الدين محمد بن الحسين بن رزين الشافعي فكل له قضاء القضاة بديار مصر (٢)

واتفق في سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م أن عزل قاضي القضاة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي نائبه بالمحلة الكبرى شقيق تقي الدين شبيب الحراني ، فغضب الأخير وكتب للسلطان بخبرة بوجود ودائع كبيرة لتجار من أهل حران وبغداد والشام وقد ماتوا ، فاستدعاه السلطان بيبرس وسأله عن ذلك فأنكر ، فأمر السلطان بمهاجمة داره ، فوجد فيها كثيراً مما أدعاه شبيب بعضه قد مات أهله وبعضه لقوم أحياء ، فأخذ السلطان زكاة المال عنها وسلم لمن كان حياً وديعته وعاقب قاضي القضاة بأن أعقله ولم يول بعده أحداً في قضاء الختابة (٣) .

وفي سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م عزل قاضي القضاة صدر الدين سليمان ابن أبي العز الحنفي نفسه من القضاء ، فشرع منصب قضاء الختابة بعده (٤) وفي سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م ولاية السلطان الملك العادل بابر الدين سلامش بن بيبرس كتبت تقاليد القضاة الأربعة ، وتقرر أن يكون قاضي القضاة صدر الدين عمر بن قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن الأعز

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٦١ - ٥٦٢

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٤٧

(٣) المقريزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٠٢ - ٦٠٣

(٤) المقريزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٤٨

الشافعي هو الذي يولى في أعمال مصر قضاة ينوبون عنه في الأحكام ، ويحكم
القضاة الثلاثة بمصر والقاهرة خاصة بغير نواب في الأعمال (١) .

ولما تولى السلطان المنصور لاجين عرف عنه تعظيمه للشرع وتنفيذه
لأوامره ، فأمر بإنشاء مودع (٢) لمال الأيتام ، وطلب من الأمراء - وكان
تحت يدهم أموال اليتامى - نقل ما تحت يدهم من هذه الأموال إلى هذا المودع
وكتب توقيعا بأن من مات وله ورثة صغار ينقل ميراثهم إلى مودع (٣) الحكم
ويترلاه قاضي القضاة الشافعي (٤) . ولعل الدافع إلى هذا أيضاً أن أيدي
بعض القضاة أمنت إلى مال اليتامى ، فقد روى ابن بطوطة أن شرف الدين
عبد الرحيم قاضي أسبوط في عهد الناصر محمد كان يلقب «حاصل ما تم»
لأنه كان إذا أتاه أحد اليتامى يطلب شيئاً من أمواله قال له «حاصل ما تم»
ومعنى ذلك أنه لم يبق من المال المتحصل باسمه شيء ، فالتصق به ذلك
ذلك اللقب (٥) كذلك تقرر لقاضي القضاة الحنفية في سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧١
١٣٧٢ م أن يكون له مودعاً خاصاً لأموال يتامى الحنفية أسوة بقاضي قضاة
الشافعية وإن كان هذا لم يتم تنفيذه بسبب مرض القاضي وموته بعد ذلك (٦)

وفي سنة ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ - ١٣٨٠ م تقرر مرة أخرى لقاضي قضاة
الحنفية بأن يتخذ لأيتام الحنفية مودعاً يودع فيه أموالهم - وكان الغرض
من إنشاء مودع الأيتام إعفاء المبالغ المودعة من الزكاة وهو ما عارضه
للقضاة والفقهاء - فشق ذلك على قاضي الحنفية برهان الدين إبراهيم بن

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٦٨

(٢) المودع : الجمع مودعات ، صندوق لفظ مال مخصص لغرض معين

(٣) مودع الحكم : صندوق يوضع في عهد قاض القضاة لفظ أموال اليتامى القصر
وأموال الثنائين أيضاً .

المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٨٦٤

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٦٤

(٥) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ١ ص ٢٨

(٦) المقرئى : السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٩٦

جماعة وتحدث في إبطال ذلك ، فعقد مجلس عند الأمير الكبير برقوق حضره الأمراء والقضاة ومشايخ العلم انتهى فيه المجلس بإبطال ذلك بعد أن حدد أحد الفقهاء الحاضرين الأمير برقوق بقوله « إن لم ترجع والا بيننا وبينك مهام الليل » ، فأنفعل الأمير لكلامه وخاف عاقبه (١)

وتميز قاضي القضاة الشافعية في عصر المماليك عن أقرانه أصحاب المذاهب الأخرى ، فظل أرفع درجة منهم ثم يليه الخفي فالمالكي فالحنبلي ، وكان بيده عزل بعض موظفي الدولة عن وظائفهم فضلاً عما كان يتمتع به من نفوذ على نواب الحكم (٢) التابعين له (٣) . ويؤيد ذلك ما حدث في سلطنة الناصر محمد الثالثة عندما استأذن منه قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز ابن جماعة الشافعي في عزل نواب الحكم لعدم كفايتهم وفساد ذمتهم وسوء خلقهم ، ولتوليهم الحكم ببذل المال الكثير ، فأذن له السلطان ، فكتب ابن جماعة بعزل قضاة الوجهين القبلي والبحري وعزل فخر الدين محمد بن محمد بن مسكين من نيابة الحكم في مصر ، وعزل الضياء المحتسب من

(١) المقرئى : السلوك ج ٣ ق ١ ص ٣٥٩

(٢) تعددت مسئوليات قاضي القضاة وزادت أعباءه نتيجة لكثر عدد المتقاضين في القاهرة ومصر ومدن الأقاليم ، فأصبحت الحاجة ماسة إلى تعيين قضاة يكون إختيارهم وتعيينهم وعزلهم بمعرفة قضاة القضاة ليكونوا بمثابة نواب لهم في الحكم وفقاً لمذاهبهم . كما تعين بالاسكندرية قاض مستقل بها ، ثم ما لبث أن تعين بها أكثر من قاض للفصل في القضايا المختلفة نظراً لما خلفا اللغز من أهمية . ومع مرور الزمن ازداد عدد هؤلاء النواب زيادة مضطردة وكبيرة حتى بلغ عددهم خمسين نائباً بالقاهرة ومصر ، ومائة وست وثمانين نائباً بالوجه القبلي والوجه البحري . وترتب على هذه الزيادة أن تدخل السلطان في عزل هؤلاء النواب أو تحديد عددهم ، كانتفى فيهم خراب الذمة فارتضى معظمهم وتلاعبوا بالأحكام ، فقدت أعمالهم وأحكامهم وأصبحوا حديث العامة والخاصة فسات سمعتهم وانقطعت أقدارهم .

أنظر المقرئى : السلوك ج ٣ ق ١ ص ١٢٨ و ص ٤٠١

ج ٢ ق ٢ ص ٣٣٣

ج ٤ ق ١ ص ٣٤٧

(٣) د. سيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣٦٦ .

الا أن التطور الخطير في النظام القضائي في ذلك العصر جاء نتيجة لتدخل الحجاب في الأمور الشرعية والمبادئ الدينية ونظر قضايا المدنيين بمقتضى أحكام الدياسة ، وهى السلطة القضائية الممنوحة لمتولى وظيفة حاجب الحجاب والحجاب عامة والتي تخول لهم الحكم في قضايا الأمراء والجند ومخاضات الأجناد واختلافهم في أمور الأقطاعات ونحو ذلك حسب قانون مستقل عن حدود الشريعة الإسلامية ، وهو ما عرف بحكم الدياسة دستور الشريعة المغولية التي ترجع إلى أيام جنكيزخان . الا أن الأمر تطور من النظر في هذه الأحكام السياسية بالتدخل في الأمور الشرعية كتداعى الزوجين وأرباب الديون مما أدى إلى شكوى المتناضين وتضررهم من ذلك ، وكان منهم من يقيم الأشهر والأعوام بغية الوقوف أمام القاضى الشرعى وخوفاً من الوقوع في أيدي الحجاب الذين أصبحوا يرتزقون من مظالم العباد ، وأزداد نفوذ هؤلاء الحجاب وصاروا يحكمون في كل جليل وحقير بين الناس سواء كان الحكم شرعياً أو سياسياً حسب رأيه ، وان تعرض قاضى من قضاة الشرع لمباشرة قضية في حدود اختصاصه لم يمكن من ذلك بسبب بذاءه خلق الحجاب وسوء تصرفه وانحطاط سلوكه بما لم يكن يعهد مثله من قبل حتى اعتاد الناس ذلك (٢) . ويرجع هذا إلى السلطان الملك الصالح صلاح الدين ابن الناصر محمد في سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م حيث قرر للأمر جرجى الحاجب أن يحكم في أمر أرباب الديون وبين خصومهم بأحكام الدياسة عندما لجأ تجار العجم له بدار العدل ذاكرين أنهم باعوا بضائعهم لعدد من تجار القاهرة ولم يحصلوا على ثمنها ، وأراد تجار القاهرة اثبات اعدائهم وعدم قدرتهم على المداد أمام القاضى الحنفى وهم في سجنه ، فأمر السلطان

(١) المقرئى : السلك ج ٢ ق ٢ ص ٤٤٢

(٢) المقرئى : المراسل والاعتبار ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٠

الحاجب بأخراجهم من السجن واستخلاص الحقوق منهم بمساعدة أهوان
ثلوثى ، فى الوقت الذى أنكر على القاضى الحنفى تصرفه ومنعه من الفصل
فى أمر التجار والمدنيين ، ومن ذلك الوقت صارت الحاجب تتصدى للحكم
تتصدى للحكم فى الأمور الشرعية فيما كان من شأن القضاء الحكم فيه (١)

ويؤكد استمرار هذا النظام ما تقرر لقاضى القضاة الحنفى يعزل نائبين
من نوابه بالقاهرة منها زين الدين السكندرى لأن رجلاً أحتسب به خوفاً
من بطش الأمير مأمور الحاجب ، كما جرت العادة بأن من خاف جور
من يعتدى عليه يركن إلى قاضى من القضاة فيصير فى حمة الشرع الإسلامى
ما أقام ، ولا يجسر أحد على أخذه من ذلك القاضى احتراماً له وتعظيماً لحرمة
الدين . فشكى الحاجب ذلك إلى الأمير الكبير برقوق ، فأمر يعزل القاضى
وطلب الرجل المحتسب به وضربه ضرباً مبرحاً هو وولده وشهرهما بالقاهرة
ونودى عليهما هذا جزاء من يتجاهى على الحاجب فانبسطت أيدي الحاجب
فى الأحكام بما تهوى أنفسهم (٢) .

ومن الغريب أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد ، بل تلخل أمراء الدولة
فى شئون القضاء بأن أصدروا أحكاماً ضد المتهمين . فقد جرى بأحدهم
ويدعى ابن سبع ، وكان قد ارتكب جرائم شنيعة وأراد خصومه اراقة
دمه عند القضاة المالكية ، فسمى ببذل المال للقضاة الشافعية ليحكموا بحقن
دمه . وطالب اختلاف القضاة فى شأنه دون إصدار الحكم . فمقد الأمير
الكبير يلغا الخاصكى - فى سلطنة السلطان المنصور محمد أحد أحفاد
الناصر محمد - مجداً بسبب ابن سبع هذا حضره القضاة والفقهاء وكثرت
الآراء وتردد القضاة فى الحكم لاستمرار اختلافهم إلى أن قال قاضى القضاة
ولى الدين أبو زيد بن خلدون للأمير الكبير ، «يا أمير أنت صاحب الشوكة

(١) المغريزى : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٨٦٣ - ٨٦٤

(٢) المغريزى : السلوك ج ٣ ق ١ ص ٣٦١

وحكمك ماض في الأمة ومهما حكمت به نفذ . فحكم الأمير الكبير بحقن
دمه وإطلاق سراحه ، ولم يعهد قط أن أحداً من أمراء المماليك ولا ملوكهم
حكم في شيء من الأمور التي من عادة القضاة الحكم فيها . (١)

ومع سوء الأحوال في دولة المماليك الجراكسة ، ساءت أحوال القضاء
ونظمه ، وأصبحت ولاية القضاء بالوراثة يلها الابن بعد الأب ، أو بالتنازل
عنها فيبيع القاضي منصبه لغيره ممن يرغب ، وقد يكون هذا الوارث أو
المتنازل إليه غير جدير لمباشرة هذا المنصب وتحمل مسئولياته . ويعبر
المقريزي عن ذلك تعبيراً عميقاً المغزى اذ يقول « ثم عادوا - يعنى الفقهاء
والقضاة - ينزل هذا عن وظيفته من الطلب في الدروس أو التصوف في
الخوانق (٢) أو القراءة أو المباشرة بالمال ، فبلى الوظائف غير أهلها
ويعجزها مستحقوها ، فان الوظائف المذكورة صارت بأيدي من هي يده
ينزلها منزلة الأموال المملوكة ، فيبيعها إذا شاء ويسمى بيعها نزولاً عنها
ويرثها من بعده صفار ولده ، وسرى ذلك حتى في التداريس الجليلة
والأنظار المعبرة ، وفي ولاية القضاء بالأعمال يليه الصغير بعد موت أبيه
ويستتاب عنه (٣)

ومن الحوادث النادرة في هذا المقام ، ما أقدم عليه الخليفة العباسي
المستنصر على الله عبد العزيز في سنة ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ - ١٤٩٧ م أثناء
سلطنة السلطان محمد بن الأشرف قايتباي ، حيث عهد هذا الخليفة للشيخ
جلال الدين الأسيرطى بوظيفة جديدة من نوعها بأن ولاية قاضياً كبيراً على
جميع القضاة بأنحاء مصر يولى منهم من يشاء ويعزل من يشاء ، ولم يتقبل
القضاة ذلك بسهولة بل اعترضوا على تصرف الخليفة الذي ليس من حقه

(١) المقريزي : السلوك ج ٣ ق ٢ ص ٦٣٦ - ٦٣٧

(٢) جمع خانقاه : بيت ينقطع فيه الصوفية لعبادة ، والذكر .

د. سيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٤١١

(٣) المقريزي : السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٦١٩

هذا مع وجود السلطان ، وكادت أن تقوم فتنة ، فلما رأى الخليفة تلك المعارضة الشديدة تراجع عن ذلك وقال الشيخ جلال الدين هو الذي حسن لي ذلك وقال لي : هذه كانت وظيفة قديمة كان الخلفاء يولونها من يختارونه من العلماء . (١)

مكانة قضاة القضاء وصلاحهم بسلطين الماليك

كانت الحركة الثقافية والحياة الفكرية في هذا العصر نشطة قوية ، وكانت على جانب كبير من الرقي والازدهار ، وأصبحت مصر ميداناً لنشاط علمي واسع ، وذلك لعوامل وأسباب أولها : غزو التتار للدولة الإسلامية الشرقية وتدميرهم فارس بما فيها من حضارة ومدنية مما جعل أهل هذه البلاد يفرون من وجه التتار إلى مصر والشام ناشئين السلامة والأمان .

(ثانياً) - مخطوطة بغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م في أيدي التتار وتكيلهم برجال الدين والعلم ، فلجأ هؤلاء أيضاً إلى مصر ، وغدت هذه البلاد محل سكن العلماء ومخط رجال القضاء . (٢)

فعرف قضاء مصر رجال توفرت فيهم كل مزايا الدين والعلم والخلق فتفقهوا في الدين فكانوا على درجة عالية من التقوى والورع والمكرم والصلاح ، واشتغلوا بالعلم فدرسوا وأفتوا وألفوا فذاع صيتهم في العلم والاجتهاد وعظمت حجتهم بالحكمة والداد . ومارسوا الفنون فاصبحت لهم اليد الطولى في الأدب والشعر والمعاني والبيان فغضبوا أحسن الأمثال في المحافظة على الشريعة والتزام طريق الحق لم يرهبوا أحداً ولم تأخذهم في الله لومة لائم . من هؤلاء قاضي القضاة الشيخ عز الدين بن عبد السلام

(١) ابن أبي عمير : بدائع الزهور ص ٦٠٢

(٢) د. سيد عاشور : العصر المالكي في مصر والشام ص ٣٢٩

البيوطي : حسن المحاضر - ج ٢ ص ٨٦

لثنى عاصر الدولة الأيوبية والخطر الأول من دولة المماليك ، وقد رأينا موقفه من الملك الصالح اسماعيل ، ثم نرى مواقفه المشهورة حيال سلاطين المماليك وأمرائهم ، عندما أراد السلطان المظفر قطز أن يجمع المال من الناس لمحاربة التتار ، وطلب إلى ابن عبد السلام أن يقضى بجواز أخذ المال من عامة الناس ، فلم يجز ذلك إلا بشرط أن يجمع الأمراء كل ما لديهم من دنائير وذهب وحلى النساء ثم ينظر فإن لم يكف ذلك جاز أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء . (١)

كذلك تصدى نائب السلطنة وأمراء المماليك ، ورأى عز الدين أن هؤلاء الأمراء ملك لبيت المال إذ لم يثبت لديه عتقهم ، فاستثاروا غضباً وأجتمعا وأرسلوا إليه ، فقال : نعتد لكم مجلساً وننادى عليكم لبيت مال المسلمين ، فرفضوا الأمر إلى السلطان فبعث إليه فصم على رأيه ، وأرسل إليه نائب السلطنة فلم يجد فانزعج النائب وقال : «كيف ينادى علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض ، والله لأضربنه بديفى هذا» . فركب مع جماعة الأمراء إلى بيت الشيخ ، فخرج إليه ابنه فرأى من نائب السلطنة ما رأى وشرح الحال لأبيه في الداخل فلما أكثر لهذا أو أزعج . وقال مخاطباً ابنه : «يا ولدى أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله» . ثم خرج وعندما وقع بصره على النائب ، لم يمالك هذا نفسه وسقط السيف من يده وبكى وسأل الشيخ ما العمل ، قال : «أنادى عليكم وأبيعكم» ، قال : فقيم تصرف ثمتنا ، قال في مصالح المسلمين وتم له ما أراد .

وهذه الحادثة تدل على قوة نفس الشيخ ونشدته في الحق وعدم رهيته نفوذ الأمراء ، وفيه يقول الشاعر :

سار عبد العزيز في الحكم سيراً لم يسره سرى ابن عبد العزيز (٢)
عنا حكمه بعدل وسيط شامل للورى ولفظ وجيز (٣)

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤١٥ - ٤١٦

(٢) يعنى الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز

(٣) السيوطى : حسن الحاضرة ج ٢ ص ١٣١ - ١٣٢ .

ويمكن أن يبرهن قال حين رأى جنازة عز الدين بن عبد السلام وقد خرج في تشييعها الجموع الغفيرة ، قال لبعض خواصه اليوم أستقر أمرى في الملك لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس أخرجوا عليه لأنتزع الملك منى (١) .

ومن أمثال هذا القاضي ، تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز ، (٢) عرض عليه السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م منصب الوزارة فرفض قبوله ، وعين السلطان الأمير بدر الدين بيدرا واشترط عليه أن لا يتخذ قراراً الا بعد استشارة قاضي القضاة ابن بنت الأعز ، وكان هذا إذا دخل على السلطان يقول له «ياقاضي ايض حال والدك بيدراً في وزارته ؟ فيقول : «ياخوناه ولد صالح دخلت بولايته الجنة وأزلت الظلم» وأعتاد ابن بنت الأعز على الاجتماع بالوزير كل يوم أربعاء لأقرار ما ينوي عمله . (٣) وعندما عزل ابن بيدراً خلعت على تقي الدين خلع الوزارة فباشرها مع قضاء القضاء ونظار الخزانة ، ولم يلبث أن ترك الوزارة تسمكه بالأمور الشرعية وأعيد بيدراً إليها مرة أخرى . (٤)

وفي سلطنة الأشرف خليل بن المنصور قلاوون أستقر محمد بن السلعموس في الوزارة وفوض اليه سائر أمور الدولة ، وعزم السلطان على صرف قاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز من وظيفة القضاء وجميع ما بيده من المناصب بسبب كره ابن السلعموس له . وكان هذا الأخير قد طلب من القاضي أن يعين نجم الدين بن عطاء أحد أتباع الوزير في إحدى الوظائف فرفض تقي الدين . وأشار الأمير علم الدين سنجر الشجاعى على السلطان

(١) البكي : طبقات الشافعية ج ٥ ص ٨٠

(٢) هو ابن قاسم القضاة عبد الوهاب بن بنت الأعز

المقريزى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٤١

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٤١

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٤٢

بأن يولى ابن بنت الأعز قضاء الشام ، فلما علم بذلك ابن السلجوس خشى على نفسه منه لاستمرار نفوذه وحرص عليه بعض الناس منهم الشريف بن تعلقب للشهادة ضاده ورموه بالفسق وعظائم الأمور بغيا منهم وعادوانا كما أنهموه بالكفر والزنا (١) . فتبض عليه الوزير ونكل به بواسطة أعوانه ومازالوا به إلى القلعة وهو سائر على قاعية والرسول راكبون ، فرأى ثلاثة من الأمراء فقال لهم : «يا أمراء أما تنظرون في حالي وما أنا فيه من الاهانة مع هؤلاء ، فساءم ذلك ودخلوا على السلطان وأقروه ببراءة الرجل ومكيدة ابن السلجوس لثم تحدث الأمير بالوالدين بكناش في أمره مع بيدرا الذى توسط له لدى السلطان فأخرج عنه بعد أن عزله من وظائفه وكان يلى سبعة عشر منصبا هي قضاء القضاء بإيبار مصر كلها ، وخطابه الجامع الأزهر ، ونظر الخزانة ، ونظر الأحباس ، ومشيخة الشيوخ ونظر تركه الظاهر بپرس وأولاده وأوقافه وأملاكه وعادة تباريس . ثم الزمه بالاقامة في زاوية الشيخ نصر المنجى خارج القاهرة حتى يفي بما عليه من مال بلغ بخلته ثمانية وثلاثون ألف دينار ، فدفعه بعد أن باع ورهن واقرض ، ثم انتقل إلى القرافة إلى أن تحدث بشأنه إلى السلطان الأمير بدر الدين بيبار فولاه تدريس المدرسة الناصرية (٢) . ثم ثبت براءته مما رمى به وتوجه إلى الحج ودعا الله وهو بمسجد الرسول وأقسم عليه أن لا يصل إلى وطنه الا وقفا عاد إلى منصبه وأن ينتقم الله ممن أهانوه ودسوا له ، فلم يلبث أن بلغه خبر مقتل السلطان ووزيره قبل وصوله إلى القاهرة . (٣) وأعياد إلى منصبه في سلطنة الملك الناصر محمد سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م وظل يباشر القضاء حتى توفي سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م عن إحدى وخمسين سنة (٤) بعد حياة حافلة من الصبر على المكاره ابتناء

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٧٢

السبكى : طبقات الشافعية ج ٥ ص ٦٤

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٧٢ - ٧٧٣

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٤

(٤) ابن تبرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٢٣

الحق وتأكيداً لشرعية الله وما يجب أن يكون عليه القاضى بعيداً عن التعلق
والنفاق والرياء . ثم استقر في قضاء القضاء تقي الدين محمد بن علي بن وهب
ابن مطيع المعروف بأبن دقيق العيد (١) الشافعي ، قال البرزالي : «وفي يوم
السبت الثامن عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٥ هـ ولي القضاء بالديار المصرية
الشيخ الامام مفتي الفرق بغية السلف تقي الدين أبو الفتح القشيري المعروف
بأبن دقيق العيد عوضاً عن تقي الدين بن بنت الأعز (٢) . فكان السالك
الطريق التي لا عوج فيها ولا أمناً الشيخ الامام علامة العلماء الاعلام ،
ورواية فنون الجاهلية وعلوم الاسلام ، ذو العلوم الشرعية والفضائل العقلية
والفنون الأدبية والمعارف الصوفية . » (٣)

ولهذا القاضى مواقفه التي تدل على مكانته الرفيعة عندما بعث اليه
الأمير منكوتر نائب السلطنة في عهد السلطان حمام الدين لاجين يخبره أن
تاجر أقدم مات وترك أخاً ولم يخلف غيره ممن يرثه ، وأراد أن يثبت
استحقاقه بناء على هذا الاخبار ، فلم يوافق قاضى القضاء وترددت وسل
النائب عليه لهذا الغرض دون جدوى ، فبعث اليه بالأمير كرت الحاجب
فلما دخل عليه كرت سلم وظل واقفاً ، فقال له قاضى القضاء نصف قومه
ورد عليه السلام وأجلسه ، وأخذ كرت يتلطف به ويتودد اليه لاثبات
لأثبات أخوة التاجر بشهادة منكوتر ، فقال له قاضى القضاة : «وماذا
ينبغي على شهادة منكوتر ؟ » فقال له : «ياسيدى ، ما هو عندكم بعدل ؟ »
فقال : «سبحان الله » ثم أنشد :

(١) كان أصل تلقب هذا القاضى بهذا اللقب أن جده وهب بن مطيع ليس في يوم عيد
ثياباً بيضاء فرآه جماعة من أهل الريف ، فقال قائل منهم ، كأن ثيابه دقيق العيد لياستها ، فلزمه
هذا اللقب واشهره بيته .

المقريزى : السلوك ج ١ ق ٣ حاشية ٢ ص ٨١٣

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٩٤

(٣) تقي الدين بن دقيق العيد : إحكام الأحكام ج ١ ص ١٤

يقولون هذا عندنا غير جائز : ومن أنتم حتى يكون عندكم عند وكرر ذلك ثلاث مرات ، ثم قال : «والله بمي لم تقم عندي بينة شرعية والا فلا حكمت له بشيء باسم الله» ، فاعجب كرت من حزم موقفه وسداد رأيه وقام وهو يقول «والله هذا هو الاسلام» وعاد إلى الأمير وأعتذر إليه بأن هذا الأمر لابد فيه من اجتماعك بالقاضي إذا جاء إلى دار العدل . (١)

و ذات يوم مر قاضي القضاة على دار النيابة بالقلعة دون أن يدخلها فرآه منكوتر ، فأرسل إليه الحجاب واحداً بعد الآخر يقولون له : «ياسيدي الأمير ولدك يختار الاجتماع بك لخدمتك» (٢) ، فلم يلتفت إلى أحد منهم فلما ألحوا عليه قال لهم : قولوا له ما وجبت طاعتك على ، وألتفت إلى من معه من القضاة وقال : «أشهدكم أنني عزلت نفسي باسم الله ، قولوا له قولوا له يولي غيبي» . وعاد إلى داره وأغلق بابه ، وبعث نقاؤه (٣) ورسله إلى النواب في القضاء يمنعهم من الحكم (٤) . فلما بلغ السلطان لاجين ما حدث من نائبه أنكر عليه ذلك وبعث إلى قاضي القضاة يعتذر إليه ويستدعيه فأبى وأعتذر . فبعث إليه الشيخ نجم الدين حسين بن محمد بن عبود ، فازال به حتى صعد به إلى القلعة ، فقام إليه السلطان واقفاً ، فصار الشيخ يمشي

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٤٨

(٢) الخدمة : معنى إصطلاحى لفعل عدم ومشتقاته كثير ورود في كتب المؤرخين بمعنى التسمية ، وكان الخدمة في حضرة السلطان مسخ كبيرة منها الإيلاء باليد اليمنى إلى الأرض ، وعنفص الرأس نحو الركوع ، وتغيب الأرض سجوداً ، ومن الأرض بالأصابع خمس مرات ، ويأخذ فعل خدم أيضاً بمعنى أهلى وقدم ، فيقال : خدم فلان الخليفة بمصحف جليل ، وخدم فلان من ماله الخزانة السلطانية بثلاثمائة ألف دينار .

المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ حاشية ١ ص ٧٦٢

(٣) مفردا نقيب ، وكان عمل صاحب هذه الوظيفة عند السلطان أو الأمير تأدية الخدمات الصغيرة لسيده .

د. سيد عاشور : العصر المالكي في مصر والشام ص ٤٥٩ .

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٤٩

قليلاً قليلاً وهم يقولون له : «السلطان واقف» ، فيقول «أدينى ماشى» .
وتلقاه السلطان وقبل يده وقال : ننضع بهذا (١) . وعزم عليه أن يجلس
على مرتبه فبسط منديله - وكان خرقة بالية من الكتان - فوق الحرير
قبل أن يجلس ، كراهة أن ينظر إليه ولم يجلس عليه ، وما برح السلطان
يتطلب به حتى قبل الولاية ثم قال له : «ياسيدى هذا ولدك منكوتر خاطرك
معه ، أدعوا له» . وكان حاضراً فنظر إليه الشيخ ساعه ، وصار يفتح يدها
ويقبضها وهو يقول : «منكوتر لا يجيىء منه شيء» ، وكررها ثلاث مرات
وقام فأخذ السلطان الخرقة التي وضعها على المرتبة تبركاً بها وتفرقها الأمراء
قطعة قطعة ليدخروها عندهم رجاء بركتها (٢) .

من هذا يتضح لنا عدالة ونزاهة ابن دقيق العيد قاضى القضاء ، فهو
لا يجامل في الحق ولا يمالئ في القضاء ، فلم يقبل شهادة الأمير لأنه عنده
غير عدل ، كما تبين هذه القصة فضل ابن دقيق العيد وسمو مكانته لدى
الأمراء وأصحاب النفوذ ، ومن الطبيعى لم تكن له تلك الميزة عند أولئك
المماليك لولا أنهم رأوا تقدير الناس له وتعظيمهم إياه ، وأنه مقدم لدى
حامة الناس وخاصهم في العلم والدين على جميع أقرانه .

ومما يدل على سداد رأيه وصحة حكمه ما حدث أثر واقعة اليهود والنصارى
سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م ، وكان الشيخ الفقيه نجم الدين أحمد بن الرفعه
قد أفتى بوجوب دسّم كذا سهم ، وطلب الأمراء والقضاة والفقهاء للنظر
في ذلك ، فلم يوافق ابن دقيق العيد على عدمها وقال : «أحتاج إلى بينه
تشهد أنها حدثت في الإسلام ، فان قامت البينة بهذا أفتيت وحكمت بهدمها
ومتى لم تنه البينة فلا يجوز هدمها» (٣)

(١) تنى الدين بن دقيق العيد : إحكام الأحكام ج ١ ص ٢٢ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٨٤٩

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩١٢

وكان تقي الدين كثير التطلع إلى أخبار نوابه بالأعمال والبلاد وأنه كان يذكرهم بكتبه المشتملة على المواعظ والتحذيرات من عواقب الغفلة والأهمال ، من ذلك ما كتبه إلى نائبه بأنخيم . (١)

وفي سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م توفاه الله عن سبع وسبعين عاماً وهو في منصب قاضي القضاة . (٢) وخرج البريد إلى دمشق يطلب قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة فوصل إلى القاهرة ، وخلع عليه في يوم السبت رابع ربيع الأول سنة ٧٠٢ هـ (٣) .

وأنتق بعد عودة الناصر محمد إلى سلطنة الثالثة أن حضر إليه الخليفة العباسي والأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة للتهنئة ، فشرع يعاتب الخليفة في أمره ويقول له «كيف تحضر تسلم على خارجي ، هل أنا خارجي ويبرس من سلالة بني العباس» فتغير وجه الخليفة ولم ينطق ، ثم ألتفت السلطان إلى القاضي علاء الدين بن عبد الظاهر ، وكان هو الذي كتب عهد المظفر عن الخليفة وقال له : «يا أسود الوجه» . ثم ألتفت السلطان إلى قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة وقال : «يا قاضي ، كيف تفتي المسلمين بفتاى» فقال : «معاذ الله أن تكون الفتوى كذلك ، إنما الفتوى على مقتضى كلام المستفتي» (٤) ، ثم عزله عن القضاء وعزل القاضيين الحنفى والحنبل ، وأبقى المالكي لكونه كان وصياً عليه من جهة أبيه قلاوون (٥) . إلا أن بدر الدين أعيد إلى القضاء في الحادى عشر من صفر سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م

(١) أنظر نص الكتاب في

البروطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٥ - ١٣٦

الأدقوى : الطالع السعيد ص ٢٣٦

المقريزى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٢٨

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج ٦ ص ٢٢

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٢٩

(٤) المقريزى : السلوك ج ٢ ق ١ ص ٧٤

(٥) البروطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٠١

وفي النصف من المحرم سنة ٧١٤ هـ / ١٣١٤ م أراد النصارى الاجتماع بالكنيسة المعلقة بمصر وأستعاروا مجموعة من قناديل الجامع العتيق ، فأنكر ذلك الشيخ نور الدين علي بن البكري وجمع من أهله وغيرهم أناس كثيرين وتوجه إلى الكنيسة وهجم على النصارى وأطفأ الشموع وأنزل القناديل ، وعاد البكري إلى الجامع وأراد معاقبة القائمين عليه ، فأحتجوا بأن الخطيب هو الذي أمر بارسال القناديل إلى الكنيسة ، فأنكر على الخطيب تصرفه وأراد الحاق الأذى به فأختفى منه ، وتوجه إلى الفخر ناظر الجليش وعرفه بما وقع وأن كريم الدين أكرم ناظر الخاص هو الذي أشار باعارة القناديل فلم يسمعه الا موافقته ، فلما كان الغد أخبر الفخر السلطان بما كان . وعلم البكري أن ذلك كان بموافقة كريم الدين فسار بمجموعة إلى القلعة واجتمع بالنائب وكبار الأمراء وطلب الاجتماع بالسلطان . فأحضر السلطان القضاة والفقهاء وطلب البكري ، فذكر الأخير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تتضمن معاداة النصارى وأخذ يحط عليهم ، ثم أشار إلى السلطان بكلام فيه جفاء وغلظة حتى غضب منه عند قوله «أفضل المعروف كلمة حق عند سلطان جائر ، وأنت سالت القبط وحكمتهم في دولتك والمسلمين وأضعت أموال المسلمين في العماثر التي لا تجوز إلى غير ذلك» (١) . فقال السلطان له «ويلك أنا جائر» ، فقال «نعم» ، فلم يمالك السلطان نفسه وألقت إلى قاضي القضاة زين الدين بن مخلوف وقال : «هكذا ياقاضي يتجرأ على ؟ ايش يجب أفعل به ؟ قل لي وصاح به . فقال له ابن مخلوف : «ما قال شيئاً ينكر عليه فيه ولا يجب عليه شيئاً فانه نقل حديثاً صحيحاً» . فصرخ السلطان فيه وقال : «قم عني» ، فقام من فوره وخرج . فقال الشيخ صدر الدين ابن المرحل - وكان حاضراً - لقاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة : «يا مولانا هذا الرجل تجرأ على السلطان وقد قال الله تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون «قولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى» ، فقال ابن

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ١٣٩ .

جماعة للسلطان : «قد تجرأ ولم تبق الا مراحم مولانا السلطان» . فانزعج السلطان انزعاجاً عظيماً (١) من ذلك الرد الذي لم يراع فيه صاحبه جاء ونفوذ السلطان .

وفي عهد السلطان عماد الدين اسماعيل بن الناصر محمد كان هناك من القضاء من تحرى الصديق مع نفيه وسلك الطريق القويم . من هؤلاء قاضي القضاء عبد العزيز بن جماعة ، فقد وشى الحجاب للسلطان به بأنه أستولى مع أقاربه على الأوقاف ولم يسلموا أربابها استحقاقهم ، فشق ذلك على ابن جماعة (٢) وترك القضاء تنزها وتعففاً (٣) لما عرف عنه من حسن الخلق وكثرة الفضائل ، فقد نشأ في العلم ومحبة الخير ودرس وأقنى وسار سيرة حسنة وكان يقول أتمنى أن أموت في أحد الحرمين معزولاً عن القضاء ، فقال أمينته ومات سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٦ م (٤) .

وكثيراً ما كان القضاء يبادرون إلى ترك مناصبهم إذا تعرض أحد لكرامتهم أو اعتدى على استقلالهم . من ذلك ما أقدم عليه قاضي القضاء موفق الدين الخبلي وعزل نفسه من القضاء من أجل أن الأمير يلغى استدعاه فوفاه القاصد وهو نائم فأمر به فأيقظه وقد أنزعج ولم يمهله حتى بنفيه ، فغضب لذلك وأبى أن يجيب القاصد أو يجتمع به ، وعندما علم الأمير شق ذلك عليه وأرسل إليه يسترضيه حتى رضى ، ودعاه إلى مجلس السلطان حيث خلع عليه وأعيد إلى وظيفته (٥)

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٣٥ - ١٣٦

(٢) المقرئى : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٦٢٤

(٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ق ١ ص ١٢٥

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة - ٢ ص ٣٧٨

(٥) المقرئى : السلوك ج ٢ ق ١ ص ٨٤

ومن هؤلاء أيضاً قاضى القضاة برهان الدين ابراهيم بن بجاعة (١) عارضه محب الدين ناظر الجيش فى قضيه من القضايا ، فقال البرهان : «أنا لا أرضى أن أكون تحت حجر كاتب» ، وأغلق بابہ وأعتزل عن القضاء هو ونوابه ، فبلغ ذلك السلطان الأشرف فانزعج وأرسل اليه الأمير ناصر الدين محمد أقبحاً يسترضيه ويسأله العودة إلى الحكم فامتنع ، فرامله مراراً فأصر ، فأرسل اليه الأمير بهادر الجمالى أمير آخور (٢) ، فأكثر من التودد اليه والترقب به . وأمام شدة أصراره وبعد أن أيس منه قال له «مولانا السلطان يعلم عليك ويخبرك أن لم تخضر وتركب اليه ليركن ويحضر اليك» . فركب متخففاً على لوطه (٣) وأجتمع بالسلطان فلاطفه وأسترضاه وعرض عليه العودة إلى ولاية القضاء ، فأجاب بعد جهد «أنى أستخر الله تعالى فى هذه الليلة ثم يكون ما يقدره الله» ، فرضى منه السلطان ذلك ، وركب فى غده إلى القلعة وأشترط على السلطان شروطاً كثيرة ألزم بها وخلع عليه وتزل إلى منزله ومعه جمع من الأمراء والأعيان فازداد رفعة وعظمة ومهابة عند

(١) هو ابن القاضى بدر الدين بن جباة السابق ذكره ، ولد فى نصف شهر ربيع الآخر سنة ٧٢٥ هـ ، كان جهودى الصوت مديد القامة وقوراً فاشتهر ذكره وعظم أمره ، ول قضاة الديار المصرية مطلوباً من بيت المقدس بناية بعض الأمراء
ابن حجر : رفع الأصرق ١ ص ٣١

(٢) مركب من لفظين ، عربى وهو أمير . وآخور فارسى ومعناه اللطف . والمعنى أمير اللطف وكان فى الأصل المتول لللوة الخليل ، ثم ارتفعت وظيفته حتى صار صاحبها من أكابر الأمراء المقدمين ، وهو يتحدث فى الاصطلاحات السلطانية وما حوته من خيل وبغال ودواب وجمال وغير ذلك .

النفقشتى : صبح الأضنى ج ١١ ص ١٧٠

(٣) إشارة إلى أنه ترك زى القضاء ، والملوطة : قباء واسع الكفين طولها يلبس فوق الفرجية وهو لباس قوى فى عصر المماليك .

د. سيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٤٥٤

الأمراء والعامّة (١) . وعلم ذات يوم أن دوادار (٢) الأمير أقتمر نائب السلطنة يتعسف في معاملة الناس وأنه ضرب صاحب دين أمام مدينة ، فاستدعاه ونهره في مجلس حكمه وحفر من شأنه فتوصل إليه الدوادار حتى تركه وقد ملئ قلبه منه خوفاً ورعباً (٣)

واتفق أن أجتبع قاضي القضاة برهان الدين أبراهيم والشيخ سراج الدين عمر البلقيني بالسلطان وعرفاه ما في ضمان المغاني (٤) من القبح والمفاسد ، وما في مكس القرارات (٥) من المظالم ، فاستجاب السلطان لهما وقرر ابطال ذلك وكسب مرصومين إلى الوجه القبلي والوجه البحري بعد قراءتهما على منابر القاهرة ومصر (٦) . الا أن الأمير ناصر الدين محمد بن أقبا عزم على إعادة ضمان المغاني . فغضب قاضي القضاة وأمتنع عن الحكم وواجه السلطان بقوله «بلغني أن ضمان المغاني أعيد وهذا يوجب الفسق » فحلف له السلطان أنه ما أمر بإعادته ولا يعلم بمثل ذلك ، وغضب السلطان وحنق على الأمير . (٧)

وعندما ولي الشيخ جلال الدين البلقيني قضاء القضاء تصدى لمحاسبة محاسبة مباشرة أوقاف الحرمين وأوقاف المساجد الأخرى ، فوجد عندهم

(١) ابن حجر : رفع الأصرق ١ ص ٣٢-٣٣

المقريزي : السلوك ج ٣ ق ١ ص ٢٤٢

(٢) الدوادار : أي ملك الدواء والوظيفة أسماها الدوادارية وصاحبها يحمل دواء السلطان أو الأمير ، ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى إليه .
د. سعيد عاشور : العصر المالكي في مصر والشام ص ٤١٦

(٣) المقريزي : السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٦٤

(٤) أصحاب انفرق الغنائية والموسيقية من النساء يقمن بأعداد حفلات الزواج باستحضار المغنيات وضاربات الدفوف مقابل أجر ، ولا يتم الزفاف إلا بحضور الضامنة وبعد تصريح من الديوان السلطان بعد سداد ضريبة مقررّة يدفعها أهل العروسين تبعاً لحالتهم الاجتماعية .

المقريزي : السلوك ج ٣ ق ١ ص ٢٦٦

(٥) ضريبة مفروضة على الدور إذا بيعت

المقريزي : السلوك ج ٣ ق ١ ص ٢١٧ .

(٦) المقريزي : السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢١٧

(٧) المقريزي : السلوك ج ٣ ق ١ ص ٢٦٧

من المال الكثير فخشي عليه من سوء التصرف فيه ، فجعله تحت يده وصار
ينفق بنفسه على هذه الجهات وأصبح لديه من فائض الأموال بعد الاتفاق
ما بلغ نحو سبعة آلاف دينار للحرمين الشريفين بمكة والمدينة ، وألف
دينار للجامع ابن طولون .

وبالرغم من زيادة نفوذ قاضى القضاة وعظم جاهه وعلو منزلته واحترام
الجميع له وصلته بالسلطين وكبار رجال الدولة حتى غدا بمثابة وزير العدل
في عصرنا هذا . وأمام الصورة المشرفة لقضاة مصر في هذه الفترة ؛ نجد
في الصورة المقابلة بعض هؤلاء القضاة الذين سعوا لتحقيق مصالحهم الشخصية
وتلبية أطماعهم الخفية فحادوا عن طريق الحق والعدل ، كما تقربوا إلى
السلطين والأمراء فحكموا تبعاً لأهوائهم وارضاء لرغباتهم ، فقلت
منزلتهم عند الله والناس . بل أن بعضهم تولى هذا المنصب ببذل المال للأمراء
والسلطين ، وبذا أصبح القضاة يشترون مناصبهم من أصحاب الحق في
تعيينهم في هذه المناصب ، ومن هنا فأنهم عملوا على جمع الأموال لتعويض
ما دفعوه ، فتولى رجال قليل العلم والمعرفة أساءوا إلى هذا المنصب الجليل
القدر العظيم الشأن ، فأساءوا إلى أنفسهم باحتقار وامتهان الناس لهم .

ولبيان ذلك ، نذكر أن السلطان الناصر محمد عزل قاضى القضاة
جلال الدين محمد القزوينى بالرغم من حظوته وقربه منه ، إلى جانب حب
الرعية له لجودة وكرمه وسخائه وعدله . وسبب عزله يرجع إلى أن ابنه
جمال الدين عبد الله أنصف بكثرة اللهو وميله للترف والشره في جمع المال
وأخذ الرشوة من القضاة ونحوهم ، فأساء إلى سمعة أبيه ، فإذ بلغ السلطان
ذلك أخرج به إلى الشام ، ثم تشفع له أبوه عن طريق الأمير بكثير الداق
فأعاده السلطان إلى مصر ، فلم يلبث الا قليلا حتى أساء السيرة وزاد في سوء
سلوكه وانحراف تصرفاته فطرده السلطان للمرة الثانية ، فدأل أبوه شخصياً
السلطان ثانية وضمن له توبته هذه المرة ، فأعاده السلطان وبمجرد وصوله
شرع في انشاء بيت بجوار دار أبيه على النيل أستدعى لها الصناع من الشام

وسخر كثير من العمال وكلف نواب أبيه في القضاء لحمل مواد البناء ، وبالف في تجميعها وتحسينها حتى بلغ جملة ما أنفقه فيها يزيد عن خمسمائة ألف درهم وبلغ السلطان ذلك فأنزعج ، وبعث لجلال الدين يلومه ويعنفه لتصرف ابنه ، فدافع عنه بأنه اقترض تلك المبالغ . ولم يقف الحد عند هذا ، بل اشترى ابنه في القاهرة داراً وجدها بما يزيد على مائتي ألف درهم ، فكثرت الكلام بشأنه وشأن أبيه الذي تغافل عنه ، وكتب الناس إلى السلطان يشكون إليه بأن قاضي القضاة لا يولي نائباً عنه في الحكم إلا بعد أن يجتمع بأولاده ويدفع لهم مبلغاً من المال ، وكان السلطان يمت الرشوة ويعاقب من يرتشى أشد العقوبة .

فلما حضر قضاة القضاة بدار العدل كعادتهم ، لم يؤذن لهم في دخوله وبعد انصرافهم بعث السلطان إلى القزويني مع الدوادار يعلمه بأن نائب الشام شكوا من ابن المحدث قاضي دمشق وقد رأى أن تسافر إلى الشام قاضياً (١) فإنه استحي وجهه منك ومن الأمراء والناس ، وكلما طلب منك مراجعة ابنك لم تفعل ، وأضاف بأنه أمر نائب الشام أنه إذا رأى أولادك على صيرة غير مرضية قابلهم بما يستحقونه . وغادر جلال الدين القزويني مصر بعد أن باع أملاكه وأملاك أولاده لسداد ديونه المستحقة للأيتام والأوقاف والتي بلغ قيمتها مائتي وثلاثين ألف درهم . وقد علق السلطان على ذلك بقوله «ولينا قضاة جياداً أفادهم أولادهم» (٢)

وكما عزل الشيخ جلال الدين القزويني بسبب ابنه ، عزل السلطان قاضي القضاة تقي الدين أحمد بن عمر بن عبد الله المقدسي الحنبلي ، لما قام به ابنه من بيع الأوقاف وأخذ الرشوة والامتلاء على أموال اليتامى . وأستدعاه السلطان وسأله عن أموال الأوقاف التي باعها ابنه ، فاعتذر وطلب إعطائه مهلة ، وتشفع فيه الأمراء لكبر سنه وشهرته ، فأحاله على والي القاهرة

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣-٤-٥

(٢) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٢

الذى أهانه وعاقبه . وقد عبر السلطان عن تأله لهذه الأحداث بقوله «أنظروا ماذا جرى علينا من أولاد القضاة» (١) . في حين قد أثنى ابن حبيب على قاضى القضاة فيقول «تقى الدين وافق لقلبه فعله ووافق علمه فضله ، نصر الحق وسهل الأمر المشق» (٢) .

ومن الأمثلة الأخرى ، قاضى القضاة حسام الدين حسن بن محمد الغورى الحنفى ، حضر من بغداد صحة الوزير نجم الدين محمود بن على سنة ٧٣٨ هـ ١٣٣٨ م عندما وقعت الفتنة ببغداد ، واستقر فى قضاء الحنفية فسار سيرة غير مرضية وأشهر بالبذاءة ، فكتب بخطه إلى موفق الدين ناظر الدولة ورقة ينكر عليه وقف راتبه الشهري عدد فيها مساوىء الكتاب وأفحش فيها القول . فلما كان مجلس قضاء القضاة بدار العدل تكلم الغورى مع السلطان باللغة التركية وسفه الكتاب بألفاظ صريحة وطمع فى اسلامهم . فغضب السلطان منه وأستدعى الوزير نجم الدين وأنكر عليه ما وقع من الغورى وقال : لولا أنه من بلدك لضربت بالمقارع ولكنى أكرمه من أجلك ، فاطلبه وحذره ألا يعود لمثلها . فعاتبه الوزير عتاباً شديداً وبالغ فى تعنيفه .

ونتيجة لسوء سيرته وسلوكه هجم العامة على داره بالمدرسة الصالحية وكسروا بابه ودخلوا عليه ففر منهم إلى السطح وهم فى أثره حتى لحقوا به فضربوه وهو يعدو إلى أن خرج من البيت واستجار بقاضى القضاة موفق الدين الحنبلى .

وفى اليوم المحدد لمجلس القضاء بالقلعة ، وبينما قضاه القضاة الأربعة بجامع القلعة فى انتظار الأذن لهم بدخول المجلس كعادتهم ، حضر اليه صبي من صبيان المطبخ السلطانى مع جمع كبير من العامة - لقد كان فى نفسه عليه عندما تحاكم هو وزوجته عنده فانه أهانه وضربه - فأقاموه من بين

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٥٦٦ - ٥٩١

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٢٢٦

القضاة وتناولوه بنعالهم ومزقوا ثيابه وعمامته وهم يصيحون به يافاسقى ، يا كافر ، ، وهو يستنثث «بالمسلمين كيف يجرى هذا على قاضى من قضاة المسلمين» حتى أدركه بعض الأمراء فحمله إلى بيته بالصالحية وقبض على بعض هؤلاء العامة ، وما زال العوام به حتى شرعوا فى كتابة محضر بأفعاله ليثبتوا فسقه ، فكان يتجرأ على الناس ويحط من أقدارهم ، وإذا نحاكم إليه رجل وامرأته ، نصر المرأة وتكلم بما لا يليق ، فأدعت امرأة عنده على زوجها بما أستحق من صداقها وكسوتها ، وأظهرت صداقها عليه فإذا فيه أن المنجم (١) فى كل سنة دينار ، فاستدناها منه وأمرها فكشفت عن وجهها واعمجته وقال لأبيها - وكان قد حضر معها - «يامدمع (٢) مثل هذه تزوجها بدينار كل سنة ، والله يساوى مبيتها كل ليلة مائة درهم . وألقت قاضى القضاة إلى زوجها وقال «ياتيس تشغل هذه بهذا القدر ؟ والله أنت أدمع من أبيها ، هذه يساوى مبيتها كل ليلة مائة درهم» (٣)

وكان الغورى إذا تداعى عنده اثنان يأمر كاتبه ، بأن يكتب ما يقول أحدهما فى غية الآخر ، فإذا أنهى كلامه أخرجه وأحضر خصمه فيكتب ما يقول ، وكذلك إذا شهد عنده جماعة فرق بينهم وسمع كل واحد على انفراد ، فكانت المحاكمة لا تنتهى عنده الا بعد مدة طويلة .

ونفر منه قضاة القضاة الثلاثة ووقعت الوحشة بينهم وبينه لقبح أفعاله وبذاءة لسانه ، فكان إذا جلس مع السلطان خاطبه باللسان التركى وصغر من شأنهم عنده ، ودعى مرة مع قضاة القضاة إلى عقد قران بعض أولاد

(١) المقصود به المال الذى يبنى تأديته على أقساط فى الأجل المسمى

المقرضى : السلوك ج ٢ ق ٣ حاشية ٢ ص ٦١١

(٢) المدمع : الأحمق ، وسوابه فى اللغة المدمع أو المدمع ، وهنا من لحن العوام .

(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٤٢

المقرضى : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٦٠٢ - ٦١١

الأمراء . فلما دخل معهم وقد فرش البيت بالحرير والزر كس تجنب قضاة
القضاء الجلوس عليه وجلس هو على مقعد حرير مزركش ، وقال للحاضرين
«أنظروا مثل هؤلاء يتجنبوا الجلوس على هذا الحرير» وأقسم بالله لو قدروا
عليه باعوه في الأسواق وأكلوا ثمنه . فضحك من في المجلس ونزل بقضاة
القضاة الحجل الكبير (١)

فكان كثير الجراءة ، عظيم الفنى ، قليل المعرفة ، له أفعال مستهجنة
ثبتت عليه بمحاضر أعمال توجب اراقة دمه ، فإزال ببعض قضاة الشافعية
حتى حكم بحكم دمه وطرده من مصر . (٢)

ولهذا فقد تغيرت نظرة الأمراء ونزح احترامهم لرجال القضاء والفقهاء
ففى سلطنة السلطان الصالح حاجى بن الأشرف شعبان سنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م
نرى امتنان الأمير الكبير برقوق لم حيث يقول لبعض خواصه «أن القضاة
ما هم بمسلمين» وأصبح من الأمور المعتادة أن يتكلم هذا الأمير فى ذم القضاة
والفقهاء ، فقل بالتالى احترامهم عند الأمراء والمماليك .

ثم أصبح القضاة والفقهاء فى أخريات دولة الظاهر برقوق وما بعد ذلك
فى عهود سلاطين المماليك الجراكمة ، ينزلون من أهل الدولة منزلة سوء
ويتكلم فى شأنهم أصغر الغلمان وأراذل العامة بكل قبيح ، عقوبة من الله لقبح
سريرتهم وفساد طوبيتهم وبعدهم عن كل خير ، واستأثرتهم على جملة الشر
وامتنانهم العلم وخضوعهم فى طلب الدنيا . ولعل هذا كان مظهراً من مظاهر
انحلال الدولة فى أواخر عصر سلاطين المماليك ، وهو الأمر الذى جاء
مصحوباً بهدر القيم واختلال الموازين الخلقية ، يؤيد ذلك قصة الأمير متطاش
عندما احتاج للأموال اللازمة لتجهيز واعداد الجند لتعزيز حصار السلطان
الظاهر برقوق لدمشق ، فلم يجد فى الخزائن ما يكفى ، فعال قاضى القضاة

(١) المفريزى : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٦١٢

(٢) المفريزى : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٦١٢

صادر الدين محمد المناوي أن يقرضه مال الأيتام ، فامتنع وختم على مواعيد الأيتام وكانت عامره بالأموال وطلب إعفائه وترك منصبه ، فلما سمع بذلك بدر الدين محمد بن أبي البقاء مسمى إلى ولاية القضاة بمال يدفعه علاوة على أن يقرض السلطان خمسمائة وستين ألف درهم من مال الأيتام فأجيب إلى طلبه (١)

وذات يوم اجتمع السلطان المؤيد شيخ المصمودي بالقضاة ومشايخ العلم ليسألهم عن إصلاح ما تهديم من أروقة المسجد الحرام وعمارة الحجرة النبوية ومن أين تكون النفقة ؟ فأجلوا القول في هذا . وسأل قاضي القضاة علاء الدين علي بن مغلي الحنبلي قاضي القضاة شمس الدين الهروي عن أربع مسائل دينية وهو يجيبه فيقول له «أخطأت» . وأستمر علاء الدين في مناقشته وجداله مع الهروي حتى خرجا عن حدود اللياقة والأدب وسب كل منهما الآخر ، وعدد علاء الدين مساوي الهروي ثم قال «يا مولانا السلطان أشبهك على أني حجرت عليه أن لا يفني وحكمت بذلك» فنفذ الحاضرين حكمه .

وتصادف أن قدم طائفة من أهل القدس والخليل وعلى رأسهم الأمير حسن نائب القدس للشكوى من قاضي القضاة شمس الدين الهروي بأنه استولى في أيام نظره من مال وقف الخليل قدراً كبيراً فأستدعاه السلطان وندب للحكم بينهم الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر مفتي دار العدل ، فتبين صحة ما قاله أهل القدس . فقرر السلطان تنفيذ حكم الشرع فيه .

وفي سلطنة سيف الدين ططر وقعت نادره تلخص في استقرار الأمير صفى الدين جوهر الخازندار (٢) في قضاء دمياط . وكانت العادة أن يفرض قاضي القضاة الشافعي قضاء دمياط لمن يقع اختياره عليه من الفقهاء

(١) المقرئ : السلوك ج٢ ق ٢ ص ٨١٠

(٢) هو المشرف على خزائن السلطان من نقد وأمتعه

د. سعيد عاشور : العصر الماليكي في مصر والشام ص ٤١٠

فلما اتصل ولي الدين محمد بن قاسم العلاقي (١) بالسلطان شره في المال وتولى قضاء عدة بلاد منها دمياط ، وقرر على من أقامه في قضاء البلاد من نوابه ضريبة شهرية أو سنوية ، وكان جاهه عريضاً فاعفت يد نوابه ولا كفت . فلما ذهب إلى الحجاز تنازل على قضاء دمياط للقاضي جلال الدين عمر والقاضي كمال الدين محمد بن البارزي بمبلغ خمسين درهم مصرية ، فداروا على سياسة ابن قاسم إلى أن عين السلطان كمال الدين البارزي قضاء دمشق ، سأل الأمير صفى الدين جوهر الخازندار أن يتنازل له عن قضاء دمياط فلم يجد بداً من اجابته وصار أحد نواب الحكم (٢) . وهذا يؤيد ما سبق أن ذكرناه في معرض الحديث عن تطور النظام القضائي من تنازل القضاة وبيعهم مناصبهم لغير مستحقيها .

ويعطى لنا المؤرخ المصرى ابن اياس صورة حية ناطقة عن مدى تدهور وظيفة قاضى القضاة ، فيروى أن أحدهم تولى المنصب ست مرات بذل خلالها في كل مرة المبالغ الكبيرة مع شدة حاجته اليها . وهذا هو قاضى القضاة عمى الدين عبد القادر بن النقيب (١) الذى عينه السلطان الأشرف جان بن بلاط في سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ - ١٥٠١ م قضاء القضاة الشافعية

(١) نوبة إلى العلایا ، بلدة محدثة في أميا الصخرى أنشأها علاء الدين أحد ملوك سلاجقة الروم ونسبت إليه بقيل العلالية ثم خففتها الناس إلى العلایا وتقع جنوب إيطاليا .

المقريزى : السلوك ج ٤ ق ١ ص ٣٦٥

(٢) المقريزى : السلوك ج ٤ ق ٢ ص ١٠٠٥

(١) هو عبد القادر بن عل بن مصلح عمى الدين القاهري الثامن ويعرف بابن النقيب لكون والده كان نقيباً . ولد سنة ٨٤٤ هـ أو بعدها تقريباً ونشأ فقيراً ونفقه وحفظ القرآن وعرف بالذكاء والسرعة واشتغل بالاعتناء والتدريس ثم ورث مالا كثيراً ولم يتحول عن طريقته في الثبات والتقىير ، بحيث أن يهودياً اشتكاه إلى شاد الشون (مفتش الشون) لكونه لطمة عند مطالبته له بأجره ، واشتكاه آخر إلى حاجب الحجاب لشيء فأنكر وحلف فأقيمت البيعة والزمة الحاجب بل كاد أن يوقع به ، ولكنه حلوا الشأن ذا دعاء .

السخاوى : الضموم اللامع ج ٤ ص ٢٨٠

وكان يوجد يومئذ من هو أجدر منه ، ولكنه سعى بسبعة آلاف دينار حتى تولى على ككرة من الناس . فلما تسلطن الملك طومان باى فى نفس العام عزله عن القضاء وعين قاضى القضاة زين الدين زكريا الشافعى ، فكانت مدة ولاية ابن النقيب ثلاثة أشهر وثمانية وعشرين يوماً (١) ولما عزل زين الدين وقد كف بصره - عن القضاء ، سعى محى الدين عبد القادر فى العودة إلى القضاء بمال آخر ، فخلع عليه عوضاً عن زين الدين زكريا ، وهذه ثانياً ولاية لابن النقيب . (٢)

ولم يلبث أن تغير خاطر السلطان عليه فعزله عن القضاء وقرر نفيه فتشجع فيه بعض الأمراء وفرض عليه بعض الأموال ، فكانت مدته فى هذه الولاية الثانية ثلاثة عشر يوماً ، ذلك لأنه أعيد إلى القضاء بعد عزل قاضى القضاء زين الدين زكريا يوم الخميس الثامن من ذى الحجة سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ - ١٥٠١ م وعزل عنه يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من نفس الشهر (٣) .

وفى سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ - ١٥٠٦ م خلع السلطان على قاضى القضاء محى الدين عبد القادر بن النقيب وأعادته إلى قضاء الشافعية عوضاً عن جمال الدين القلقشندى ، وكانت مدة ولاية الأخير نحواً من ستة أشهر ، وقد سعى بشأنها بثلاثة آلاف دينار ثم سعى عليه ابن النقيب بخمسة آلاف دينار ، علاوة على مبلغ ألفى دينار أخذها منه الأمير أزدهر الدوادار وغيره من خواص السلطان . وهذه ثالث ولاية له كلفته المال الكثير ، ولم يتم له الاستمرار فى منصبه خلال المرات الثلاث لامتداد يسيرة ، فكان كما يقال فى المعنى :

يفنى الخيل بجمع المال مدته	وللحوادث والأيام ما يدع
كدودة القز ما تبنيه تهسده	وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ص ٦٦٦ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ص ٦٩٠ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ص ٦٩١ .

وكان غير مشكور السيرة ، رث الهيئة يزدرية كل من يراه وقد قال فيه بعض شعراء العصر :

قاض إذا انفصل الحصان درهما إلى جدال بحكم غير منفصل
يبدى الزهادة في الدنيا وزخرفها جهراً ويقبل مرأ بعرة الجمل (١)

ثم أعيد في شهر ربيع الأول سنة ٩١٦ هـ / ١٥١٠ - ١٥١١ م بدلا من بدر الدين المكي . وكانت مدة ولاية المكي شهرين وأربعة عشر يوماً وقد اشتراه بثلاثة آلاف درهم . وقد سعى عليه ابن النقيب بحال حتى عزله وهذه رابع ولاية له في قضاء الشافعية . وقد كبده هذه الولايات الأربع نحو من سبعة وعشرين ألف دينار (٢) واستمرت ولايته شهرين وستة عشر يوماً . (٣)

وفي سنة ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م أعاد السلطان تعيينه بعد أن دفع في هذه المرة الخامسة ثلاث آلاف دينار . (٤)

وفي نفس العام عزل السلطان قضاء القضاة الأربعة عن أعمالهم وظلت وظلت مصر شاغرة نحواً من خمسة أيام لم يتم فيها عقد زواج أو صدرت خلالها أحكام شرعية ، وتعطلت وأضطربت أعمالها وأحوالها . وأصدر السلطان أوامره للوالى وقال له « كل من وجدته من الفقهاء وهو سكران فاقبض عليه » وأشيع بين الناس أن السلطان قال « لا يدخل على أحد من المباشرين وهو لا بئس عمامه » ، وهذا يشير إلى بغضه وكرهه للفقهاء . وبعد ذلك بفترة وجيزة أرسل السلطان بعض مهاترة الطشت خاناه (٥)

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور ص ٧٤٠

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور ص ٧٩٩

(٣) ابن أبياس : بدائع الزهور ص ٨٠٢

(٤) ابن أبياس : بدائع الزهور ص ٩٠٦

(٥) بيت الطشت وفيه يكون أنواع الطشت اللازمة لنسل الأيدي والقماش وغيرها

إلى قاضي القضاة محي الدين بن النقيب ليقول له «أورد ثلاثة آلاف دينار وتول وظيفتك على العادة» . فأرسل يقول للسلطان «ما معي حاضراً غير ألف وخمسمائة دينار فولوني وقسطوا الباقي على كل شهر مائتا دينار» فلم يقبل السلطان . (١)

فلما عزل قاضي القضاة الشافعي علاء الدين الأحمسي خلع السلطان على قاضي القضاة محي الدين عبد القادر وولاه القضاء (٢) بعد أن حصل منه على ثلاثة آلاف دينار . وهذه سادس ولاية له . ويقال أنه أنفق خلال هذه المدة ما يربو عن الثلاثين ألف دينار . وما لبث أن عزل بعد خمسين يوماً (٣)

مجالس الحكم

باشر قاضي القضاة القضايا المعروضة عليه يومى الثلاثاء والخميس من كل أسبوع ، وكانت تلك الجلسات تعقد في المساجد ويكون ترتيب نظرها على حسب حضور الخصوم ، فمن حضر أولاً نظر قضيته ثم قضية من يليه (٤) . وكان الرجال يجلسون في ناحية والنساء في ناحية أخرى . ولم يكن هناك تمييز أو مفاضلة بين المتقاضين في المعاملة مهما علا مقامهم بل كانوا يجلسون في مجلس واحد على بعد ذراعين من القاضي الذي كان يقوم أعوانه بين يديه بتنظيم مجلس القضاء ، من هؤلاء الجلواز (٥) ويحمل يده عصا أو سوطاً يضرب به كل من يحاول الخروج على النظام . ويجلس

فضلاً من المقاعد والمخاد والسجادات التي تنرم السلطان . وثلثت خاناه مهتار يشرف عليه . والمهتار لقب يطلق على كبير كل طائفة من غلمان البيوت .

د. سيد عاشور : العصر المالكي في مصر والشام ص ٤٣٣ - ٤٥٦

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ص ٩٦٢

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ص ٩٧١

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ص ٩٧٧

(٤) محمود عرتوس : تاريخ القضاء في الإسلام ص ١٦٢ .

(٥) الجلواز : وهو ما يشبه الشرطي الآن .

القاضي على طراحه (١) ومهتد ويجلس الشهود (٢) حواله بمنه ويسره .

(٣) جسمها طرايح وهي مرتبة بقرشها السلطان إذا جلس

د. سعيد عاشور : العصر المالكي في مصر والثام ص ٤٣٢

(١) هم من يختارهم القاضي لمعاونته في أعماله ، هؤلاء يتكبرون من تحمل الشهادة وآدابها ، ولم حوائث يقيمون بها . وكان هؤلاء عرضة للتفتيش بواسطة قضاة القضاء فيرضون بين الحين والآخر لأختبار أحوالهم حيث يبق من عرف بحسن البيرة ، ويمنع من تحمل الشهادة بدون وجه حق سواء من جهل أو سوء خلق . ويروي أن الأمير وقصود أراد أن يسلك وقف قتال السج بالقاهرة ، فاحتال لحل وقفة بأن هدم جانباً منه وأحضر شهوداً ليكتبوا محضراً بأن الحمام خراب لا ينضج به والمصلحة في بيع انقاص هذه الشهادة أمام قاضي القضاء تقي الدين أحمد بن عمر الحبل حتى يحكم بيه حل مقتضى مذهبه . وعندما شرع الشهود في كتابة المحضر المذكور امتنع أحدهم وقال والله ما يسنى من الله أن أدخل باكر النهار في هذا الحمام واتطهر فيه وأخرج وهو عار ، ثم أشهد بعد محضرة نهار أنها خراب ، وأنصرف . فاستدعى غيره ، فكتب المحضر على الحبل وشهد بما أراد الأمير ، فابتاع قوصون الحمام من ولد قتال السج وجدد محارته .

وكانت أعمال الشهود تخضع لتنظيمات معينة ، من ذلك ما أصدره قاضي القضاء عز الدين عبد العزيز بن جماعة بالآ يشهد في المساطر المكتنة (ما يكتبه حدين على نفسه لدائن يبلغ ما عليه من دين ويجماد الوقاء المتفق عليه) وفي سندات النساء بمبالغ كبيرة إلا بأربعة شهود . ولا يشهد ولا يشهد حل مريض برصية إلا بإذن أحد قضاة القضاء الأربعة أو أحد نواب الشافعي . كما أصدر أحد قضاة القضاء أوامره إل الشهود أن لا يكتبوا صدقات امرأة ومجملات الأراضي ومساطر الديون وإيجارات المنازل إلا بأحد التقدين الدرهم الفضة أو الدنانير الذهب بدلا من الدرهم النقرة (وعى سبكة من الفضة والنحاس الأحمر بنسبة ثلثين من الفضة وثلث من النحاس ولاهر)

من ذلك أيضاً ما أمر به الأمير الكبير الجاي اليوسف بأن لا يجلس في كل حانوت من جرائنيت الشهود سوى أربعة شهود وأمر قضاة القضاء بعدم سماح شهود أو اجلاسهم مجلس الحكم إلا من كان حل مذهبه .

أنظر ، المقرري : السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٣٢١

المقرري : السلوك ج ٣ ق ١ ص ٤٠ - ٢٠٢

المقرري : السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٧٩٥

د. سعيد عاشور : العصر المالكي في مصر والثام ص ٤٣٧

وله أربعة موقعون (١) اثنان يقابلان اثنين . وأمامه كرسي توضع عليه عليه دوائه وهي محلاة بالنقطة تحمل اليه من خزائن القصور ولها حامل بجامكية (٢) ويأبى خمسة حجاب (٣) اثنان بين يديه واثنان على باب المقصورة وواحد ينفذ المحصور للداخل القاعة ، ولا يقوم القاضي وهو في مجلس الحكم لأحد البتة (٤) . كما كان يعاون القاضي ترجمان ينقل اليه أقوال المتقاضين الذين لا يتكلمون اللغة العربية ، كما ينقل اليهم أمثلة القاضي . (٥)

وتختلف العقوبات الموقعة على المتهمين باختلاف التهم الموجهة اليهم . ومن هذه العقوبات الدجن ، الا أن هؤلاء المسجونين كان يصدر بشأنهم أحياناً قرارات الأفراج وهو ما يعرف الآن بالعفو العام بعد قضاء مدة من العقوبة ، فقد أصدر السلطان الظاهر برقوق أوامره للأمر جر كس الخليل بسداد الديون التي سجنوا من أجلها إلى غرامتهم (٦) والأفراج عنهم كما أصدر السلطان الأشرف برسباي أوامره بالأفراج عن جميع المسجونين

(١) الموقع : هو كاتب المجلس ، يقدم باثبات الدعاوى ويجب أن يتوافر فيه العلم بالفقه الإسلامي ، والعفة والصلاح والأمانة حتى لا يحدثن أو يختصروا في كلام الخصوم .

محمود عرنوس : تاريخ القضاء في الاسلام ص ١٣٩

(٢) جامكية : وجسمها جوامك ، الراتب المربوط لشهر أو أكثر

د. سعيد عاشور : العصر المالكي في مصر والشام ص ٤٠٤

(٣) حاجب القاضي : مهمته حراسة باب القاضي وطلب الإذن منه للزائرين سواء أكانوا

من أرباب القضايا أو من غيرهم . وموضوعها أصلاً حجب السلطان عن العامة ويطلق بأبه دونهم أو يفتحه لهم على قدره في موافقته ، وهذا الاسم أول ما حدث في الدولة الأموية في خلافة عبد الملك بن مروان ، ثم تبعهم العباسيون ، وقد ذكر عماد الدين صاحب حماة أنه كان تغليفة المقتردين بجماعة حاجب .

تاج الدين السبكي : معيد النعم ص ٨٦ .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٨٩ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٨٦ - ٤٨٧

المقريزي : المرافعة والاعتبار ج ٢ ص ٢٤٦

(٥) محمود عرنوس : تاريخ القضاء في الاسلام ص ١٣٩

(٦) المقريزي : السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٥٠١

عن أرباب جرائم السرقة وقطاع الطرق . وقرر أن لا يسجن القضاء والولاة
أحدًا وأن من قبض عليه في جريمة سرقة يقتل ، فأغلقت السجون ولم يبق
بها سجين . (١)

ومن الطريف ما قرره نفس السلطان على أرباب الدين بأن يقدموا
المؤونة لمسجونهم في أوقات الأزمات الاقتصادية وارتفاع الأسعار ،
هذا في حالة ما إذا كان الدين كبيراً ، أما إذا كان الدين يسيراً ، لزم رب
الدين بتسيطه والأفراج عن المدين .

وأتفق أن رجلاً أدعى عند بعض القضاة على رجل بدين وأقتضى
الحال أن يسجن ، فكذب القاضي على ورقة اعتقال المدين «باعتق بشرط
أن يفرض له رب الدين ما يكفيه من المؤونة » (٢)

ولم يكن القاضي معصوماً من الخطأ عند إصدار أحكامه ، بل أحياناً
ما يصدر عنه أحكاماً مخالفة لأحكام الشرع ، فقد تم عزل قاضي القضاة
جمال الدين عبد الرحمن بن خير المالكى (٣) من أجل أنه حكم في قضية
خطأه فيها فقهاء المالكية . (٤)

ولم تقتصر مجالس الحكم على قضاة القضاة ، بل كانت هناك درجة

(١) المقريزى : السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩٦٧

(٢) المقريزى : السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٩٦٦ - ٩٦٧

(٣) هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن سليمان بن غير الأنصارى الاسكندراني المالكي
القاضي جمال الدين . وله بالاسكندرية في سابع عشر جمادى الأولى سنة ٧٢٦ هـ وتفقه ومهر
في الفقه وناب في الحكم ، ثم ولى القضاء استقلالاً بالقاهرة بعد عزل علم الدين السباطي في جمادى
الأولى سنة ٧٨٣ هـ فحدث سيرته ودرس وحدث ، ومات في ناسع عشر رمضان سنة ٧٩١ هـ

ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٤٥

(٤) المقريزى : السلوك ج ٣ ق ٢ ص ٥١٧

أعلى للفضاء ، وهو ما عرف بمجالس العدل يحضرها السلطان للنظر في المظالم . وكانت أول مجالس العدل في عصر ملاطين المماليك تلك التي حضرها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ هـ . وكانت العادة أن يجلس قضاة القضاة من المذاهب الأربعة عن يمينه وأكبرهم الشافعي وهو الذي يلى السلطان ثم الحنفى ثم المالكي ثم الحنبلى . ثم الوكيل عن بيت المال (١) ثم المحتسب ، (٢) .

(١) كانت هذه الوكالة لا تسند إلا لادوى البنية من شيوخ العمول ويفوض إليه عن الخليفة بيع ما يرى يمينه من كل صنف بمالك ويجوز التصرف فيه شرعاً ، وعن المالك ، وترويع الإمام ، وتفصيل ما يقتضى الضمان ، وإيتباع ما يرى إيتباعه وإنشاء ما يرى إنشاءه من البناء والمراكب وغير ذلك مما يحتاج إليه في التصرف عن الخليفة أو السلطان .
النفقشنى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٨٧ - ٤٨٨ .

(٢) الحسبة من الوظائف الدينية أصحابها من أرباب الأتلام ، وتعلق مهمة المحتسب بالنظام العام والأداب العامة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهو يراقب أصحاب الحرف الحرف والصناعات المختلفة والمكائيل والموازين ودور ضرب النقود ، وسير العمل بالمستشفيات ونظافة الحمامات ، والمحافظة على تقاليد الشوارع والخانات وأنصرب على أيدي الخارجين ، وترتيبه اثنين في جهات معينة بحيث يجلس كل قبائ في موضع من البلد . كذلك مراقبة مبنى المساجد والتنبيه إلى إصلاحها إذا ما استدعى الأمر ذلك . والنظر في أمر الصلاة والأذان حتى أن بعضهم أمر المؤذنين أن يقولوا في ليالي الجمعة بعد أذان العشاء والتعجب «الصلاة والسلام عليك يا رسول الله» وتوزيع فقراء لتفقيهم على الباعة بسائر الأسواق ليطلعهم من القرآن ما لا بد منه في أداء الصلاة مقابل أجر معين . كما يقوم بتحصيل الزكاة من التجار والأغنياء وتحليلهم على ما يدعون أنه ملكهم . ويتميز عمله بسرعة البت في المخالفات واصدار حكمة فيها على وقتها ، بعكس عمل القاضي .
المبنى على التحقيق والأناة في الحكم ، ولاهية هذه الوظيفة كانت تسند إلى قاض القضاة .

وعرف عصر المماليك ثلاثة محققين أولهم بالقاهرة وهو أعظمهم تدرأ وأرفعهم شأنًا وله التصرف بالحكم وتولية نواب عنه بالوجه البحرى ، وهو أنلى مجلس يدار العدل دون وكيل بيت المال . والثاني بالقسطنطينية ومرتبته أقل من الأول ويختص بمصر والوجه القبلى . والثالث بمحسب الاسكندرية .

وقد ازدادت مكانة المحتسب وعظم أمر ناظرها في نهاية العصر المملوك ورغب الكثيرين في توليها ، حتى أن الأمير مامى الصنير سعى بخمسة عشر ألف دينار لدى السلطان القورى لتعيينه في نظر الحسبة .

و يجلس على يسار السلطان كاتب السر (١) وأمامه ناظر الجيش (٢) وجماعة الموقعين المعروفين بكتاب النست ، وموقعى الدست يكلون حلقة دائره ، ويكون جلوس الوزير بين السلطان وكتاب السر إذا كان الوزير من أرباب الأعلام ، أما إذا كان من أرباب السيوف يكون واقفاً على بعد مع بقية أرباب الوظائف ، وإن كان نائب السلطنة فانه يقف مع أرباب الوظائف والوظائف . ويقف من وراء السلطان صفان عن يمينه ويساره من السلاحدارية والحمدارية (٣) والخاصكية (٤) . ويجلس على بعد خمسة عشر ذراعاً عن

أنظر : القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٨ - ٢٨٧

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧

المقرئى : المواظ والاعتبار ج ١ ص ٤٦٣

المقرئى : السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤١٥

المقرئى : السلوك ج ٢ ق ١ ص ٩٣

المقرئى : السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٥٦٤

المقرئى : السلوك ج ٢ ق ١ ص ٢٦٥

(١) من الوظائف الدينية وهو صاحب ديوان الانشاء الخاص بتلقى الرسائل الواردة إلى السلطان والرد عليها ، ويلقب أحياناً بكتاب النست ولا يتولاها إلا خاصة خواص السلطان تملو شأنها ، وكان السلطان لا يقضى بمره إلا إليه .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ١٠١

(٢) هو من رؤس ديوان الجيش ، أحد دواوين الحكومة في العصر المملوكي يشرف على شئون الاقطاعات ، ويتولى ناظره أسرها بمصر والشام ويصدر أوامره بتتوين كل ما يخص به الاقطاعات في سجل خاص ويستشير السلطان في شئونها

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠ - ٣١

(٣) الجمدار : الموظف الذى يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه

د. سعيد عاشور : العصر المالكي في مصر والشام ص ٤٠٥

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩

(٤) الخاصكية : جماعة من حاشية السلطان يأتون في ترتيب البروتوكول المملوكي بعد الأمراء المقدمين ، كان عددهم في أول الأمر أربعة وعشرين ثم زادوا على الأربعمئة ، وقد تمتع هؤلاء بمكانة كبيرة فكانوا يدخلون على السلطان في أوقات فراغه وفي خلوته بغير إذن . وخصص لهم السلاطين الأرزاق الواسعة والعطايا الجزيلة وامتازوا بحسن الظهور وأناقة التركيب والملبس .

د. سعيد عاشور : العصر المالكي في مصر والشام ص ٤١٠ - ٤١١

يمينه ويداره ذوو الدن والقدر من أكابر الأمراء المثين ، ويقال لهم أمراء المشورة ويلهم أكابر الأمراء وأرباب الوظائف وهم وقوف ، وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة . ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب والدوادرية لاعطاء قصص الناس واحضار الرسل وغيرهم من المتظلمين وأصحاب الحوائج والضرورات ، فيقرأ كتاب الدست وموقع الدست القصص والشكايات على السلطان ، فان احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيما يتعاق بالأمور الشرعية والقضايا الدينية وما كان متعلقاً بالمسكر فان كانت القصص من أمراء الاقطاعات قرأها ناظر الجيش ، فان احتاج إلى مراجعة في أمر المسكر تحدث مع الحاجب وكاتب الجيش فيه ، وما عاد ذلك يأمر فيه السلطان بما يراه (١) .

ويروى أن الظاهر بيبرس عندما جلس بدار العدل ، طلب تاج الدين ابن القرطبي ، فلما حضر قال له السلطان «أضجرتني بما تقول عندي مصالح ليت مال المسلمين ، فتحدث الآن بما عندك » . فتكلم القرطبي وقال «ان الأمراء الذين ماتوا أخذ وراثتهم أكثر من حقوقهم» . فأمر السلطان باحضار زيار (٢) وأراه لمن حضر وقال «من يصير على هذا الزيار يستكثر عليه اقطاع أو يستكثر على وراثته موجود بخلفه لم ؟ وأنكر عليه قوله وأمر بحبه . وتحدث السلطان في أمر الجند وأنهم إذا كانوا في مواطن الجهاد ولا يصل اليهم شاهد فيشهد أحدهم أصحابه عند موته ، فإذا حضروا لا تقبل شهادتهم وتضيع أموال الناس لهذا السبب وقال والرأي أن كل أمير يعين من جماعته من فيه دين وخير ليسمع قوله وكل جماعة من الجند يعين من فيها من هو من أهل الخير والصلاح لتسمع أقوالهم حتى تحفظ أموال الناس»

(١) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٠٨

(٢) الزيار : آلة حربية كالفرس الذى يرمى بالبنق

المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ حاشية ٢ ص ٣٦

تقتصر الأمراء المرور . وشرع قاضي القضاة في اختبار الجياد منهم (١)

ولم يستمر ترتيب القضاة في مجلس العدل كمعادته طوال العصر المملوكي ؛
ففي سلطنة الناصر محمد تغير ترتيب جلوس القضاة الأربعة فأصبح القاضي
المالكي يلي القاضي الشافعي وتآخر القاضي الحنفي عن المالكي . حدث ذلك
بعد ما توفي شمس الدين الحريري وولي مكانه برهان الدين عبد الحق قاضي
القضاة الحنفي ، أشار الأمراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكي
فوقه ، وذكروا له أن العادة جرت بذلك قديماً إذ كان قاضي المالكية
زين الدين بن مخلوف يلي قاضي الشافعية تقي الدين بن دقيق العيد ، فأمر
الناصر بذلك . فلما علم قاضي الحنفية تغيب عن حضور المجلس أنه منه ،
فأنكر الناصر محمد غيابه وعلم مقصده ، فأمر بأحضاره ، فلما مثل بين يديه
أخذ الحاجب بيده وأقبله فيما يلي قاضي المالكية وأستمر الحال على ذلك .

وكانت المظالم والشكايات تقرأ بين يدي الناصر ويعين من يسأل صاحبها عنها
وقد سلك مسلكاً لم يسبق إليه ولا مزيد في العدل والتواضع عليه ، وهو سؤاله
بجذاته الكريمة لكل متظلم وعرضه بين يديه . (٢)

وفي عهد أولاد الناصر محمد وأحفاده تعرض مجلس العدل للتغيير للمرة
الثالثة ، فأصبح مجلس علي يمين السلطان قاضي القضاة الشافعي ويابه المالكي
ثم قاضي العسكر فحسب القاهرة ومفتي دار العدل (٣) ، ويجلس على
يسار السلطان قاضي القضاة الحنفي ويابه قاضي القضاة الحنبلي . (٤) وكان

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٣٦

(٢) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ١ ص ٢٥

(٣) وخليفة يليها أربعة من القضاة كل وفقاً لمذهبه ، ويختلف إختصاصهم عن إختصاص
القضاة فأنهم لا يفصلون في خصومات وإنما يبينون حكم الشرع فيما يسألون فيه من المسائل كل
حسب مذهبه .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٥

أمير جاندار هو الذى يتولى تنظيم دخول كبار رجال الدولة على السلطان .
 فإذا أراد أمير من الأمراء المثول بين يدى السلطان تقدمه أمير جاندار
 جاندار قليلاً أثناء دخوله ، كما كان على عاتقه تمرير أحوال الأمراء
 والوثوق منهم نخبة أن تمتد أيديهم إلى السلطان وهم في حضرته (١)

زى قضاة القضاة وركوبهم

اختلف زى رجال الدين عن غيرهم من طوائف الشعب ، وتميز لباس
 قضاة القضاة بلبس طرحه تسر عمامته وتندل على ظهره ، وكانت الطرحة
 والعمامة والشاش (٢) خيبتها من قماش أسود . فهم يلبسون العمام من الشاشات
 الكبار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابه (٣) تلحق قربوس سرجه (٤)
 إذا ركب . ومنهم من يجعل عوض الذؤابة العليسان الفائق (٥) ، ويلبس
 فوق ثيابه دلقا (٦) مشمع الأكام طويلها مفتوحاً فوق كتفيه بغير تفريج (٧)
 سايلا على قدميه (٨) . ويتميز قضاة القضاة الشافعية والحنفية بلبس طرحه
 تسر عمامته وتندل على ظهره ، وقضاة القضاة من المذاهب الأخرى
 تكون عمامته أصغر ، ويلبس بدل الدلق فرجيه مفرجه من أمامه من أعلاها

(١) القلقشنى : صبح الأعشى ج٤ ص ٢٠

(٢) مايلف حول فطاء الرأس من قماش رقيق .

د. سعيد عاشور : العصر المملوكى في مصر والشام ص ٢٧

(٣) الذؤابة : طرف يمتد من العمامة ويندل على الظهر .

(٤) قربوس السرج : المراد به جانب السرج وهو المناع الذى يوضع فوق الدابة للبلوس
 عليه .

(٥) نوع فاخر من الأردية

(٦) بكسر الدال وسكون اللام : رداء يتكون من عدة قطع من القماش على ألوان مختلفة
 يشبه العبائة .

د. سعيد عاشور : العصر المملوكى في مصر والشام ص ١٦

(٧) التفريج هو الاتساع

(٨) المراد هنا طويل يغطي القدمين

إلى أسفلها مزرة بالأزرار (١) وليس فيهم من يلبس الحرير أو ما يشابهه
 وفي موسم الشتاء يكون القوقاني (٢) من ملبوسهم من الصوف الأبيض الملطى
 ولا يلبسون الملابس الملونة إلا في بيوتهم ، ويلبسون الخفاف من الأديم (٣)
 الطائفي بغير مهاميز . (٤) (٥)

وفي سلطنة الظاهر برقوق الثانية ، وبعد أن أُنقِرَ قاضي القضاة
 شرف الدين محمد بن الدمامني في نظارة الجيش ركب بعد تقليده بفوقانيه
 من صوف أخضر وعذبتة مسبله عليها من وراء ظهره . وكان ذلك أول
 تغيير في لباس القضاة ، فلم يعهد لأحد من قبله ممن يلبسون الجبة العذبة
 أن يلبس جبه ملونه ، بل دائماً يلبسون الجبة البيضاء من القطن صيفاً ومن الصوف
 شتاءً (٦) .

وفي سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م أثناء عهد السلطان المؤيد شيخ أرتدى
 قاضي القضاة شمس الدين محمد الهروي فرجيه مفتوحه عن صدره ولعامة
 عذبه (٧) مرخاه على يساره مخالفاً بذلك باقي القضاة .

وفي سلطنة الأشرف برمباي سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م بعد أن ولي قاضي
 القضاة شمس الدين الهروي عوضاً عن الشيخ الحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر
 غير زيه ، فإنه كان أولاً يتزيا بزي المعجم فيلبس عمامة عوجاء بعذبة عن

(١) رداء واسع مفتوح من الأمام ذو أزرار

(٢) الرداء الذي يلبس فوق الملابس

(٣) حذاء خفيف مصنوع من الجلد المدبوغ .

(٤) المهاميز المراد به الأربطة .

(٥) القلقشندي : صبح الأمشى ج٤ ص ٤١ - ٤٢ .

المقرئزي : السلوك ج١ ق٢ حاشية ١ ص ٤٠

(٦) المقرئزي : السلوك ج٣ ق٢ ص ٨٧٥ .

(٧) عذبة العمامة ، طرفها

يساره ، فلما ولي القضاء لبس الجبة وجعل العمامة كبيرة وأرضى العذبة
 بين كفيه ، فلما ولي كتابة السر تزيا بزى الكتاب وترك زى القضاء
 فضبت كفه وجعلت عمامته صغيرة ملوثة ذات أضلاع وترك العذبة ، وصار
 على عنقه طوق (٣) ولبس الذهب والحرير فلما أعيد إلى القضاء ثانياً وصار
 خلع زى الكتاب وتزيا بزى القضاة . (٢)

ومن التواخر الغربية في عهد السلطان قانصوه الغوري أن قاضى القضاة
 محى الدين يحيى بن الدميرى عندما ولي القضاء لبس طوقاً وهذا بخلاف زى
 القضاة ولا يعلم سبب ذلك (٣) . كما خلع السلطان على قضاة القضاة الأربعة
 كوامل صوف أبيض بسمر ، (٤)

وعند تنصيب قاضى القضاة يستدعى إلى حضرة السلطان بقلمة الجبل
 ويخضع عليه بخلعه القضاء ، ثم ينزل وفي خدمته أمراء الدولة ودوا دار السلطان
 وأعيان الناس ، وتزين شوارع القاهرة بالشموع والقناديل ابتهاجاً وتكريماً
 لشخصه ، ثم يقدم له من الأصبليات السلطانية بغلة شباء ، وهذا اللون
 مخصص لقضاة القضاة دون أرباب الدولة ، وهى من البغال النفيسة المداوية
 فى الأثمان لمهمات الخيل ، بلجم ثقيل وسروج مدهونة غير مجلاء بشيء
 من الفضة ويجعلون حول السرج قرشينا من جوخ وهو شبه بثوب السرج
 ويجامون بدل العبي الكنايش (٥) من الصوف المرقوم محاذية لكفل البغل
 ويمتاز قضاة القضاة بأن يجعل بدل ذلك

(٣) حل يحمل في العنق ويزينه

(٢) انقريزى : السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٦٧٠

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ص ٨٥٢

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ص ٩٣٨

(٥) هو البردعة توضع تحت سرج الفرس

ذلك الزنارى (١) من الجوخ ، وهو أشبه بالعباءة مستدير من وراء
الكفل ولا يعلوه بردنب ولا قوش ، وربما ركبوا بالكنايش (٢)

ألقاب قاضى القضاة ووظائفه

من الوظائف التى عنى بألقابها القضاة ، فظل لقب قاضى القضاة
معروفاً فى العصر الأيوبي ، وفى عصر المماليك .

وتلقب قاضى القضاة بألقاب كثيرة ، ففى المكاتبات الصادرة عن
ديوان الإنشاء نجد مخاطبته : « مجلس القاضى ، الأجل الكبير ، الفاضل ،
الأحد ، الأثير ، الرئيس ، البليغ ، العريق ، الأصيل ، مجد الإسلام ،
بهاء الأنام ، شرف الرؤساء » (٣)

ومن ألقابه أيضاً « القاضى الأصيل » وربما زيد فى تعظيمه ف قيل « الكبير
الصدر الرئيس » (٤) و « المجلس العالى » (٥) ، واستمر اللقب الأخير ينعت به
قضاة القضاة عند اصدار تقاليدهم القضاة ، إلى أن ولى عماد الدين أحمد
الكركى قضاء القضاة الشافعية فى بداية سلطنة الظاهر برقوق الثانية ، وكان
أخيه القاضى علاء الدين على صاحب ديوان الإنشاء ، فكسب له تقليداً باسم
« الجنب العالى » تكريماً له ، ثم ولى جمال الدين محمود الحلبي المعروف

(١) كسرة قصان تكون بفتوحة فوق صدره وسلولة حل الكفل بحيث لا يرى الذيل وكان
الزنارى مطرئد الكنبوش لمن عظمت قدرته ومقامه ، ويصنع من الأطلس الأحمر أو الجوخ .
أنظر ، د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ١٤١٥ هـ و ١٤٤٤ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص ٤٢
المقريزى : المواعظ والاعتبار ج٢ ص ٢٤٦

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص ١٥٣

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص ١٥٤

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص ١٦٥

بالعجى قضاء قضاء الحنفية مضافاً إليه نظر الجيش ، فصدر له تقليد باسم
الجناب العالى أيضاً ، ولم يكتب هذا لأحد من المتعممين الا الوزير فقط (١)
وبقى القاضيان المالكي والحنبلى على ألقابهما دون تغيير إلى أن ولى جمال الدين
يوسف البساطى قضاء قضاء المالكية فى دولة الناصر فرج بن الظاهر برقوق
فخروط بالجناب العالى ، وظل قاضى قضاء الحنابلة محتفظاً بألقابه القديمة
دون أقرانه من المذاهب الثلاثة الأخرى (٢)

ومن نسخ التقاليد الصادرة لتعيين قاضى القضاة ما نصه : «الحمد لله
الحكم العدل الهادى عبادة صراطاً مستقيماً ، الحاكم الذى لا يظلم مثقال ذرة
وان تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً . المنيب من قدم له
الطاعة من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ، الرقيب على ما يصدر
من أفعالهم فلا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ، وإذا أراد الله يقوم
سراً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال .

أجده على نعمه التى تنشىء المحاب الثقال ، وأستعيذه من نقمة
التي يرسلها فيصيب بها من يشاء من عباده وهو شديد المحال . وأشهد أن
لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة تنفيذ المخلص بها فى الأثرار النجاة
يوم المال . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى نعت بأكرم الشيم وأشرف
الحصال ، وعرفه بما يجب من عبوديته فقال «ولله يدجد من فى السموات
والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال » صلى الله عليه وعلى
اله وأصحابه الذين أتبعوه فى الأقوال والأفعال .

أما بعد ، فان من حسنت سريره وخذت سيرته وعرف بورع وشهة
بعفاف ، وديانه وخير وانصاف ، وأضحى نزه النفس عن الأمور الدنيبة

(١) المقرئى : السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٧٤٤

(٢) القلقشنى : مسج الأعشى ج ١١ ص ١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٦

فقيماً درياً بالأحكام الشرعية عارفاً بالأوضاع المرضية : أستحق أن يوجه
 ويستخدم ويرقى ويتقدم . ولما علمنا من حال فلان الفلاني من الأوصاف
 الحميدة والأفعال السديدة ، استخرنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا .
 فليكن متمسكاً معتصماً بحبل الله القوي المتين «إنه من يتق ويصبر فإن الله
 لا يضيع أجر المحمين» ، وليبشّر ما قلدهناه أعانه الله سبحانه وتعالى ، ويراع
 حقوق الله تعالى في السر والعلانية فإنه معين من أستعان به وتوكل عليه
 وهادى من أسترشده وفوض أموره إليه .

وليجهده في فصل الأحكام بين المتنازعين والمساواة في العدل بين
 المتحاكين . قال الله تعالى «وإذا حكمتكم بين الناس أن تحكموا بالعدل»
 وأن ينبذ في الخصومات ، ويفرق بين الحقائق والشبهات وينصف كل
 ظالم من ظلمه بالشرعية المحمدية ، ليكون ذلك سبباً للسعادة الأبدية ، وينظر
 في أمر الشهود ، فمن كان منهم نزهة وإلى الحق متوجهاً ، فليراعه . ومن كان
 منهم غير ذلك طالعنا بحاله ، ينظر في أمر الجوامع والمساجد معتمداً في ذلك
 قول الله تعالى العزيز القاهر «أما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر»
 وينظر في أمر الأيتام ، ويحتاط على ما لهم من الأموال ويفعل في ذلك على
 جاری عادة أمثاله من الحكام ، من نفقة وكسوة ولوازم شرعية ، فمن بلغ
 منهم رشيداً أسلم إليه ما فضل من ماله بالبيئة المرضية ، ويقرر القروض
 على مقتضى قول الله تعالى «على الموسع قدره وعلى المقتر قدره» . ويزوج
 النسوة الخالية من العدد والأولياء فمن رغب فيهن من الأكفاء ويندب لذلك
 لذلك من تعلم أمانته وخبرته ، وينظر في أمر المتصوفين ، فمن كان منهم
 على الطريقة المأثورة أجراه على عادته وأبقاه على حكمه وخلسته ، ومن كان
 منهم خلاف ذلك يبعده ويقصيه ويستبدل به غيره ليبقى مكانه وفي تصرفه .
 هذا عهدى اليك وحجتي يوم القيامة عند الله عليك ، فلتعلم ذلك وتحمل
 به ان شاء الله تعالى . وحسبنا الله ونعم الوكيل (١)

(١) القلقشنى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٤٢ - ٣٤٣ - ٣٤٤

وقد تولى قاضى القضاء وظائف عديدة بأمرها بدقة وأمانة لما تستوجبه
هذه الأعمال من واجبات معينة وشروط خاصة ومنها :

١ - الافتاء فى الأمور الدينية بالجواز أو المنع ، وإليه الرجوع لبيان
الأحكام الشرعية (١)

٢ - نظارة الأحباس (٢) ، ويتولى صاحبها الإشراف على المساجد
والجوامع والربط والزوايا والمدارس ، والاحسان إلى الفقراء والمعوزين

٣ - نظر الخالص ووكالة السلطان ، ومن أعماله البت فى الأمور
الخاصة بالسلطان بعد استشارته فيها وتلقى أوامره ، كما كان ينوب عن
السلطان فى كل ما يباع ويشتري من أملاكه الخاصة . (٣)

٤ - تولى الامامة وخطابة المساجد والتدريس (٤)

٥ - رئاسة دور ضرب السكة . (٥)

٦ - نظارة الجيش والخزانة . (٦)

وقد أورد الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي فى كتابه «زهر الربيع
فى الترسل البديع» نص تهنئة بولاية القضاء ويتضح منها واجبات الوظيفة وهى

«أنفذ الله تعالى أحكامه ، وشكر إحسانه وانعامه ، وخلده ناصراً
للشريعة المطهرة وأدامه ، وجدد سعده وأسعد أيامه ، وجعله المرشد

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٥٦

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٢١ - ٧٢٢

(٣) التلخيص : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠

المقرئى : المواقف والاعتبار ج ٢ ص ٢٢٧

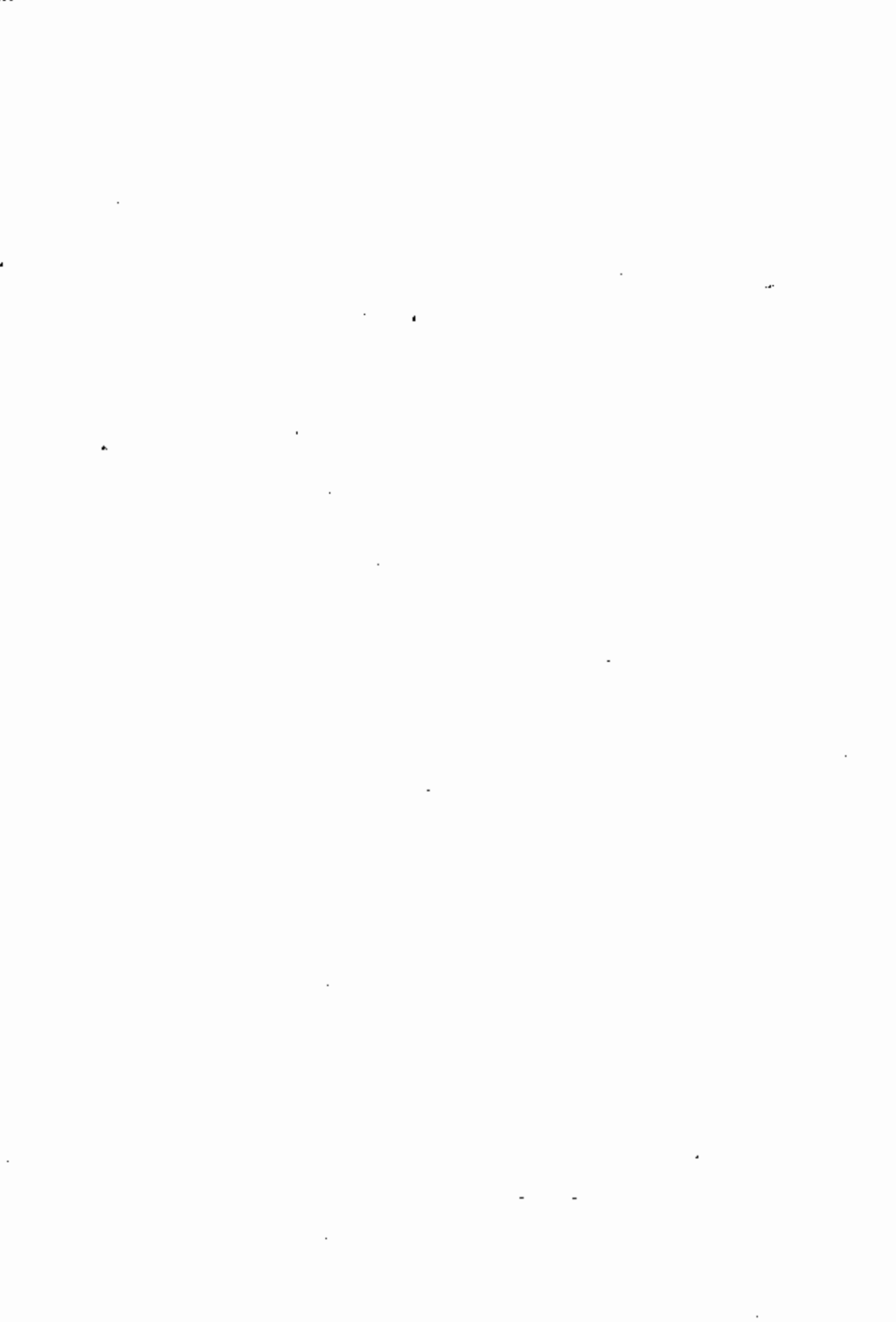
(٤) المقرئى : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٦٤٧

(٥) المقرئى : السلوك ج ٣ ق ٣ ص ١١١٧

(٦) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٧٢٢

والمقتضى بأمر الله والراشد ، والمتنجد ، والمتنصر ، والناصر ، والقاصد
والعاصد ، والحاكم القائم بأمر الله حتى يكون من القضاة الثلاثة الواحد ،
الواحد . المملوك يقبل اليد العالية تبركاً بتقيلها ، وأداء لواجب تعظيمها
وتبجيلها ، ويبني المولى بما خصه الله تعالى من مضاعفة نفاذ كلمته ، ورفع
منزله وأفضاء أحكامه الشريفة وأقصيته وتقليده أمور الإسلام ، وتنفيذ
أوامره في الخاص والعام ، ويبني بالمولى من ردت أموره إليه ، وعول
في ملاحظة مصالحه عليه ، فإن مولانا ما زال بالعلم والعمل مشهوراً
وسعيه في الدنيا والآخرة سعيًا مشكوراً . ويقظة مولانا جديرة بزيادة الاهتمام
والاحتياط التام ، بملاحظة طلبه العلم والمشتغلين ، والفقهاء والمدرسين ،
وسير أحوال النواب وأن لا يكفيه الاعتماد على حسن البره وطهارة الأئمة
بل يمتنع في الاطلاع على ما يعتدونه النظر ، ويلاحظ كل منهم إذا غاب
عن مجلسه أو حضر ، فن رأه يهدي إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ،
ولا يقرب إلا بالتي هي أحسن مال اليتيم فيحقق له من العناية أملاً ، ولا يضع
أجر من أحسن عملاً ، حرس الله المولى ومنتج بحياته ، وأعاد على الكافة
بركة صيامه المقبول وصلاته ، ونفع الإسلام بمستجاب دعواته إن شاء
الله تعالى (١)

(١) الفلشنلى : صبح الأعشى ج ٩ ص ١٧ - ١٨ .



أهم قضايا القضاة في عصر المماليك وفق مذهبهم

الشافعية :

الاسم	سنة الوفاة بالتقويم الهجري
تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز	٦٦٥
عمى الدين عبد الله بن شرف الدين بن عين الدولة	٦٧٨
تقى الدين محمد بن الحسن بن رزين	٦٨٠
برهان الدين الخضر بن الحسن السنجاري	٦٨٦
تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز	٦٩٥
تقى الدين محمد بن علي بن وهب بن دقيق العيد	٧٠٢
كمال الدين علي بن عبد الرحيم الأرمني	٧٠٦
جلال الدين البلقيني	٨٢٤
بلر الدين محمد بن ابراهيم بن جماعة	٧٣٣
جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني	٧٣٩
صدر الدين محمد بن ابراهيم المناوي	٧٤٦
شرف الدين محمد بن أبي بكر الهذلي	٧٤٨
بهاء الدين أبو البقاء محمد بن عبد البر المكي	٧٧٧
ناصر الدين محمد بن عبد الدائم بن الملق	٧٩٧
بحال الدين عمود بن محمد عبد الله القيصري	٧٩٩
ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن الصالحى	٨٠٦
علم الدين صالح بن سراج الدين البلقيني	٨٢٨

الحنفية :

معز الدين التتمان بن الحسن	٦٩٢
شمس الدين أبو العباس أحمد السروجي	٧١٠
سراج الدين عمر بن أبي بكر الرازي	٧١٧
شمس الدين محمد بن عثمان الحريري	٧٢٨

٧٣٣	سراج الدين عمر بن اسحق الغزنوى
٧٣٤	نجيم الدين عمر بن محمد بن كمال الدين بن العديم
٧٤٤	تاج الدين أحمد بن عثمان التركمانى
٧٥٠	علاء الدين بن التركمانى
٧٧١	زين الدين عمر بن عبد الرحمن البساطى
٧٧٦	صدر الدين محمد بن جمال الدين التركمانى
٧٩٩	شمس الدين محمد بن اخيه الطرابلسى
٨٠٣	جمال الدين يوسف بن مرمى الملقب
٨١١	كمال الدين عمر بن العديم
٨١٦	صدر الدين على بن الآدى
٨١٩	ناصر الدين محمد بن العديم
٨٦٦	سعد الدين بن الديرى
٨٨٥	شمس الدين محمد بن الحسن الآه شاطى

المالكية :

٦٦٧	شرف الدين عمر بن السبكى
٧٠٥	زين الدين على بن مخلوف النويرى
٧١٥	شمس الدين محمد بن أبى القاسم التنسى
٧٥٠	تقى الدين محمد أبى بكر الأحنافى
٧٥٦	نور الدين على بن عبد النصير بن عبد الحقيق
٧٦٠	تقى الدين محمد بن أحمد بن شاس
٧٦٣	تاج الدين محمد الأحنافى
٧٧٧	برهان الدين ابراهيم بن عيسى الأحنافى
٧٨١	ناصر الدين أحمد بن محمد التنسى
٧٩١	جمال الدين عبد الرحمن بن محمد خبىر السكندرى
٧٩٣	تاج الدين محمد بن يوسف الكركى

٨٠٣	نور الدين على بن الخلال
٨٠٨	عبد الرحمن بن مخلدون
٨٢٣	جمال الدين عبد الله الافندي
٨٥٣	بدر الدين بن ناصر الدين أحمد التنسي
٨٦١	ولي الدين السفاطي
٨٧٣	حسام الدين بن جرير

الخطابة :

٦٧٦	شمس الدين محمد بن العماد الجماعلي
٦٩٦	عز الدين عمر بن عبد الله بن هوض
٧٠٩	شرف الدين عبد الغني بن يحيى الحراني
٧٣٢	شرف الدين عبد الله بن الحسن المقلسي
٧٥٠	علاء الدين علي بن منجا بن عثمان التنوخي
٧٦٩	موفق الدين عبد الله بن عبد الملك الربيعي
٧٦٩	موفق الدين عبد الله بن محمد المقدسي
٧٧١	شرف الدين أحمد بن الحسن بن عبد الله المقدسي
٧٨٢	برهان الدين ابراهيم بن نصر الله العقلائي
٧٨٣	موفق الدين أحمد بن نصر الله
٧٩٥	ناصر الدين نصر الله بن أحمد العقلائي
٨٢٨	علاء الدين علي بن معلى
٨٤٤	محب الدين أحمد بن نصر الله البغدادي
٨٥٧	بدر الدين محمد بن عبد المتعم البغدادي
٨٧٦	عز الدين أحمد بن برهان الدين نصر الله

(قائمة المصادر والمراجع)

- الأديبى :

الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواه بأعلى الصعيد
مطبعة الجمالية بالقاهرة ١٤٣٣ هـ

- ابن اياس (محمد بن أحمد) :

بدائع الزهور فى وقائع الدهور - مطابع الشعب بالقاهرة ١٩٦٠

- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) :

تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - جزءان
القاهرة ١٩٥٨ .

- ابن تفرى بردى (خالد الدين أبو المحاسن يوسف) :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١٢ جزء مطبعة
دار الكتب بالقاهرة ١٩٢٩

- جوزيف نعيم يوسف (دكتور) :

العدوان الصليبي على مصر - الاسكندرية ١٩٦٩

- خالد الدين الشيال (دكتور) :

تاريخ مدينة الاسكندرية - دار المعارف ١٩٦٧

- ابن دقيق العيد (تقى الدين محمد بن وهب) :

احكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ، تحقيق محمد حامد
جزءان مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ١٣٧٢ هـ

- البيهقى (تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن علي) :

معيد النعم ومبيد النقم لندن ١٩٠٨
طبقات الشافعية الكبرى ٦ أجزاء المطبعة الحسنية بالقاهرة
١٣٢٤ هـ

- السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) :
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع
١٢ جزء مكتبة القدس بالقاهرة ١٣٥٤ هـ
- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)
القصر الماليتكى فى قصر وأشام - القاهرة ١٩٦٦
- السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) :
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة - جزءان مطبعة
إدارة الوطن بالقاهرة ١٢٩٩ هـ
- أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل بن إبراهيم شهاب الدين)
كتاب الروضين فى أخبار الدولتين - جزءان القاهرة ١٢٨٧ هـ
- البسقلانى (ابن حجر)
- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة - ٤ أجزاء دائرة
المعارف العثمانية ١٣٤٩ هـ
- رفيع الأصر عن قضاة مصر ، تحقيق د . حامد عبد المجيد
وآخرين القسم الأول المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٧
- القلقشندى (أبو العباس أحمد)
صبيح الأعشى فى صناعة الإنشا - ١٤ جزء القاهرة ١٩١٤
- الكتبى (فخر الدين محمد بن شاكِر)
فوات الوفيات - مطبعة بولاق بالقاهرة ١٢٨٣ هـ
- محمود محمد نوس :
تاريخ القضاء فى الإسلام - القاهرة ١٣٥٢ هـ

٦
- المقرئى (تقى الدين أحمد بن على)

كتاب السلوك لمفرقة دول الملوك - الجزءين الأول والثانى

فى ٦ مجلدات ، تحقيق د . محمد مصطفى زيادة - مطبعة دار

الكتب ١٩٣٤ و ١٩٤٢

الجزئين الثالث والرابع فى ٦ مجلدات ، تحقيق د . سعيد

عبد الفتاح عاشور - مطبعة دار الكتب ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢

١٩٧٣ .

- المواعظ والأعتبار فى ذكر الخطط والآثار

جزءان طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ - والطبعة الأهلية فى أربعة

أجزاء القاهرة ١٩٠٧

PRIOR Roy, "Auteur et narrateur dans *Les Faux Monnayeurs*", in Bull. des mais d'A.G., n° 44.

ROSSI Vinio, "Le 6ème Voyage : autour du "renoncement au voyage" et des *Nourritures Terrestres*", in RLM, n° 547, pp. 53—65.

SERGE Victor, "Pages de Journal" in *Les Temps Modernes*, juin, 1949.

TILBY Michael, "Self-conscious narration and self-flexivity in Gide's *Les Faux Monnayeurs*", in *Essays in French Literature*, n° 15, novembre 1978, pp. 56 à 81.

TOMICA Malgorzater, "Projet autobiographique et stratégie narrative chez André Gide", in *Romantica Wratislaviensia*, XIV, 1979, pp. 51 à 60.

DIVERS :

CAHIERS André Gide, éd. Minard.

CAHIERS de la Quinzaine, André Gide, 6ème cahier de la XXème série, "Débat sur André Gide au studio Franco-russe", 1930.

CORRESPONDANCE RILKE-GIDE 1909—1926, Corrèa, 1952, introduction et commentaires de Renée Lange.

DOSSIER André Gide, coupures de presse, Bibliothèque Doucet.

THESES DACTYLOGRAPHIEES :

ANTOINET Claude, *L'Art et la Vie dans l'oeuvre d'Andre Gide*, thèse de 3è cycle, Un. de Lyon II, 1979.

MARGARET Boullé, *La remise en question du personnage*, thèse d'université, Paris, 1976.

STEEL David, *Le Theme de l'enfance dans l'oeuvre d'Andre Gide*, Thèse d'université, Lille, 1974.

TAILLIART C. E. *L'Algerie dans la Litterature Francaise*, Thèse pour le doctorat ès-lettres, Paris, 1925.

YAGHMAI S., *Les elements autibiographiques dans l'oeuvre romanesque d'Andre Gide*, Thèse d'université, Paris, 1962.

- BLASI Pierre-Marc** de, "Les Figures de l'Avenir", in *Littérature*, n°17, février 1975.
- BONNEFOY G.**, "Les triomphes de la fiction", in *Les Nouvelles littéraires* n° 2369, février 1973.
- CANCALON Elaine**, "Création et Destruction dans les récits d'André Gide", in *RLM*, n° 547, pp. 81—90.
- ESTEVE**, "Le moi selon Marcel Proust, Paul Valéry et André", in *Cahiers du Sud*, n° 28, 1938.
- GEERTS Walter**, "La réflexion dans *Les Cahiers d'Andre Walter*. Notes pour une description de la "mise en abyme", *RLM*, n°547, pp. 9 à 37.
- GENETTE Gérard**, "Discours du récit. Essai de Méthode", in *Figures III*, Seuil, 1972.
- GOULET Alain**, "L'écriture de l'acte gratuit", in *RLM*, n° 547, pp. 177—210.
- GREIMAS A. J.**, "Eléments pour une théorie de l'interprétation du récit mythique", in *Communications*, n°8, Seuil, 1966, p. 30.
- IRELAND G.W.**, "Le jeu des "je" dans deux récits gidiens" in *RLM*, *RLM*, n° 547, pp. 69—80.
- KRISTEVA Julia**, "La productivité d'un texte, in *Semiotike*, Seuil, 1968.
- LOTTMAN Herbert**, "Quand Gide refusait de se taire", in *Le Nouvel Observateur* du 29 août 1981.
- MASSON Pierre**, "Le Retour de l'enfant prodigue : problèmes de création et d'interprétation", *Bull. des amis d'A. G.*, n° 41.
„La porte ouverte, ou voyages et voyageurs de la *Porte Etroite*, *Bull. des amis d' A. G.*, n° 45.
- PRINCE Gerald**, "Introduction a l'étude du narrataire", in *Poétique*, n° 14, 1973, pp. 178—197.
"Narration et (dé) valorisation dans *Les Faux Monnayeurs*" in, *RLM*, n° 547, pp. 205 à 210.

MAUCUER Maurice, *Gide, l'Indecision passionnée*, Centurion, 1969.

MICHAUD Gabriel, *Gide et l'Afrique*, Scorpion, 1961.

MOUTOTE Daniel, *Le "Journal de Gide et les problèmes de moi"*, P. U.F. 1968.

Les images végétales dans l'œuvre d'Andre Gide, 1970.

PAINTER Georges, *Andre Gide*, Traduction de l'anglais par Jean-Rene Major, Marcure de France, 1968

RICARDOU Jean, *Que peut la littérature ?*, „10—18", 1972.

ROUSSET Jean, *Narcisse Romancier*, Jose Corti, 1973.

ROUYEYRE Andre, *Le reclus et le retors*, Crées, 1927.

SCHLUMBERGER Jean, *Eveils*, Gallimard, 1950.

Madeleine et Andre Gide, Gallimard, 1956.

SCHVEITZER Marcelle, *Gide aux oasis*, ed. de la Francité, 1971.

SCHWOB Rene, *Le vrai drame d'Andre Gide*, Paillart, 1932.

SIMON E., *Patrie de l'Humain*, Gallimard, 1948.

TAHHAN Raymond, *Andre Gide' et l'Orient*, Abécé, 1963.

THIERRY Jean-Jacque, *Andre Gide*, Caëllimard, 1968.

ZUMTHOR Paul *Langage texte enigme*, Seuil, 1975.

ARTICLES :

BANCROFT Jane, *Les caves du vatican : vers l'écriture du roman*", in RLM, n°545 pp. 159—179.

BARTHES Roland, "Introduction à l'étude structurale récit", in *Communication*, n° 8, Seuil, 1966, pp. 1 à 27.
„Les sorties du Texte", in Bataille, VGE, 10-18, 1980.

BAUDRY J.L., "Ecriture, fiction, idéologie", in *Theorie d'ensemble*, coll. „Tel quel", Seuil, 1968, pp. 127 à 148.

BOISDEFFRE Pierre de de, "Des vivants et morts", in *Temoignages* 1954, pp. 151 à 153.

- BARTHOLD V.**, *La Decouverte de l'Asie*, Payot, 1947.
- BEIGBEDER Marc**, *Gide*, „Classiques du XXe siècle”, 1961.
- BOISDEFRE Pierre de**, *Vie d'Andre Gide*, Essai de biographie critique Hachette, 1970.
- BUCHET Edmond**, *Ecrivains intelligents du XXe siecle*, Corr  a, 1945.
- CANCALON Elains**, *Techniques et personnages dans les recits d'Andee Gide*, Lettres Modernes, 1970.
- CHADOURNE Jacqueline**, *Andre Gide et l'Afrigue*, Nizet, 1968.
- DALIENBACH Lucien**, *Le Recit speculaire*, Essai sur la mise en abyme, Seuil, 1977.
- DELAY Jean**, *La Jeunesse d'Andre Gide*, 2 Vol., Gallimard, 1956-1957.
- FAYE Jean-Pierre**, *Theorie du recit*, Hermann, 1972.
- FONVIELLE-ALQUIER Francois**, *Andre Gide*,   d. Pierre Charron, 1972.
- FREYBURGER Henni**, *L'Evolution de la disponibilite gidienne*, Nizet, 1970.
- JANKELEVITCH Vladimir**, *Le Je-ne-sais-quoi et le Presque-rien* 3 Vol., Seuil, 1980.
- GOT Maurice**, *Andre Gide*, C.D.U. 1962.
- GREIMAS A.J.**,
GREIMAS A. J., *Semantique structurale*, Larousse, 1980 *Du Sens*, Seuil, 1981.
- LAMBERT Jean**, *Gide familler*, Julliard, 1958.
- LOTTMAN Herbert**, *Rive Gauche*, Seuil, 1981.
- MACHERY Pierre**, *Ppur une theorie de la production litteraire*, Masp  ro, 1974.
- MANSUY Michel**, *Etude sur l'imagination de la vie*, Jos   Corti, 1980.
- MARTIN Claude**, *Andre Gide*, Saulil, 1974.
La maturite d'Andre Gide, Klincksieck, 1977.

constituent en réalité un prétexte pour COMMENTER ses propres sentiments mais aussi pour ENONCER ses nombreuses théories parfois hétérodoxes. Il crée ainsi toute une atmosphère qui nous imprègne, et nous associe à ses vibrations.

Enfin quand il s'agit de se laisser vivre, Gide abdique sa personnalité d'Occidental et son enthousiasme l'emporte; c'est alors qu'il distille ses impressions pour mieux nous les faire partager et pour mieux initier l'Occident au pittoresque oriental; voilà pourquoi son MOI-YOYAGEUR se situe au centre de ses récits en tant que "création réflexive de soi", pour reprendre l'expression de Moutote.

"Les vrais voyageurs sont ceux-là seuls qui partent pour partir", écrivait Baudelaire, au risque de se heurter à "une oasis d'horreur dans un désert d'ennui"; le seul voyage valable est sans doute celui que l'homme entreprend à l'intérieur de lui-même, et c'est en fin de compte ce qui semble être le cas de Gide; rêvant d'inconnu et d'inaccessible, toujours à la recherche de sensations nouvelles, l'écrivain sera toujours à la poursuite de sa propre image, avec ses complexes et ses blocages, et ne trouvera jamais que ce qu'il a voulu inconsciemment fuir, c'est à dire son MOI.

Le symbolisme du grain qui meurt et se multiplie va au-delà des rythmes de la végétation : il évoque plutôt l'alternance VIE-MORT, celle de la vie dans le monde souterrain et le monde de la lumière, en d'autres termes le passage du non-manifesté à la manifestation. De ce fait, EXODISME et DROMOMANIE furent pour l'écrivain un prétexte pour dévoiler les assises ontologiques d'où émette l'acte d'écrire.

BIBLIOGRAPHIE

ETUDES :

ADAM J.M., *Linguistique et Discours littéraire*, Larousse, 1981.

ARLAND Marcel, *Essais et nouveaux essais critiques*, Gallimard, 1952.

ARNAUDI ES Anne, *Le Nouveau roman*, Seuil, 1974.

BARTHES Roland, *Le Degré zero de l'écriture*, Seuil, 1972.

BASTIDE Roger, *Anatomie d' Andre Gide*, P.U.F., 1972.

Enfin la plus grande part est accordée au désert, carrefour de plusieurs catégories de déserts : désert de sable "sables mouvants comme les flots de la mer", "désert d'alfa, plein de couleuvres", désert de pierre où "tout crépite au soleil", et désert d'argile où "tout pourrait vivre si seulement coulait un peu d'eau".(50) A ce niveau, une évidente distanciation de l'écrivain vis-à-vis de son récit, s'effectue; au MOI, il substitue un IL qui relève du concret, un IL inanimé puisqu'il ne s'agit point d'un personnage mais d'un paysage. Gide nous communique ainsi les détails concernant le débat intérieur de son âme, ce qui tend spontanément à animer le paysage; c'est alors que s'élève un chant intérieur qui révèle la prépondérance de sa sensibilité, si bien que l'écrivain s'identifie complètement à ses phantasmes.

En fin de compte on peut essayer d'expliquer les récits de voyages d'André Gide par le fait que ses découvertes en Afrique du Nord surtout, ont provoqué en lui des réactions contre les différents chocs affectifs qui ont secoué son enfance; sa nouvelle attitude vis-à-vis du puritanisme, du conformisme, justifient en quelque sorte les anomalies de son éducation, et précisément la métamorphose qui s'accomplit en lui, laisse des répercussions profondes sur l'ensemble de ses récits.

Individualiste, Gide part à la recherche d'horizons nouveaux avec sa propre philosophie et sa propre esthétique; il aboutit à la réalisation de soi par un certain enivrement des sens, mais aussi et surtout par les procédés inédits qu'il introduits dans l'écriture, car il ne nous décrit que ses propres visions du monde. Il a composé sa vie, il a fait son oeuvre, mais son oeuvre l'a fait", écrit à ce sujet un contemporain. En effet, le MOI condensé se reflète sur le paysage et y répand ses composantes : c'est alors que l'ensemble des sensations se regroupent et fusionnent pour donner naissance à un art très nuancé mais surtout très individualisé : ainsi RE-naît le MOI qui a trouvé sa réalisation dans l'écriture.

On peut donc penser que Gide ne puise dans ses voyages que ce qui s'accorde avec son être; il y cherche également l'illusion exaltante d'un renouveau, et l'exotisme lui procure la sensation d'un dépaysement total; l'univers qu'il décrit devient une partie intégrante de son MOI; c'est pourquoi ses descriptions se trouvent transfigurées par l'émotion, et les paysages résonnent de sentiments. Tous ces pays qu'il visite

(50) P. 238.

autre qu'une *creation reflexive de soi*, à travers les floritures du langage : une recherche de soi dans le sens de la "valeur" (47). Et si nous parlions d'écrivain-espion dans *Si le Grain ne meurt*, nous pouvons parler ici d'un "espion-espionné", dont les protagonistes n'ont ni nom, ni visage, et n'existent qu'en tant qu'écriture : il y a une espèce d'effacement du corps.

Dans *Les Nourritures Terrestres*, les impressions simultanées focalisent le faisceau Orient-Occident; l'infinie variété des paysages, l'exaltation que provoquent les sens, la vision nouvelle des choses, s'harmonisent comme dans une symphonie; on y trouve une gamme de sensations visuelles qui, dans leur convergence, nous communiquent l'impression ressentie devant tel ou tel paysage, et qui alternent avec des sensations tantôt olfactives et tantôt gustatives.

La traversée d'Alger, de Biskra, de Chetma, d'Oumach et de Touggourt, ne sont dans *Les Nourritures Terrestres* que des prétextes autorisant l'écrivain à introduire dans ses descriptions de nouveaux motifs de couleur locale; tantôt il décrit les "accalmies délicieuses" des jardins, dont certains étaient "pleins de fleurs et d'abeilles" et où "des parfums rôdaient"; tantôt ce sont les oasis qui "flottent sur le désert comme des îles" et qui retiennent son attention; tantôt encore il s'agit de caravanes "horriblement lasses, ivres de mirages, et, maintenant, désespérées" (48); et le point de rencontre de ces caravanes devient sous la plume de Gide un centre de focalisation où aboutissent les différent rayons du faisceau; ainsi :

— "il y en avait qui partaient vers l'Orient, chercher le santal et les perles,

— Il y en avait qui partaient vers le Sud chercher l'ambre et le musc.

— Il y en avait vers l'Occident, qui partaient le soir, et qui se perdaient dans l'éblouissement dernier du soleil" (49).

(47) Daniel Moutote, *op. cit.*, p. 91. Souligné par l'auteur.

(48) P. 237.

(49) *Ibid.*

vraies, fausses ou plausibles nous permettent de mesurer l'ampleur des ajouts imaginaires surtout quand il s'agit du récit de ses pérégrinations nord africaines; il y a comme un „oui-non" qui scande le récit, ou plus exactement un alliage "sens-non-sens". Les éléments autobiographiques sont utilisés comme point de départ; puis l'écrivain les métamorphose par ses commentaires, de telle sorte qu'il leur attribue un relief qui les fait glisser du plan de la confidence au plan de l'oeuvre. Il y a dans cet ouvrage une multiplicité de points de vues volontairement focalisés sur le „presque-rien" qui selon les termes de Jankélévitch "entretient en nous cette espèce d'inconfort intellectuel", et qui se transforme en "presque-vrai(46) tant le "désir de choses inexistantes" est important. En un mot c'est un "presque-rien-qui-fait-tout." Par un système analogue, Gide montre dans *Les Faux-Monnayeurs* la valeur de la pièce fausse qui est presque vraie, à travers laquelle on VOIT, contrairement à la vraie qui est opaque.

D'autre part, les complexes infantiles dont Gide nous fait part dans *Si le Grain ne meurt* avec force détails, constituent les germes qui l'ont mené à ce qu'il est devenu; mettant l'hérédité, le déterminisme et le freudisme au service de sa cause, il explique son comportement adulte par les blocages de son enfance, et il sépare habilement les registres : le point de vue religieux, le point de vue social et le point de vue sexuel; ces trois registres condensent pour ainsi dire toutes les forces latentes du narrateur, forces qui ne sont pas toujours déchiffrables, car dans ces condensations il y a une extension sémantique considérable que certains commentateurs qualifient de "dilatation sémantique" ou "lieux de change". Nous avons donc affaire à un MOI qui résume l'ensemble des éléments et condense le commentaire en le réfléchissant sur le reste du récit. On peut dire que dans l'ensemble du récit, le Moi de l'écrivain représente le niveau du secret : il devient en quelque sorte l'espion qui observe, note inscrit, autrement dit il est le regard de l'écrivain devenu espion.

Cependant, c'est *Le Journal* de Gide qui reste le document de base qui retrace ses déplacements, ses méditations, ses exaltations; on retrouve face à face, Gide-homme et Gide-écrivain; "son *Journal*, écrivait à ce sujet un critique, fut l'instrument de sa vocation : il y a "redressé" sa vie selon un projet de création littéraire sincère qui n'était

(46) *Le Je-ne-sais-quoi et le Presque-rien*, T. III, Seuil, 1980, p. 56.

**VOYAGE RACONTE = VOYAGE VECU + LECTURES +
+ IMAGINATION**

Regardons de près les détails de chaque élément :

	EXPERIENCE PERSONNELLE	
VOYAGE VECU		AUTHENTIQUE
	EXPERIENCE D'AUTRUI	LIVRESQUE
	DOCUMENTATION DE BASE	
	LIVRES SACRÉS	
LECTURES	AUTEURS FRANÇAIS	
		ORIENTAUX
	AUTEURS ETRANGERS	
		OCCIDENTAUX
		EVASION ARTISTIQUE
		(ESTHETIQUE)
	INVENTION-TRANSITION VOLONTAIRE	
IMAGINATION		
		EVASION MYSTIQUE
	DEFORMATION	
		INVOLONTAIRE

De l'ensemble de ces combinaisons résulte le **VOYAGE RACONTE**, document humain vraisemblable mais non authentifiable dans son intégrité.

Dans *Si le Grain ne meurt*, Gide raconte l'éveil de sa sensualité et cherche à nous convaincre que son évolution reste conforme à la logique interne du développement de sa personnalité. Les explications

On peut constater que l'ouverture du vécu sur le récit passe par le réel; elle a la plus grande part. Celle des lectures passe par le document et a une moindre part. Enfin l'imagination a la plus petite part malgré son importance réelle ce qui lui attribue un visage virtuel dans le récit.

Pour Gide, "l'imagination précède rarement l'idée"; faisant remarquer que "l'idée de l'oeuvre, c'est sa composition", il conclut : Pour moi, l'idée d'une oeuvre précède souvent de plusieurs années son *Imagination*" (46).

Dans ces conditions, quel est l'itinéraire qui conduit Gide du document humain, autrement dit le voyage vécu, au document romanesque, autrement dit le voyage raconté ?

Au moment de l'élaboration de ses récits, Gide cherche incontestablement à reconstituer un passé et à en analyser les impressions. Il commence par avoir recours à sa mémoire; cependant cette dernière le trahit, vu le décalage qui existe entre le moment vécu et le moment de la rédaction : l'écrivain étoffe donc son récit par le concours de son imagination selon le procédé suivant : partant de l'expérience personnelle, il ajoute l'expérience d'autrui qui présente un caractère ambivalent :

- L'expérience authentique, vécue par une personne réelle,
- Et l'expérience documentaire, vécue par un personnage fictif, à cheval sur le réel et l'imaginaire.

L'imagination revêt dans ces conditions un double aspect :

- L'invention-transition dont le but est d'harmoniser le texte en comblant les défaillances de la mémoire, ces "vides" de la pensée que Freud compare à la censure dans les rêves,
- Et la déformation du souvenir, laquelle peut être soit VOLONTAIRE, et là l'écrivain omet délibérément certains détails par crainte du scandale ou simplement par pudeur en fonction de l'image qu'il souhaite forger de lui-même; et soit INVOLONTAIRE, quand l'écrivain croit raconter une vérité vécue.

Nous nous trouvons devant la formule suivante :

(46) Souligné par l'auteur. *Journal*, „Feuilletts", p. 49.

son fur intérieur, et manifestant sa présence par de fréquentes incursions dans ses récits, Gide a la secret de conférer un sens universel à la plus modeste de ses aventures personnelles. Si sa littérature des voyages offre un mélange de réalités et d'aspirations intimes, il est difficile d'établir le compte exact de ce que cette littérature doit au réel et à l'imaginaire, tant l'écrivain réussit à pratiquer une fusion totale entre son MOI et les éléments. Chaque univers qu'il découvre se présente à ses yeux comme un tout harmonieux, et chaque détail devient la composante d'une synthèse, et non point un élément perçu dans sa singularité.

L'élaboration des récits de voyages de Gide, se fonde donc sur plusieurs piliers :

- Le voyage vécu,
- Les lectures,
- L'imaginatif.

La fusion habile de ces trois facteurs donne naissance à une mosaïque parfaitement homogène.

La schématisation de cette technique nous permet de mieux saisir l'imbriication des composantes du récit :

lui part du JE, mais un JE à portée universelle, comme par exemple dans *Les Nourritures Terrestres*, quand il décrit le milieu des courtisanes qu'il fréquentait à Biskra en ces termes : "on entraînait dans son étroit appartement; on buvait du café dans de petites tasses; puis on forniquait sur des espèces de divans bas" (44); ses ON, se substituent sans aucun doute au JE d'autant plus qu'un peu plus loin l'écrivain se trahira par des aveux directs. Autrement dit, tout ce que Gide peut faire constater de l'homme, il le fait à travers son MOI. C'est là une sorte de psychologie IN VIVO où le centrage narratif va du particulier au général et vice versa. Le JE d'autrui lui permet de donner le change, et il l'avoue sans ambages :

"Le triomphe de l'objectivité, c'est de permettre au romancier d'emprunter le "je" d'autrui. J'ai donné le change pour avoir trop bien réussi; certains ont pris chacun de mes livres pour des confessions successives" (45).

En dépit de cette "fausse confiance", on peut soutenir que Gide parle de lui-même par le truchement de ses créatures.

Par ailleurs, c'est par l'art que Gide accomplit un tour de force en maîtrisant parfaitement son récit : la narration traite à la fois du réel et du fictif, si bien que sous sa plume "la réalité devient une relation". Son MOI se situe au centre du récit tout en reliant les autres personnages et les événements entre eux : il s'agit d'une forme de centrage où les "possibles narratifs abondent; autrement dit, Gide introduit des éléments qui à l'intérieur du récit suggèrent des variantes selon les quelles la narration n'est pas exactement conforme à la réalité, mais elle répond à un schéma du genre "cela aurait pu se passer autrement"; et pourtant, l'on perçoit toute la puissance prospective du récit, même si les possibilités sont fictives, puisque reposant le plus souvent sur un contre-poids théorique.

Son aptitude à l'introspection le pousse à proscrire parfois toute considération d'ordre politique, au profit de l'analyse de son drame intérieur; incapable de se détacher de lui-même, ni ne se transcender, il verse dans son récit l'essence de sa pensée. Tournant son regard vers

(44) Pléiade, p. 231.

(45) *Journal*, le 29 mai 1923.

relatives à la sensualité, d'où la focalisation insistante sur le MOI qui en découle.

Quand, sept ans plus tard, Gide retourne en Egypte il écrira à propos du Temple d'Abou Simbel "RIEN à en dire que du déjà dit; exempté de condensations, l'écriture focalise ici les impressions dans le mot-centre : RIEN; en effet, édénique en 1939¹, l'Egypte est devenue terne en 1946 parce qu'aucune aventure n'est venue féconder la vie de l'écrivain.

Vers la fin de sa vie, Gide se rend successivement à Tunis, Alger, Fès, resillonne le sud-algérien, puis Beyrouth. Il projetait de se rendre à Marrakech quand la mort l'a frappé.

En dépit de ce nomadisme peu commun, et non content d'avoir parcouru tant le monde, Gide déplore dans son *Journal* de n'être pas allé au bout du monde; il se reproche de n'avoir pas poussé plus loin son itinéraire : "il ne tenait qu' à moi de voyager en Chine, note-t-il, qu' à moi de ne point retourner constamment aux mêmes endroits, de m'envelopper de paysages et de circonstances qui n'avaient plus rien à m'apprendre, par paresse, par veulerie".

"Paresse", "veulerie", dans le domaine de la connaissance, sans doute. Mais en est-il de même dans celui de la création littéraire ou même dans les procédés nouveaux dont il use pour styliser en quelque sorte l'écriture qui fixera à jamais ses itinéraires ?

REFLEXIVITE DE L'ECRITURE :

Définissant la technique de l'énonciation narrative ainsi que le statut du narrateur dans le récit, Genette prouve "tout événement raconté par un récit est à un niveau diégétique immédiatement supérieur à celui où se situe l'acte narratif de ce récit" (43). De ce fait, c'est la profération du JE, qu'il soit explicite ou implicite, qui devient constitutive du récit. La relation du narrateur avec le récit dépend de sa présence (ou de son absence) dans l'écriture, autrement dit s'il est représenté en tant que narrateur ou en tant que personnage. C'est là précisément l'une des caractéristiques de l'écriture de Gide dans ses récits. Tout chez

(43) "Discours du récit. Essai de méthode", in *Figures III*, Seuil, 1972.

Première condensation :

	JEUNE
	MUSCLE
LE CORPS	SOUPLE
	ELASTIQUE
	DUR

Deuxième condensation :

	IMBERBE
	LES JOUES PLEINES
LE VISAGE	LES LEVRES EPAISSES
	LES DENTS BLANCHES

Troisième condensation :

	TENDRE
LE REGARD	CALIN
	GOUAILLEUR

Du CORPS (cinq images), on converge vers LE VISAGE (quatre images), puis vers LE REGARD (trois images), mais aucune focalisation n'aura lieu.

Installé dans les jardins du Winter Palace à Louxor, Gide surveille les jeunes jardiniers; le cadre lui apparaît favorable dès qu'il lui semble qu'une multitude de jeunes aide-jardiniers s'intéressent à lui; "je ne puis douter que les Ali ne soient très nombreux", note-t-il dans ses *Carnets d'Egypte*; son imagination aidant, il crée artificieusement tout un monde de commodités dans lequel il puise des charmes; de ce fait le "voyage manqué" se transforme en "séjour paradisiaque"; cependant, dans son récit de ce voyage, il néglige de décrire les monuments pharaoniques et ne signale que par de brèves annotations son passage à Alexandrie, Le Caire, Karnak, Thèbes, La Vallée des Rois, Médinet Habou, Nag Hamadi, Abydos, Dendera, La Vallée des Singes, Edfou et Rosette. Tout le pittoresque de la vieille civilisation égyptienne est absent de ses *Carnets d'Egypte*; tout, sauf ce qui se rapporte à ses aventures personnelles; ses notes hâtives, dictées par les impressions immédiates, sont augmentées de récits et de souvenirs quand elles sont uniquement

gérées, aussi fustigea-t-il le dirigisme et l'appareil administratif de l'URSS. Un an après ce voyage lors duquel il a eu "moralement si chaud et si froid", il rédige un tract politique intitulé *Retouches à mon Retour de l'URSS*, où il fournit des statistiques puisées chez les Trotskyistes (41).

Dans les récits de ce voyage, on trouve un cas de focalisation négative qui s'annonce par l'expression : "l'inespéré pouvait éclore"; car, comme pour la Turquie, mais pour des raisons différentes, il n'y a pas eu éclosion. Le verbe "pouvait" accorde une valeur destructive à tout phénomène de condensation, et si Gide a eu "moralement si chaud et si froid", c'est qu'une composante idéologique de première importance a fait défaut, à savoir "la confiance". Or, cette notion qui s'appuie essentiellement sur une idéologie de la liberté, ne peut tolérer une telle fêlure : c'est du moins ce qui résulte de l'écriture qui dans ce cas précis, assume la déception, ou plus exactement la "subsume" selon le terme de Ricardou.

En 1939, c'est L'EGYPTE qui tente Gide. Une fois de plus à la recherche de ses premières extases nord-africaines, il est déçu, du moins au début de son voyage : ses premières impressions sont empreintes d'hostilité : "entre ce peuple et moi, note-t-il dans ses *Carnets d'Egypte*, pas de relation possible". Il quête en vain dans les rues du Caire "un beau visage qui transformerait son enfer en paradis", ce n'est qu'à Louxor qu'il trouve ce qu'il attend; et dans le portrait qu'il fait de son ami, le jeune Ali, nous serons frappés par un triple phénomène de condensations réflexives qui n'aboutissent à aucune focalisation; ce qu'il note :

„Pas un défaut dans ce corps tout jeune encore
et déjà musclé comme celui d'un athlète, souple,
élastique et dur; dans ce visage encore imberbe,
aux joues pleines, aux lèvres épaisses que le sourire
soulève sur les dents de blancheur éclatante, aux
regards tendres, calins et gouailleurs"(42).

(41) Dans un récent ouvrage, *Rive Gauche*, par Herbert Lottman, Seuil, 1981, on peut lire en détails toute cette querelle qui opposa Gide aux communistes à cause de cette publication; le moins qu'on puisse dire, c'est qu'elle valait la chute de *Vendredi*, dirigée alors par Guicheno et Chamson.

(42) Le 13 mars 1939.

Cette condamnation sans appel de la Turquie, ce réquisitoire virulent, ce tableau noir à souhait, traduisent peut-être la déception de Gide, de n'avoir pu rencontrer en Turquie un terrain favorable à ses amours, ni un peuple complaisant pour ses penchants.

En 1923 Gide accepte une invitation de Lyautey et se rend au Maroc en compagnie de Paul Desjardins. Au bout d'un mois il se rend à Tunis; puis après un va et vient continu entre Cuverville et Tunis, animé de sa passion du "dénouement" et de la "disponibilité", il repart, cette fois, pour l'Afrique en compagnie de Marc Allégret; pendant plusieurs années il parcourt ce continent chargé par la Commission d'enquête au Ministère des colonies, de préparer un rapport concernant l'emploi et la main d'oeuvre indigène en A.O.F., il se rend à Madère, à Dakar, à Kaolah, à Bafoulabé, à Kita, à Bamako, à Siguiri, à Kankan et à Dalaba.

En 1928 il passe le mois de juillet à Hammamet, puis à Tunis, et l'année suivante il retourne passer l'hiver en Algérie, puis en Tunisie où il pilote Elisabeth Van Rysselberghe dans les oasis du sud-tunisien. Après quoi, il vogue vers Tanger, puis Fès, visite l'oasis de Chor avant de se rendre à Saint-Louis.

En 1936 il est invité en URSS; en compagnie de plusieurs amis (38), il part découvrir un monde "où l'inspéré POUVAIT éclore", et il y est chaleureusement accueilli (39); mais il est rapidement déçu quand on lui fait visiter les usines et les organismes collectifs attachés aux unités industrielles et aux Kolkhoses (40); il trouva ces organisations bien mal

(37) *Ibid.*, p. 416.

(38) Notamment Jacques Schiffrin (le fondateur de la collection La Pléiade), Eugène Dabit et Louis Guilloux.

(39) Il fut accueilli par des banderoles de bienvenue mais il racontera par la suite à Ghamson et Guéhenno qu'il avait su que ces banderoles avaient voyagé avec lui par le même train.

(40) Il visita, également les parcs de culture et les garderies d'enfants, de même que l'Université de Moscou où se tenait une exposition consacrée à sa vie et à son oeuvre; là il avait rencontré Aragon à qui il avait dit : "Ah : que je voudrais pouvoir dire à Staline tout ce que je pense : "

tions ont laissée"(34). De plus, leurs costumes, sont "tout ce qu'on peut imaginer de plus laid", puis il ajoute : "et la race, vraiment le mérite", car dans cette "hideuse Anatolie", qui lui répugne, "l'humanité est non point fruste, mais abîmée"; il multiplie les termes péjoratifs : le peuple turc est "hybride", "informe", disgracieux", et "vulgaire"; de surcroît, il n'a même pas été capable de se créer "une civilisation originale". On peut expliquer cette partialité par le fait que, sa première vision de l'Afrique du Nord reste peut-être son prototype du décor oriental; il a sans doute recherché en Turquie ses extases africaines, mais la "désolation des paysages" et les "hideux visages" des habitants le laissent indifférent; même si, à la rigueur, Koniah est "quelque chose comme un Kairouan Turc", elle ne peut supporter la comparaison avec Kairouan, et encore moins avec Biskra; c'est du moins ce qui ressort de ses propos :

"Koniah, par sa position par rapport à la montagne voisine et à la plaine, rappelle irrésistiblement Biskra. Mais combien ces montagnes sont moins belles, et de couleurs et de formes, que les monts de l'Ahmar Khadou; combien moins belle que le désert, cette plaine; moins beaux ces arbres que les palmiers, que les Arabes ces Turcs" (35).

Plus loin il oppose la couleur locale nord-africaine à l'"exotisme hideux" de la Turquie et s'exclame : Fallait-il venir ici pour savoir combien ce que je vis en Afrique était pur et particulier : Ici tout est sali, gauchi, terni, adultéré"(36) puis il tire cette conclusion :

"L'instruction même que je tire de ce voyage est en proportion de mon dégoût pour ce pays"(37).

"Sali, gauchi, terni, adultéré", quatre mots qui focalisent la pensée tant par le signifiant que par le signifié; la technique de condensation réflexive présente ici une double valeur et aboutit à un centrage narratif d'une valeur négative, qui sera focalisé vers un mot-centre: DEGOUT. Voici comment on peut schématiser ce cas :

(34) *Ibid*, p. 401.

(35) *La Marche Turquie*, p. 411.

(36) *Ibid.*, p. 411.

La focalisation se situe dans le mot JOIE; dans ce cas précis, il n'y a eu aucune condensation réflexive : partant des verbes d'action qu'implique le mot TANTOT, un phénomène de centrage narratif opère sur les actions pour les centrer sur un état affectif, à savoir "la joie", comme suit :

ASSIS

MARCHANT

TANTOT

JOIE

FAISANT DES VERS

PENSANT A VIRGILE

Les impressions recueillies en Italie sont ainsi privilégiées grâce à différentes nuances stylistiques qui gravitent autour d'un mot-centre qu'elles se chargent, en fait, d'illustrer.

Deux ans plus tard, c'est la TURQUIE qui attire l'écrivain; en compagnie d'Henri Ghéon, il passe les mois d'avril et de mai à parcourir tour à tour Constantinople, Brousse (31) Nicée, Kara-Hissar, Koniah et Oucchak. Il note minutieusement ses impressions dans un carnet : il n'a pas beaucoup apprécié ce pays et il ne s'en cache pas (32); il le dit dans *La Marche Turque* :

"O Come d'or, Bosphore, rive de Scutari, cyprès
d'Eyoub : Au plus beau paysage du monde je ne saurais
prêter mon cœur, si je n'y puis aimer le peuple
qui l'habite" (33).

Les mots "laid" et "hideux" reviennent constamment sous sa plume comme un leitmotiv : "le peuple est laid, c'est l'écume que les civilisa-

(31) C'est la seule ville en Turquie dont il dira du bien dans son *Journal*, quand, en date du 9 mai 1914 il écrit : "cette petite ville est d'un charme, d'une beauté très mystérieusement captivante".

(32) On peut consulter le manuscrit de ces notes à la Bibliothèque Doucet. Il est significatif de souligner l'importance des termes péjoratifs biffés ou rectifiés.

(33) *Pléiade*, p. 400.

Dans ces conditions, tout récit de voyage fait par Gide peut être considéré comme un mirage de son propre inconscient. A bien lire entre les lignes, on serait également tenté de croire que, tout comme Bandelaire, Gide considère le voyage comme une nostalgie sensuelle qui aboutit à la création d'une oeuvre de beauté. Dans ce cas, son récit devient freudien, et traduit la sublimation de ses instincts par le truchement de la création artistique; il s'agit peut-être d'une sorte d'euphorie mentale libérée par l'écriture en tant que témoignage d'une introspection méthodique de son MOI.

III — UN DEMI-SIECLE DE NOMADISME :

Malgré leur multiplicité, les autres voyages d'André Gide n'occupent pas dans l'oeuvre la place privilégiée tenue par l'Afrique du Nord. De ce fait, nous ne nous arrêtons qu'aux étapes dont le récit illustre la technique de l'écriture qui intéresse cette étude.

Pendant quelques années, l'écrivain sillonne la France et rédige son *Journal*; mais ce qu'il appelle son "quasi-sédentarisme" le lasse, et en 1912 il part pour L'ITALIE; il se proposait initialement d'aller à Tunis puis à Alger, rejoindre André-Benjamin Constant, mais c'est Florence qu'il choisit comme destination, précisant dans son *Journal* :

"Je n'ai pas été à Tunis. Par crainte de mauvais temps et par impatience, je lâche la Tunisie et file sur Florence" (29).

Pourquoi donc ce revirement subit ? Pourquoi n'a-t-il pas craint jusque là le mauvais temps lors de ses périples africains ?

Enfin pourquoi "par impatience" et que s'est-il passé entre le 2 et le 4 mars, qui l'a contraint à changer de projet ? On sait simplement, par une lettre à sa mère, qu'il savoure tous les instants :

"J'ai passé tout le jour dans les jardins suspendus du Pincio, tantôt assis, tantôt marchant, faisant des vers ou pensant à Virgile, me laissant aller à la joie" (30).

(29) Le 8 mai 1912, p 378.

(30) Datée du 12 mai 1912.

éprouvés (jusque là) ", "ici, la volupté suit de près le désir" "de nouvelles sensations s'émouvaient" etc.

- Ces impressions seront soumises à un phénomène de focalisation par l'écriture, toujours selon ses propres termes; ainsi quand il écrit : "il me semblait que le paysage n'était plus qu'une émanation de moi-même projeté, qu'une partie de moi toute vibrante-ou plutôt comme je ne me sentais qu'en lui, je m'en croyais le centre", La focalisation résulte d'un double phénomène :

1 — D'abord un phénomène de condensations réflexives qui convergent vers le MOI : cette première focalisation reflète l'image du MOI en quatre réflexions, toutes variantes l'une de l'autre.

2 — C'est alors qu'un phénomène de centrage narratif intervient: la deuxième focalisation opère un véritable "centrage" et le MOI devient le MOT-CENTRE par excellence.

Voici comment on peut schématiser cette technique :

d'accueillir la volupté comme une ivresse délirante; peut-être cherche-t-il à justifier ses propres nourritures terrestres par un mysticisme coranique; aussi rêve-t-il d'un Eden qui ne reconnaît aucune loi morale, comme une sorte d'enchantement édénique caractéristique du premier homme. Et c'est précisément à Biskra qu'il croit retrouver cet Eden, ce qui justifie ses nombreux voyages dans cette oasis.

Par ailleurs, Gide s'est également intéressé à la littérature orientale; mal assimilée, elle devient schématique sous sa plume. Si l'Orient lui fournit les matériaux indispensables aux conceptions artistiques nouvelles dont il est avide, l'exotisme lui apparaît comme un élément chargé de sens poétique d'une fécondité inépuisable. C'est là une source d'émotions esthétiques et morales qui forment l'essence de ses récits.

Sans aucun doute, l'Afrique est devenue inséparable de Gide; elle est devenue le reflet de sa destinée, le miroir de ses aventures, de ses échecs. Enfoncé au plus profond de son être, ce continent devient l'indice révélateur de son oeuvre(28). On est même frappé par l'aptitude de l'écrivain à fixer d'une manière aussi véridique une superposition d'impressions qui s'agglomèrent en une véritable "condensation" de moments privilégiés. Et la partie de l'oeuvre relative à la décennie africaine, nous permet de mesurer l'importance de cette période, disons-le, d'une portée pragmatique pour l'écrivain, et nous aide à saisir les émotions qui jalonnent son itinéraire, ce qui confère aux voyages gidiens une valeur objective.

En recensant ses propres expressions, on peut cerner sa technique:

- Partant de ses propres termes "charme et attrait de l'ailleurs", nous aboutissons à un faisceau d'impressions qui se traduit par des mots ou expressions qui reviennent constamment sous sa plume: il en est ainsi des mots "transporté", "ivresse", "extase", "paradisique", "féerique", etc., et des expressions "ardentes surprises des oasis", "musique merveilleuse", les parfums non

(28). Et pourtant, il serait important de préciser que les habitants de l'Orient n'ont pas beaucoup bénéficié de la sympathie de Gide, car en fin de compte, partout dans son oeuvre, il ne leur attribue que des caractères généraux et relativement conventionnels.

Aspirant probablement à fuir la monotonie de Cuverville, peut-être cherche-t-il inconsciemment à fuir son MOI en revendiquant le statut légitime d'étranger, puisque cette part de son être, encore erratique et non assimilée, peut le mettre sur la voie de l'identification personnelle.

D'autre part, l'exotisme de Gide s'attache de préférence à la peinture du pittoresque. Il décrit, à titre d'exemple dans *Le Voyage d'Urien*, avec beaucoup de perspicacité les danses des derviches tourneurs-hurlers, et nous invite à revivre toutes les sensations ressenties par lui. Et tout au long de ses innombrables périples en Afrique, il semble chercher essentiellement la couleur locale dans le grouillement des foules : c'est l'islam qui prédomine dans ses récits sous la forme de descriptions de mosquées, de minarets, de moeurs et coutumes islamiques. Tout paysage parcouru par lui est placé sous le signe de l'Islam; toutes les villes orientales deviennent sous sa plume "couleur d'aurore et musulmane, aux minarets fantasques dressés"; il contemple, ému, ces minarets d'où s'échappent les chants des muezzins, et note, dans *Le Voyage d'Urien* :

"Cette musique était si merveilleuse, que nous en étions demeurés immobiles, en extase" (26).

Mais, cet enchantement féerique s'évanouit dès que se fait la voix du muezzin.

Sa compréhension erronée de l'islam est-elle responsable de ses débordements sensuels(27) ? Sans aucun doute, cela aboutit dans son esprit à un phénomène de palinodésie, qui va laisser des répercussions profondes dans son oeuvre. Car Gide place *Les Nourritures Terrestres* sous l'égide de l'islam. Il y prétend que l'éthique musulmane permet

(26) La Pléiade p. 22 Certes, Gide songe à toutes les villes d'Orient, plus précisément celles que l'on peut considérer comme un centre de civilisation islamique; non content de les décrire, il les relie toujours à une sensation; ici, c'est la sensation auditive qui prédomine

(27) Notons que c'est ce contact avec l'Orient qui lui permet de mieux définir son attitude face au puritanisme, ce qui dans un certain sens, justifie l'expérience de sa maladie et plus spécialement de ses tendances homosexuelles.

ce qui l'a fait vibrer; beaucoup plus tard, avec un certain recul, il va élaguer, ajouter, rectifier, en un mot transposer ses moments vécus dans ses différents récits.

On s'en rend bien compte, la terre africaine n'a pas été pour Gide un simple cadre; il ne l'a pas simplement regardée en voyageur; il en a plutôt mêlé les paysages aux états changeants de son âme.

II — EXOTISME ET EXODISME :

En Afrique du Nord, Gide croit trouver dans la terre étrangère des échos mystérieux qui transportent son âme; sa sensualité jusque là contenue éclate et il accepte tout ce qu'elle lui offre. Il se mêle aux couches les plus variées de la société et accueille indistinctement toutes les nouveautés en les exaltant. Contrairement aux romanciers voyageurs pour qui l'exotisme se fonde généralement sur les descriptions exactes, Gide inaugure un exotisme personnel; car sa conscience ouverte aux spectacles exotiques se transforme en théâtre impressionniste où se jouent ses passions.

Même la recherche de l'ailleurs se place sous le signe de l'exotisme, c'est du moins ce qu'il note dans son

Journal :

"Ce qui fait le charme et l'attrait de l'Ailleurs, de ce que nous appelons l'exotisme, ce n'est point tant que la nature y soit plus belle, mais que tout nous y paraît neuf, nous surprend et se présente à notre œil dans une sorte de virginité. Ce ne sont point tant "les fleurs plus larges", que "les parfums éprouvés"(24)".

La recherche de l'exotisme se transforme chez lui en une découverte d'un monde étrange. Il écrit à ce sujet dans

Si le Grain ne meurt :

"Je ne puis mieux comparer l'exotisme qu'à la reine de Saba qui vint auprès de Salomon pour lui proposer des énigmes"(25).

(24) Le 27 août 1935, p. 1236.

(25) *Op. cit.*, p. 60.

légitime. Une vraie lutte s'engage entre exigence de liberté et besoin d'ordre; cette crise marque l'une des périodes les plus exaltantes de sa vie, et sera soigneusement consignée dans son oeuvre (22).

4 — En avril 1899, Gide séjourne un mois à El Kantara; dans *Si le Grain ne meurt*, il nous renseigne sur ses moindres occupations et tient une chronique ininterrompue de sa vie intérieure. Il y crée en quelque sorte une atmosphère dans laquelle il berce ses illusions; constant à sa méthode, il essaie de reconstruire l'univers exotique qu'il sillonne, avec les fibres ténues de sa personnalité.

5 — En décembre 1900, le cinquième voyage de Gide en Afrique le conduit dans le secteur Biskra-Touggourt. C'est là également son cinquième voyage à Biskra; incontestablement cette oasis est pour lui un havre de paix et une source de plaisirs; il traduira par la suite cet enchantement né du choc de la rencontre d'une âme et d'une terre, autrement dit du spirituel et du matériel(23); non content de décrire l'aspect extérieur du décor, il tente de pénétrer plus au fond des choses, persuadé que l'autochtone dont il visite la chaumière ou la tente est une source de connaissances par sa manière de vivre, son mode d'existence, ses idées, sa religion et son éthique. Par l'écriture, Gide métamorphose toutes ces sensations en oeuvre d'art et réussit à transformer ses pérégrinations en voyages artistiques.

6 — Enfin pendant l'automne de 1903, Gide cherche à secouer "la torpeur qui l'envahit depuis quelques temps", et entreprend un sixième voyage en Afrique du Nord. Il parcourt l'Algérie, et une fois de plus l'oasis de Biskra s'inscrit dans son itinéraire. Il note minutieusement ses impressions et prépare les feuilles de son *Journal*; il rédige tous les soirs ses commentaires au sujet de ce qui l'a frappé, ce qui l'a ébloui,

(22) On trouve également des échos de cette crise dans les fragments de *Feuilles de route*, ouvrage non publié dans son intégrité; quelques fragments furent publiés par Jean Delay dans le *Journal d'Andre Gide*, Gallimard, 1956-57, T. II, le 1er janvier, p. 574. Le manuscrit intégral se trouve à la Bibliothèque Doucet.

(23) dans sa confession tardive *ET NUNC MANET IN TE*, Gide consacre plusieurs pages à Biskra.

vingt trois ans, rester puceau, je répondrai que je raconte ici mon histoire et non la sienne et qu'un tel cas est du reste beaucoup plus fréquent qu'on ne croit"(20).

2 — En février 1894, Gide parcourt successivement la Tunisie, Alger, Blida, revient à Biskra où il rencontre Oscar Wilde et Lord Alfred Douglas; une fois de plus, ce séjour est pour lui "paradisique" et il en revient guéri, libéré des interdits physiques et moraux, enfin révélé à lui-même par ce qu'il appelle "les ardentes surprises des oasis" il croit avoir trouvé sa voie; l'échec de son expérience physique avec Mérimé le fixe quant à ses tendances; il en raconte les détails dans *Si le Grain ne meurt*, analysant également l'exaltation née de sa rencontre avec le jeune Ali, son guide.

Imbu de l'effroi du péché, de retour en France, il se marie avec Madeleine Rondeaux le 8 octobre 1895 dans le petit temple d'Etretat; partageant son illusion, Madeleine venait d'accepter la gâchette d'un mariage blanc.

3 — En février 1896, les jeunes mariés partent en voyage de nocces pour l'Afrique du Nord(21). C'est alors que la contradiction éclate entre les deux exigences que Gide porte en lui : d'une part il ne peut contenir cette "part de son être", qui tend à goûter à tous les désirs, à commencer par "le plus inavouable aux yeux de l'humanité"; d'autre part, sa mauvaise conscience vis à vis de sa femme qu'il entraîne sur les lieux mêmes de sa révélation africaine, le tourmente. Ce déchirement provoqué en lui par l'anarchie, pour ainsi dire, des impressions sensibles, est doublé d'une tentative de domination de soi; ajoutons à cela le muet reproche de la société, et le contrôle de sa conscience puritaine, tout cela contribue à créer en lui "l'immoraliste" à la recherche de son équilibre dans un étrange compromis : réserver au mariage "le pur commerce des âmes", tout en accordant aux autres plaisirs une place

(20) P. 85.

(21) Ils y séjournent deux mois successivement à Tunis, Biskra, El Kantara. Touggourt, N'Reyer, Biskra à nouveau, et enfin ils referment la boucle à Tunis.

Un aperçu succinct des six voyages en Afrique du Nord(16) nous permettra de souligner la technique de focalisation qui en caractérise les récits. Car, cet enseignement, sera suggéré par la technique narrative utilisée dans les récits de voyage.

1 — LA DECADE AFRICAINE :

Dosant minutieusement exotisme et introspection, Gide s'assimile l'univers exotique qu'il parcourt, et le transforme en une œuvre strictement personnelle; ces deux entités, font des récits de voyages de l'écrivain un témoignage incontestable d'un document humain où l'univers extérieur se réduit à l'échelle ontologique.

En suivant les traces de Gide tout au long des six voyages en Afrique du Nord, nous pouvons mesurer toute l'intensité de cet appel intérieur qui s'impose à lui et qui lui intume l'ordre impératif de la recherche de l'ailleurs.

1 — Fin octobre 1893, Gide part pour Biskra et y séjourne jusqu' à fin janvier 1894(17); il y était arrivé malade, et croyait sa vie menacée, mais il y trouva ce qu'il appellera son "salut"(18). En effet, il explique dans *Si le grain ne meurt* quelles étaient ses résolutions :

"Paul(19) et moi, nous étions résolus, quand nous partîmes ... Et si l'on me demande, comment Paul, élevé moralement sans doute, (...), avait pu, passé

(16) En réalité, son choix de l'Afrique n'est pas fortuit; Gide avait reçu deux invitations : la première, de son cousin George Pouchet qui lui proposait une croisière scientifique en Islande; la seconde, d'un ami, Paul Albert Laurens, qui l'invitait à un voyage artistique en Afrique. Après de longues hésitations, Gide opte pour la deuxième invitation, et c'est ainsi qu'en octobre 1893, il s'embarque pour l'Afrique, accompagné de Paul Albert Laurens. Peut-on imaginer ce qu'il serait advenu de Gide s'il avait plutôt opté pour le voyage en Islande ?

(17) Il apprécie tant cette ville qu'il y retourne presque une dizaine de fois.

(18) "La terre parle ici une langue différente", écrit-il dans ses "Feuilles de route", *Amjntas*.

(19) Il s'agit de Paul Albert Laurens.

Journal, qu'Alexandre avance sur les terres nouvelles; il cherche les limites du monde" (13).

Réfractaire à toute "stagnation paludéenne" il ne s'attarde nulle part, sa Soif d'exotisme tourne à "l'exodisme" pour ainsi dire, ou encore à la "dromomanie" selon l'expression d'Emond Jaloux cherchant à qualifier le prurit qui tourmente son ami.

Il suffit de lire le *Journal* de Gide pour toucher du doigt les témoignages surprenants de son nomadisme; on peut grouper ses voyages en deux périodes : d'abord ce qu'on est convenu d'appeler "la décade africaine", allant de 1893 à 1903, période pendant laquelle Gide effectue six voyages en Afrique; ensuite la période qui s'étend de 1903 à 1951, pendant laquelle Gide visite successivement l'Italie, la Turquie, le Maroc, la Tunisie, le Congo, le Tchad, l'Algérie, Saint Louis, l'URSS, l'AOF, l'Egypte, la Grèce, etc.; il retourne dans certains de ces pays deux ou trois reprises, et plus particulièrement il parcourt cette période de nouvelles incursions en Afrique du Nord. Car, c'est surtout la terre africaine qui le fascine(14): aussi, séduit par le primitivisme des caractères et des moeurs des Africains, tente-t-il d'en épuiser toutes les virtualités.

Par ailleurs, il note dans son *Journal* :

"Ne vaut vraiment, en littérature, que ce que nous enseigne la vie."(15).

(13) *Journal* daté "Mardi soir". mais que l'on peut situer entre le 19 et le 27 janvier 1912 et plus précisément le mardi 24 janvier si l'on tient compte des dates et précisions intermédiaires.

(14) Dès son premier contact avec l'Afrique du Nord, il écrit à sa mère, de Tunis, le 27 octobre 1893 : „C'est un flot entraînant d'émotions trop neuves; on est entraîné, on s'abandonne; il n'en reste peut-être rien, mais l'on en sort changé, et ce changement seul importe".

(15) Le 4 novembre 1927, *Pléiade*, p. 859.

Aventurier audacieux et optimiste, Gide cherche à s'intégrer dans la vie, toujours à la poursuite de son MOI; et s'il participe aux fameux "Entretiens de Pontigny", c'est aussi bien dans ce but que dans celui de contribuer à une tentative de coopération intellectuelle internationale (11). Un critique va jusqu'à avancer l'hypothèse que "c'est par un creusement de son individualité particulière que Gide entendra rejoindre la généralité des individus"(12).

Désireux d'accomplir son destin Gide n'a d'autres frontières que celles du vaste univers; les voyages deviennent pour lui une véritable quête, voire une enquête, en même temps qu'une immersion à travers le temps et l'espace; le cosmos reste pour lui une entité des plus sûres.

"Je crois que voyager est un art, et que ça peut devenir intéressant" écrit-il à Paul Valéry; il avait, en effet, la conviction profonde que dans les domaines de l'art et de la pensée pure, les frontières nationales n'existent pas.

Si l'on partait du principe que le voyage pourrait également représenter la descente aux origines, c'est à dire dans l'inconscient, on pourrait considérer le voyage comme l'expression d'un besoin de justification; reste à savoir si Gide aspire à une auto-défense ou à une autopunition : C'est là l'ambivalence que l'écriture tend à mettre en évidence dans ses récits de voyage.

EXODISME ET DROMOMANIE :

Alimenté par une profonde sensibilité religieuse et amoureuse, l'esprit gidien étend ses horizons à l'infini. Il ne finit pas de surprendre, voire de déconcerter son entourage par ses déplacements subits et audacieux;" c'est en conquérant, non en voyageur, écrit-il dans son

(11) En 1910 Paul Desjardin institua des réunions régulières dans une abbaye cistercienne désaffectée où il invitait différentes personnalités se rattachant au monde littéraire et politique, dans le but d'échanger idées et informations. A partir de 1926 Gide va participer à la plupart de ces réunions: c'est lui qui invitera notamment Valéry et Rilke à y assister.

(12) Daniel Moutote, *op. cit.*, p. 47,

écrit tout un livre d'une folie méditée, pour exalter
la beauté du voyage."(5)

Préconisant le voyage, il prêche la "voluptueuse Afrique", terre
lumineuse et prometteuse; rompant avec la morale traditionnelle, il
s'efforce d'entraîner ses amis vers des aventures africaines(6), et regrette
de constater que le Français est rebelle à toute révision des préventions
qu'il professe à l'égard des mœurs étrangères; "les Français, note-t-il,
le 7 mars dans son *Journal*, vont régulièrement à des paradeurs à côté,
qui font grand train et n'attirent que des touristes"(7).

D'autre part, il se fait un devoir de se situer en intermédiaire
bénévole, et s'efforce même de faciliter à ceux qui veulent le suivre l'accès
aux "rues saintes" qu'il connaît pour y avoir noué de nombreuses et
solides relations; il constitue en quelque sorte une cellule de contact
pour ses amis(8) qui s'adressent désormais à lui quand ils souhaitent
connaître les "vertus" de la terre africaine. Et l'on peut soutenir que
nombreux sont les hommes de lettres qui se sont laissés convaincre par
lui(9); de même, toute une lignée d'artistes voyageurs le suivront à leur
tour(10).

(5) 9ème édition, 1923, p. 51. Par ailleurs, il écrit à Paul Valéry,
le 15 décembre 1895 : " Moi je commence à tenter de débaucher la
jeunesse en lui prêchant le remède."

(6) Plus particulièrement on peut citer les noms de Lord Douglas
et de Pierre Louys, comme en témoignage sa correspondance : en effet,
dans une lettre à sa mère, Gide raconte la conduite scandaleuse de Lord
Douglas à Biskra, et dans une lettre à Valéry il relate les „amoureuses
besognes" partagées par P. Louys à Alger.

(7) *Amyntat*, "Feuilles de route," Gallimard, 1925, p. 32.

(8) Citons surtout Rilke que Gide avait aidé à établir son iti-
néraire, comme il l'avait fait auparavant pour Kassner et d'autres amis
à qui il promulguait conseils et recommandations.

(9) Entre autres Francis Jammes et Valéry Larbaud; marchant
sur les pas de Gide, ce dernier le suit à Oran, Alger, Constantine et Biskra.

(10) Grâce à eux, une rapide osmose s'établit entre la France et
les pays exotiques, grâce à de nombreux échanges politiques, éco-
nomiques et culturels.

Eternel chercheur d'horizons nouveaux, il prêche le voyage comme moyen d'évasion, comme cure thérapeutique, mais aussi comme rupture avec un milieu familial astreignant. Un critique va jusqu' à y discerner une tentative de remédier à sa stérilité créatrice : pour lui, Gide commence par analyser les causes de "la souffrance d'un écrivain qui peine à tenter de rendre la particularité des êtres et des choses existantes"(2); il émet ensuite un diagnostic fondé sur des raisons physiologiques et morales; il propose enfin le voyage comme seul moyen d'y remédier.

Conscient que toute rupture peut avoir des répercussions graves, Gide n'hésite pas néanmoins à en souligner les bienfaits; et la rupture qu'il entend faire avec son milieu, sa caste, sa religion ou sa culture, laisse des traces indélébiles dans son oeuvre.

Contrairement à Maurice Barrès pour qui le déracinement transforme les jeunes gens en "jeunes bêtes sans tanières"(3) pour Gide le voyage soustrait les jeunes gens à leur milieu dit "formateur"; persuadé que toute stagnation est sclérose, que tout enracinement est médiocrité, il se fait l'apôtre du dépaysement et considère que le voyage et le déracinement sont un signe de vigueur et de jeunesse; car il convient de lutter contre toutes les forces occultes qui asservissent l'homme par un effort continu d'adaptation à de nouvelles "transplantations"(4).

Dans Autour de Maurice Barrès, il écrit notamment-
"Je me suis permis de conseiller aux autres le voyage;
j'ai même fait plus : j'ai poussé, j'ai contraint
d'autres au voyage; il en est qui n'avaient jamais
navigué et qui m'ont rejoint sur des terres assez
lointaines, il en est que j'ai mis en wagon; il en est
que j'ai accompagnés. J'ai fait plus encore; j'ai

(2) Daniel Moutote, *Le "Journal" de Gide et les problèmes du moi*, P.U.F., Paris, 1968, p. 411.

(3) Rappelons au passage que le problème de l'enracinement et du déracinement a longtemps opposé Gide et Barrès.

(4) Dans *La querelle des Peupliers*, Gide a recours à la botanique pour démontrer que les beaux plants sont ceux qui ont été transplantés ou repiqués plusieurs fois dans des terres différentes.

L'on comprend que certains contemporains de l'écrivain aient qualifié de GIDISME tout ensemble d'idées érigées en système cohérent reflétant une technique particulière.

Pour mieux saisir cette technique d'innovation dans la structure du récit qu'introduit Gide dans l'écriture, il ne serait pas inutile de suivre brièvement les méandres de son itinéraire réel et fictif. Mais auparavant il serait opportun d'examiner le rapport étroit qui existe entre le MOI intime de l'auteur et le symbolisme du voyage.

On est en droit de s'interroger si, pour Gide, toute tentative d'évasion n'est point une fuite de soi, ce qui est une forme de poursuite de soi. En effet, certains voyages ne peuvent s'accomplir qu'à l'intérieur même de l'être. Mais la recherche de l'ailleurs pourrait également impliquer une quête de la vérité, de la paix, voire de l'immortalité, et pourquoi pas la recherche d'un centre spirituel. Or, si dans ce dernier cas, le voyage peut contribuer à une certaine progression spirituelle, c'est qu'il se concrétise par un déplacement le long de l'Axe Monde; l'on pense essentiellement à des cas précis comme le voyage de Dante, ou celui de Mahomet, par opposition aux voyages d'Ulysse, d'Hercule ou de Ménélas par exemple, qui peuvent être interprétés comme des recherches d'ordre psychique ou mystique.

Par ailleurs, on sait que pour Jung le voyage traduit chez l'individu une insatisfaction à la fois consciente et inconsciente; de ce fait, toute aspiration au voyage peut symboliser une quête de la "Mère perdue". En contrepartie, Cirotot fait observer que ce pourrait aussi bien être la "fuite de la Mère"; toujours est-il qu'il y a là matière à controverse; si l'on peut détecter chez Gide un désir profond de changement intérieur, beaucoup plus que de déplacement local, l'on ne peut ni affirmer ni infirmer l'hypothèse d'une tentative gidienne de recherche ou de fuite de la Mère. Doté d'une grande indépendance d'esprit, d'un goût marqué de l'expérience, d'un désir ardent de fréquenter des voies hétérogènes, l'écrivain part à la recherche de la vérité, ou plus exactement SA vérité. Pour élucider un tel mystère, son âme toujours avide et jamais assouvie, semble donc entreprendre une poursuite de son MOI à travers le monde.

ment dit, des éléments qui, à l'intérieur de l'oeuvre, suggèrent des variantes. Et d'autre part on est frappé par le nombre de **CONDENSATIONS REFLEXIVES** qui parsèment ses récits : il s'agit parfois d'un **ENDROIT** c'est à dire **ESPACE** et non **TEMPS** c'est à dire **DUREE**; une succession de moments et d'événements viennent créer un phénomène de condensation; tout au long de son itinéraire, Gide nous relance sur un événement nouveau, et on n'enregistre aucune succession linéaire entre les séquences; on se trouve plutôt en présence d'une succession datée d'événements qui se "réfléchissent" sur l'ensemble du récit; c'est là en quelque sorte, une chronologie sans durée située dans un espace plutôt que dans un temps, puisque la durée est remplacée par une "formalisation" de l'espace au sens étymologique du terme. Par moments, même, des condensations s'échelonnent sur plusieurs registres; ainsi dans *Les Faux-Monnayeurs*, le récit de Vincent à propos des animaux du bas-fond reflète une triple condensation :

- 1 — L'histoire du naufrage du bateau,
- 2 — Le récit de ce qui se passe dans le fond de la mer,
- 3 — Le refoulement et le domaine du bas-fond.

L'ensemble de ces condensations se trouve structuré en abyme ce qui tend parfois à attribuer au récit un sens qui échappe au lecteur; et l'on reste sur l'impression que l'oeuvre est ouverte sur quelque chose d'autre.

Si l'on ajoute à ces techniques le rôle prépondérant de l'imagination à la fois en tant qu'évasion artistique et évasion mystique, on peut alors suivre de près les rayons qui convergent vers la **FOCALISATION** définitive. On peut schématiser cette technique comme suit:

profonde connaissance de soi; toutefois se trouve trahie une oscillation permanente entre le goût de l'aventure et le désir de connaissance : situant son MOI au centre de son enquête, il cherche à s'interroger avec lucidité, à déterrer ses réactions inconscientes et les contradictions impérieuses de sa pensée grouillante, avec une sincérité poussée parfois jusqu'aux aveux.

Sans doute, la dualité NARRATION OBJECTIVE/ JOURNAL COMMENTE se propose de rendre crédibles des situations apparemment invraisemblables; la réflexion personnelle vient, en effet, combler la faille du récit; ainsi le lecteur se sent à la fois dans les coulisses et sur la scène; il cerne mal ces espaces : où se situe la scène et où se situent les coulisses ? C'est là le vertige provoqué par le système gidien de mise en abyme.

Le contenu du *Journal*, les *Carnets* de voyages, sont autant de confidences secrètes qui se présentent comme de simples informations latérales; un tel procédé aurait pu gêner le fonctionnement du système; pourtant il n'en est rien; les contradictions internes ne sont qu'apparentes car elle sont parfaitement maîtrisées par l'ART. Précisément, dans *Le Journal des Faux-Monnayeurs* Gide définit ce système :

„La règle de l'artiste doit-être, non de s'en tenir aux propositions de la nature, mais de ne lui proposer rien qu'elle ne puisse, qu'elle ne doive imiter. "(1)

L'art ne reproduit pas la nature et son rôle ne consiste pas à "prouver"; il relève de l'esprit de critique il est le fait d'un individu.

Pour rendre ses propos crédibles, Gide va recourir à différentes fonctions narratives : d'une part il procède à un CENTRAGE NARRATIF où le vécu et le fictif s'entre-mêlent; même si le MOI peut être considéré comme un "décentrement" par rapport au récit, il devient chez Gide un facteur de "centrage" : c'est une telle gageure que l'écrivain met en évidence; on discerne partout des "possibles narratifs", autre-

(1) Ed. Eos, paris, 1926, pp. 34 — 35.

La plupart des écrivains créent comme un accord tacite avec des lieux privilégiés, et entretiennent avec ces lieux des relations particulières. Ils y puisent leurs souvenirs d'enfance, leurs errances, et y retrouvent les traces indélébiles de leur passé; ils y cherchent parfois un prétexte à auto-analyse qui peut les conduire à la connaissance de soi.

Dans cette perspective, les récits de voyage d'André Gide reflètent les hésitations de sa pensée, peut-être même sa tentative de figer son passé pour mieux le maîtriser et, partant, mieux connaître son MOI. "Je vis dans l'attente de moi" écrit-il dans son *Journal*, le 4 février 1912. C'est également ce dont témoigne l'ensemble de son oeuvre autobiographique, où il se propose de révéler sa véritable vie au contact de la terre et ses joies

Après avoir "limé sa cervelle contre celle d'autrui", il aspire à communiquer le résidu de ses connaissances, et l'on peut considérer l'ensemble de ses récits comme un condensé de son vécu. Même si les principaux thèmes qui jalonnent son oeuvre constituent parfois une substance d'emprunt, ils reflètent essentiellement les images de sa vie, et l'on ne saurait saisir les nuances de la littérature gidienne si l'on passait sous silence les impressions de voyages notées çà et là par l'écrivain.

En rédigeant ses souvenirs Gide transpose ses problèmes individuels dans la littérature, surtout quand il traduit les débordements de sa sensualité, il place les paysages sous un angle de vision unique, et les anime de son enthousiasme débordant que n'amenuisent ni fatigue, ni maladie, ni déceptions fortuites.

Célébrant l'agrément des voyages, l'écrivain évoque dans *Les Nourritures Terrestres* les souvenirs du paradis africain sur lequel il n'a jamais cessé de promener un regard indéfiniment ébloui. Dans *L'Immoraliste*, il traduit avec une égale franchise l'ivresse de la liberté qu'il ressent à mesure qu'il sillonne le cosmos. Après avoir évoqué les différentes contradictions que lui présente l'expérience du monde, il fait preuve dans *Si le grain ne meurt* et surtout dans son *Journal* d'une

"Quoi de plus glorieux qu'une âme quand elle se
délivre? Quoi de plus tragique qu'une âme qui se
captive alors qu'elle croit se délivrer?"

André Gide
Feuillets

REFLEXIVITE DE L'ECRITURE :

La profération du JE et la focalisation sur le MOI.

Elaboration des récits de voyages : le vécu, les lectures et l'imagination:

— *Si le Grain ne meurt* :

Une focalisation sur le "presque-rien".
Condensation des forces latentes du narrateur.
Extension sémantique.
L'écrivain-espion.

— *Le Journal* :

Une création réflexive de soi.
Gide-Homme face à Gide -Ecrivain.
L'espion-espionné.

— *Les Nourritures Terrestres* :

Focalisation du faisceau Orient-Occident.
Une double condensation réflexive les caravanes et les déserts.
Distanciation de l'écrivain : du MOI au IL.

CONCLUSION :

La réalisation de soi par l'écriture et RE-naissance du MOI.

La structure et la technique de l'écriture prolifèrent et varient en fonction des états d'âme de l'écrivain.

Le voyage comme prétexte pour énoncer et commenter ses théories

Le symbolisme du grain qui meurt et se multiplie comme reflet de l'inconscient déterré.

TABLE DES MATIERES

INTRODUCTION :

La dualité Narration objective-Journal commenté.

Les fonctions narratives :

- Condensations réflexives : l'espace et le temps.
- Centrage narratif : le vécu et le fictif en tant que "possibles narratifs".

De la structure en abyme à la focalisation; schéma structural.

Le symbolisme du voyage.

EXODISME ET DROMOMANIE :

I — La décade africaine

- Structure de l'écriture.
- Condensations réflexives, centrage narratif et focalisation.

II — EXOTISME ET EXODISME :

- Mirages de l'inconscient.
- Le goût de l'exotisme invite à l'exodisme.

III — UN DEMI-SIECLE DE NOMADISME :

- L'ITALIE : aucune condensation réflexive, un centrage narratif et une focalisation.
- LA TURQUIE : Une double condensation réflexive, un centrage narratif et une focalisation.
- L'URSS : aucune condensation réflexive, aucun centrage narratif, et une focalisation négative.
- L'EGYPTE : Une triple condensation réflexive, aucun centrage narratif et aucune focalisation.



**CENTRAGE NARRATIF ET CONDENSATIONS
REFLEXIVES DANS LES RECITS DE VOYAGE
D'ANDRE GIDE**

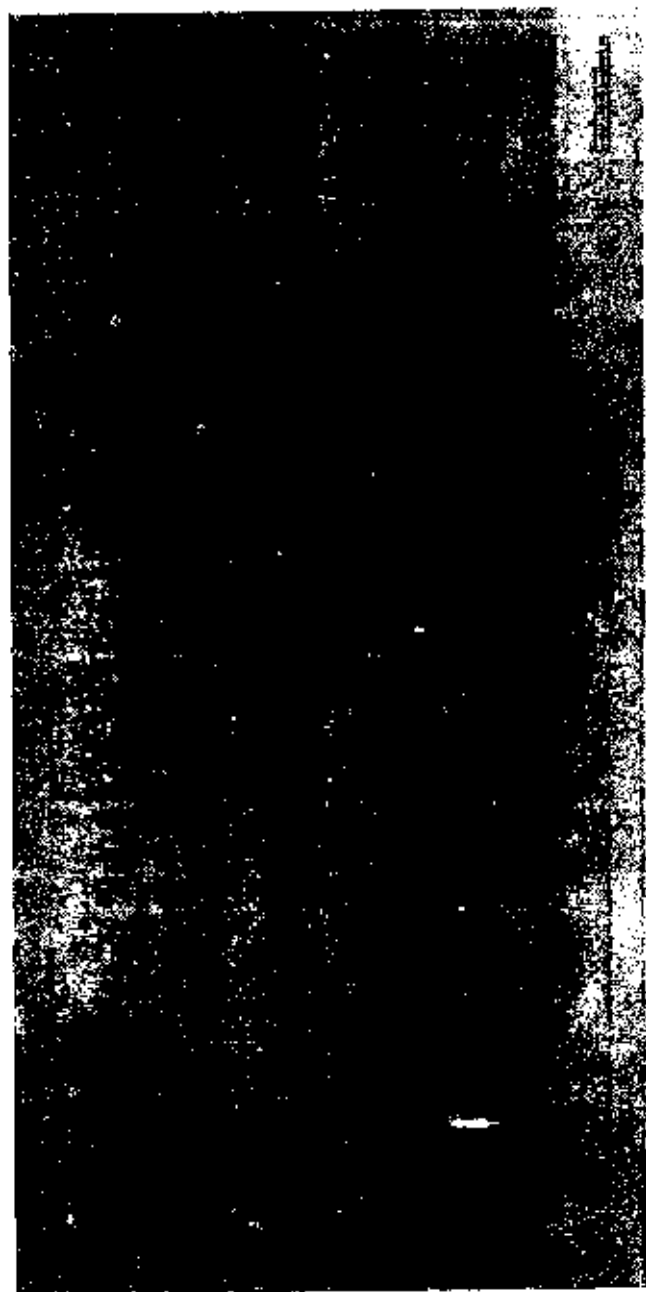
Par
NADIA ABDALLAH



17. Salzburg, 2 reine Häuser

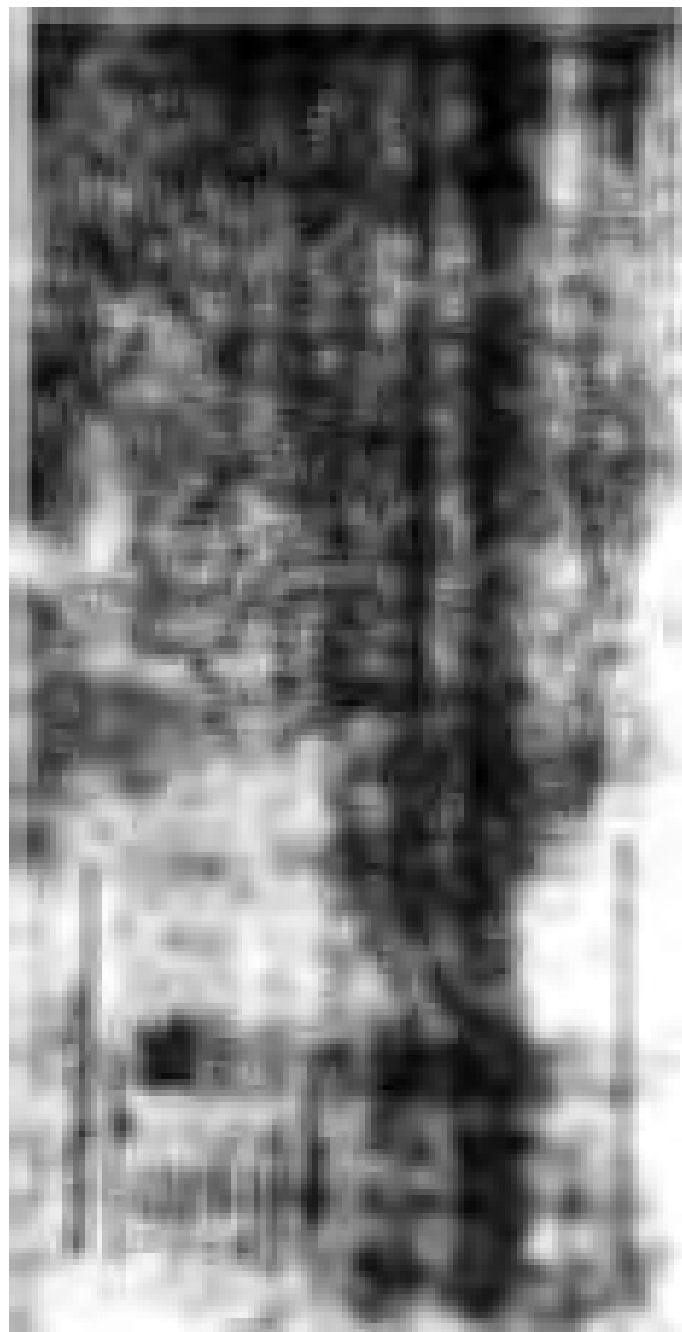


16. Kairo Silhouette

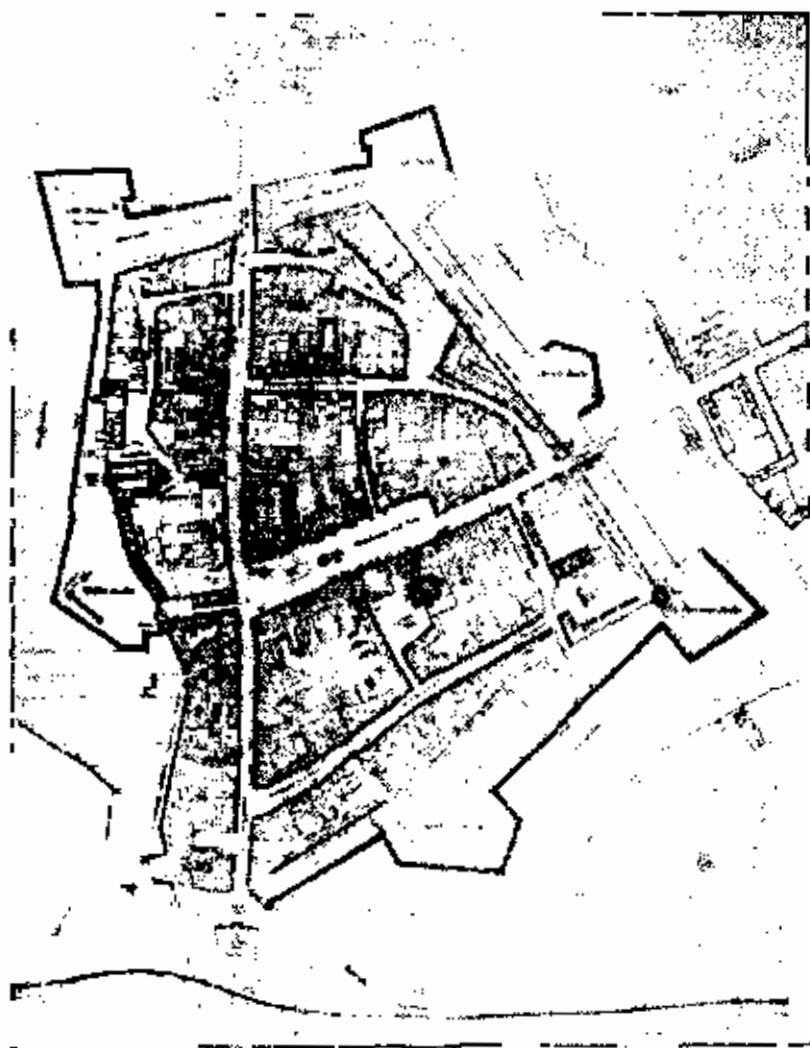


15. Österr. Archäologische Karte

.....



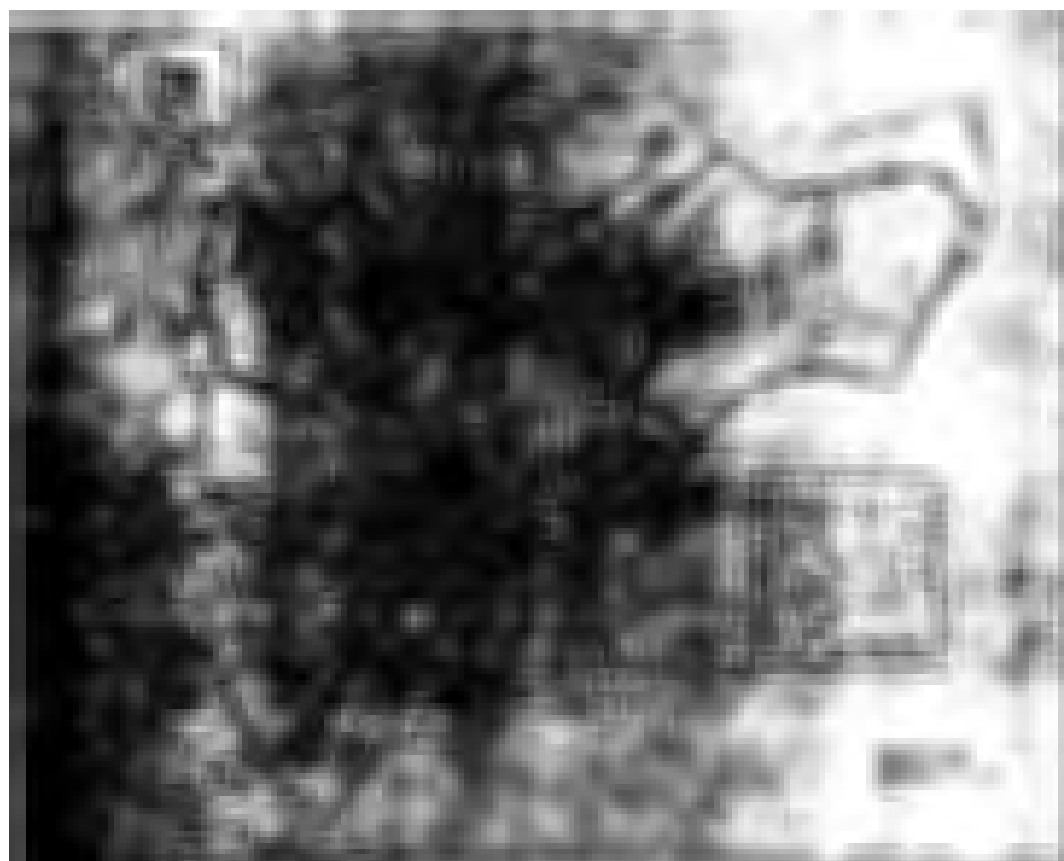
14. Österr. Karte, historische Substanz



13. Redkersberg.



12. Avignon





10. Obertilliach Plan



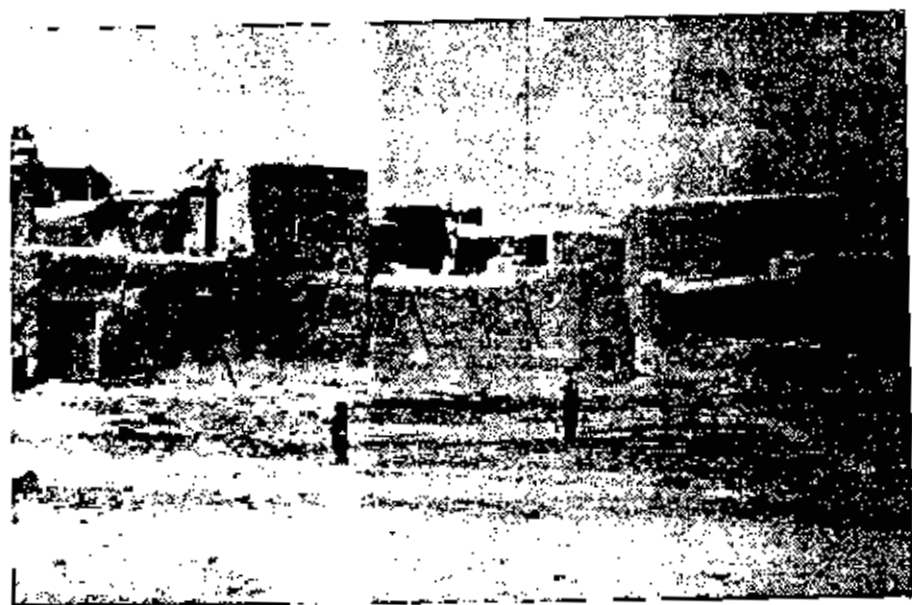
8. Dorf bei Dender Pahlou, am Kasp. Meer



9. Obertillach Ansicht



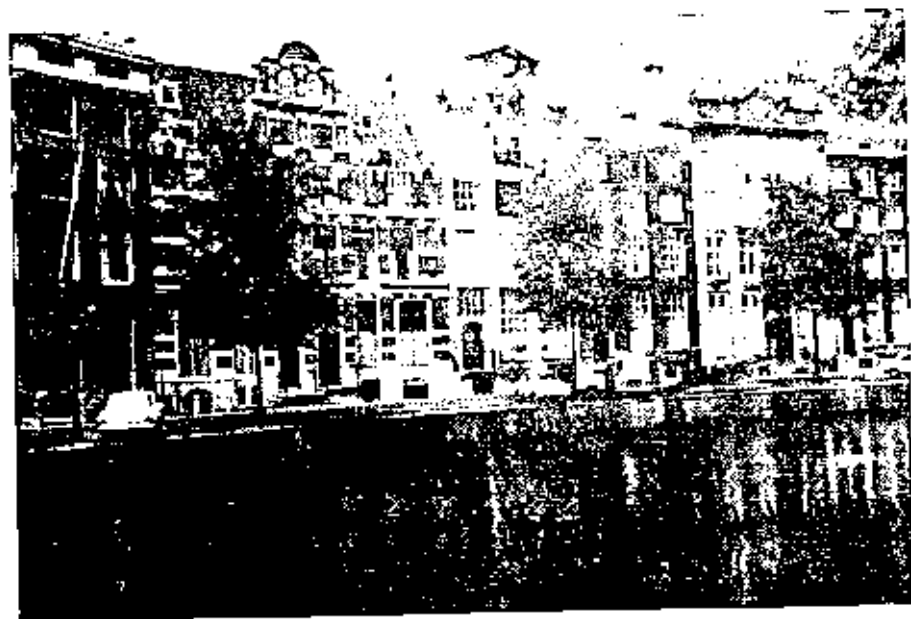
6. Stockholm



7. Cürün



4. Erzurum



5. Amsterdam



2. Salzburg



3. Dubrovnik



1. Kairo

ضریق خیبرالی کابل



Holdich, INDIA, London.

شکل (۳)